

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190843

UNIVERSAL
LIBRARY

حبيب الدنيا وشيخها

تأليف

زكي مبارك

دكتور في الآداب

« يا ابني أخى ! »

لقد كنت موكلاً بالجمال أتبعه ،
وانى رأيكما فراقى حسكما وجمالكما ،
فاستمعتما بشبابكما قبل أن تندما عليه «
عمر بن أبي ربيعة المخرومي

الطبعة الثالثة

حقوق الطبع محفوظة للأولف

يطلب من المكتبة البخارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر

لصاحبها مدير مطبعة مصر

الاهداء

إلى الوالد الكريم

الشيخ عبد السلام مبارك

مازلتُ أَمْرَحُ في نُعْمَى وعافِيَةٍ
من نَيْلِكَ الْجَزَلِ أو من رَأْيِكَ الْحَسَنِ
وَأَسْهَرُ اللَّيْلِ في عِلْمٍ وفي أدبٍ
أُبْنِي رِضَاءَكَ عن قِصْدِي وعن سَنَنِ
وَأَسْتَقِلُّ لِأَجْلِ الْفَضْلِ مَاسَمَحَتِ
به اللَّيَالِي لِأَهْلِ الْفَضْلِ مِنْ مِجَنِّ
حَتَّى بَلَغْتُ بِجِدِّي بَعْضَ مَا طَمَحْتُ
إِلَيْهِ نَفْسِي كَمَا يَرْجُوهُ لِي وَطَنِي
فَالْيَوْمَ أَهْدِيكَ مَا أَبْدَعْتُ مِنْ أَثَرٍ
أَبْقَى عَلَى الزَّمَنِ الْبَاقِي مِنَ الزَّمَنِ

ولدكم

زكي مبارك

٢٧ فبراير سنة ١٩١٩

كلمة

الشيخ مصطفى القاياني^(١)

من كان بطبعه ميّالاً إلى الحرية في الفكر ، والاستقلال في الرأي ، وكان مع ذلك محباً للانصاف ، راغباً في الاعتدال : فليقرأ هذا الكتاب . فانه ينمّي فكرته ، ويقوّى شخصيته ، ويزيده بصراً بالنقد ، وعلماً بالشعر ، ويهديه السبيل إلى فهم الأدب ، والحكم على الشعراء .

وجدير بمن نظر فيه أن يكمل علمه ، ويكبر عقله ، لما عرف به الأستاذ زكي مبارك من سلامة الذوق ، وأصاله الرأي ، وما امتاز به من بعد النظر ، ودقة الملاحظة ، مع ماله من رشاقة الأسلوب ، ومهارة التركيب ، إلى غير ذلك من الميزات التي تجعلنا نأمل كثيراً أن يكون هذا الابن البار اماماً من أئمة الأدب ، وعظيماً من عطاء الأمة .

جعله الله قدوة لشباننا العاميين ، وأبنائنا الفاهضين ، والسلام

مصطفى القاياني

٢٥ فبراير سنة ١٩١٩

(١) تفصل انرحوم الاسد السبح مصطفى القاياني ، كناه هذه الكلمة لوضع على صدر الكتاب ثخايت بها الطمعة الأولى والديه . وكان في النية رفعها من هذه الطمعة فرارا من الاعتماد على التقريط ، ولكن اسبق الاسد إلى حوار ربه وفرص عليا في سبل الوفاء له والبر به ابقاء هذه الكلمة الطيبة مسفوعة بالاعراف مما كان له من الفصل والانهاه الى الله أن يسكنه فرادس الجنان .

كلمة نقد

لحضرة الباحث الكبير

الدكتور طه حسين

« أقول هذا كله بعد أن فرغت من قراءة رسالة صغيرة ، ولكنها قيّمة مُمتعة ، للدكتور زكي مبارك خريج الجامعة المصرية ، تناول فيها شعر عمر بن أبي ربيعة فدرسه من بعض نواحيه درساً حسناً يسرني أن أهنته به ، ويسرني أيضاً أن أنتهز هذه الفرصة لتسجيل ما للجامعة المصرية من فضل على عقول الشباب . ولكن الدكتور زكي مبارك وهو شابٌ حادّ الشباب عفيفه ، أسرف في نقد مصعب ابن عبد الله اسرافاً جعله إلى الظلم أقرب منه إلى الانصاف . وليس مصدر هذا الاسراف إلا أنه لم يقدر كما ينبغي اختلاف المثل الأدبية باختلاف العصور والأجيال . وما أحسب إلا أنه عائد إلى هذا النقد فملطّفٌ ما فيه من حدة ومزِيل ما فيه من جور »

كلمة المؤلف

في الطبعة الأولى

هذه المحاضرات أُقيمت في فبراير سنة ١٩١٩ في الجامعة المصرية على أنها دروس تمرين ، وكنت اقيت من اعجاب الاستاذ الدكتور احمد ضيف والاستاذ الشيخ عبد الوهاب المنجار والاستاذ الشيخ مصطفى القاياتي ماحبباً إلى ظهورها في كتاب يتناوله عشاق الآداب . ثم لم أكد أشرع في طبعها حتى كانت النهضة المصرية فكتب الله انما أن نمت بسبب إلى الذائدين عن مصر والسودان ، ثم اعتفت مدة غير قليلة أنكرت فيها كل ما يوحى به الشباب ! ثم عدت من المعتقل ، ونظرت ثانية في تلك الصحائف المطوية ، فرأيت فيها أثراً من آثار الثقة بالنفس ، وعزّ على أن لا يجد نسيم الشباب فضاءً يماؤه بالعزيزية والثبات

واني لموقن أن في الناس من لا يظرب لهذا النحو من البيان ، ولكني لم أكتبه إلا لمن قدّر له أن يدرك أسرار الجمال ، وهدى الله من يحسب أن التأليف لا يصح إلا في الأبحاث التي تشبه بعض الأذهان في الجمود !! واعلم أجد من الشجاعة الأدبية ما أعيد به طبع

هذا الكتاب مع ما سيقال فيه من مدح وهجاء ! واني لأرحب
بكل كلمة فيها نفحة من النقد المبني على فهم وإدراك . فمن شاء أن
يُنشرَ له شيء من ذلك في الطبعة الثانية فليبعث به إلىَّ لأعرض على
الناس طائفة من العقول ! وكل امرئ بما كسب رهين !



وإني أقدم الشكر الخالص من شوائب العقوق لأساتذتي
في اللغة والأدب : الشيخ سيد المرصفي ، ومحمد بك المهدي ، والشيخ
علي عبد الرازق ، والشيخ مصطفى القاياتي ، والدكتور أحمد ضيف^(١)

(١) كان ذلك قبل أن يعود حصرة الاستاد الدكتور طه حسين من فرنسا
واليوم يتشرف المؤلف بأن يعييف إلى أساتذته في اللغة والأدب اسم هذا الباحث
العظيم الذي ملأ الدنيا وشغل الناس . وطبع الأدب في هذا العصر بطابع القوة والحياة

من النفس الى النفس

[فى كتاب « المدائع » كلمة المواقف فى نقد هذا الكتاب . رأينا إثباتها لها ليرى القارئ كيف تمر سينات الكاتب عليه فلا يمحوها ، وإنما يعتد بها برفق ليسوع لها البقاء]

فى فبراير سنة ١٩١٩ أقيمت ثلاث محاضرات فى الجامعة المصرية عن حب ابن أبى ربيعة وشعره ، تحت إشراف الأستاذ الدكتور احمد ضيف وقد طبعت هذه المحاضرات بعد إلقيائها بقليل . ويرى الناظر فى مقدمة الكتاب هذه الكلمة الجريئة :

« وإنى لأوقن أن فى الناس من لا يطرب لهذا النحو من البيان . ولكنى لم أكتبه إلا لمن قدّر له أن يدرك أسرار الجمال ! وهدى الله من يحسب أن التأليف لا يصح إلا فى الأبحاث التى تشبه بعض الأذهان فى الجود !! »

وقد نفذت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، وستظهر الطبعة الثانية عما قريب . من أجل هذا أسبقُ النقاد الى بعض المآخذ التى أرانى مضطرا الى إبقائها ، إجلالاً للثقة بالنفس ، وإكباراً لنزق الشباب ! :
أنظر قول ابن أبى ربيعة :

أبرزوها مثل المهابة تهادى بين خمس كواعب أتراب
وهي مكنونة^١ تحير منها في أديم الخدين ماء الشباب
ثم قالوا تحبها ؛ قلت بهراً عدد الرمل والحصى والتراب
أتدري كيف علقت على هذه الأبيات الحسان ؛ اقرأ الكلمة الآتية :
« ووجه الحسن في تحيير ماء الشباب أنك تنظر الى الحدود الموردة ،
فتراها كالشفق تتنقل من تحته الشمس ، أو كالمشكاة يتموَّح في قابها المصباح
في سبيل الحب تلك النظرة ! يوم رأيته وقد أبلَّ من حمى أضرَّعته ،
فرايت ماء الشباب يدبُّ في تلك الحدود وهي صفراء كالورس ، فيعيدها
حمراء كالورد ، وإذا الأنس يتمشَّى في فؤادي اشفاؤه ، تمشَّى البرء في
أعضائه »

وهذا استطراد لا يشك القارئ في أنه غير محمود ، ولكنني
أستغفر الله !

وفي موطن آخر يجد القارئ هذه الكلمة :

« لم يكن ابن أبي ربيعة ممن اذا غاب عنه حبيب أخذ في البكاء
عليه ، والحنين اليه . تلك سبيل الشعراء المفجَّعين ، الذين كانت قلوبهم
أعواناً للدهر عليهم ، وكانت نفوسهم أخصاء لهم . أولئك هم المعوزون
في عالم المحبة ، والمحرومون في دولة الصباية . أولئك الذين يرون الجمال

ظالماً ظالماً ، ثم لا يستطيعون أن يتفهموا المذنب وارث الضلال ، أولئك الذين يحسدون الغلائل على الاعطاف ، والعقود في النجور ، وكيف يكون ابن أبي ربيعة مشاهير مسكيناً في شعره ، وما كان مسكيناً في حبه ؛ أم كيف بصف البكاء والمدامع ، وما أَلَمَتْ نفسه ، ولا دَمَعَتْ عينه ؟ بعداً للذلة حتى في الحب ؟ وتباً للمسكنة حتى في الغرام ! »

وهذه صورة نفسية قد لا يقتضيها موضوع الحديث . ولكن هذا الذي كان !

ويرى القاري في هامش الصفحة الثمانية عن ترجمه الشيخ حسين الحكيم مانصه :

« وكان رحمه الله آية الآيات في حُسن الخلق ، وصَبَاحَةِ الوجه ، وأَصَالَةِ الرَّأْيِ ، وحلاوة الحديث ، وكان لا يعدله عندي غير شقيق (سيد مبارك) الذي فقدته معه في أسبوع واحد . وكان موتهما معاً بالحنى الأسبانية . لا رد الله لها غربة ، ولا قدر لها رجعة . وكان أخى سيد من أقوى الفتيان بأساً وأمضاهم عزيزة ، ولو عاش لَضُرِبَتْ بشجاعته الأمثال »

وقد سألتني بعضهم عما يعنى الدارء من هذا التفصيل ، فأجبتة : إنه يعنى مؤلف الكتاب !

ويرى القارىء هذه الكلمة عن عواطف أهل الحضر :

« وقلماء يصدق للحضريين حب ، أوتبقى لهم صباية . إذ يرون من
متمات الظرف ، ومكملات الأدب ، أن يحى الرجل بعين باكية ، وقلب
خفاق ، فلا يزالون يتلمسون الهوى ويتحسسون الصباية ، حتى تُتاح
لهم أسبابها ، وتساق اليهم همومها

وأنا الذى اجتلب المنية طرفه فمن المطالب والقتيل القاتل »
وهذه مسألة فيها نظر كما يقولون :

*
* *

ولا أستطيع أن أعد ما فى كتاب (حب ابن ربيعة وشعره) من
الهفوات ، ولكنى أحمد الله على أن وفقت إلى تصوير ابن أبى ربيعة
وتمثيل حياته ، حتى كأنك تراه .

مقدمة الطبعة الثالثة

صار جِدًّا ما مزحتُ بهِ رَبِّ جِدِّ جَرَّةُ اللَّعِبِ

إي والله ! فقد كنت ألهو وألعب يوم كتبت ما كتبت عن ابن أبي ربيعة منذ تسع سنين وأنا طالب بالجامعة المصرية . وليس معنى هذا أننى كنت أتخذ الحب والجمال سبيلا الى العبث والمجون ، كلا ! فقد كان الجمال كما فهمته في ذلك الحين محرّاباً تخشع في مُصَلَّاهُ القلوب ، واكن معناه اننى كنت أقبل على الحبّ والحُسن إقبال الغافل الذى لا يدري ما تكن خمائل الازهار من عاديات الافاعي وقاتلات الصّلال

ولقد أذكر — والنفس تأكلها الحسرة على سذاجة تلك الايام الخالية — اننى قلت في أول محاضرة ألقيتها عن ابن أبي ربيعة : « إن الحب نفحة من نفحات النبوة » ثم أخذت أقيم على ذلك الأدلة والبراهين ، فعارضنى جماعة من المستمعين على رأسهم صديقى الاستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان ، فلما كانت المحاضرة الثانية كنت قد أخذت الأهبة للدفاع عن تلك النظرية ، وكان صديقى قد استقدم طائفة من زملائه علماء الازهر لمعاونته إذا جِدَّ الجِدِّ واحتدم النّضال ، فماهى إلا أن قلت : « أيها السادة !

لقد أسلفنا في المحاضرة الماضية أن الحب نفحة من نفحات النبوة « حتى انفجر الاشياخ دفعة واحدة مطالبين بوقف هذا الهراء ، فتدخل الاستاذ الدكتور أحمد ضيف وأبان لهم في رفق ودعابة أن الحب « كلام فارغ » واني على خطأ فيما أقول مبين ، وأشار إلىّ بتخطي هذه الفكرة ، وطىّ كل حديث فيه نبوة وأنبياء ، حتى لا يثور القوم من جديد !

وكذلك عرفت لأول مرة بفضل تلك المعارضة العنيفة ، ان الحب مهما سمت أغراضه لا يجد من القوة ما يدفع به عدوان الجامدين الذين يحسبون الفضل كل الفضل أن يحيا الرجل بقاب مغاق متبادل ، لا يفقه معنى الحب ، ولا يدرك أسرار الجمال ، فعدت الى ما كتبتة عن الحب والنبوة فمحوته كما يحى الضوء من تجاليد الليل ، وأقبلت على نفسى أعدها للجد الصراح الذى يكبح غمزات اللامزين ، ويردع لمزات اللائمين

ولكن كيف وقد صار الحب فى نفسى أخطر أنواع الجد ، وعدت أرى الجمال الانسانى أروع مافى الوجود ، واستطعت أن أقول فى مقدمة « مدامع العشاق » وأنا أقيم الدليل على أن الانسان لباب الطبيعة وسرها المكنون :

« وما قيمة الليل إن لم تُظاني فى الحب ظلاماؤه ؟ وما قيمة البدر إن لم يذكرنى بالفرغ لألاؤه ؟ وما جمال الاغصان إن لم تهزنى الى ضم القدود ؟

وما حُسْنُ الازهار إن لم تَشْقَى الى لثم الحدود ؛ وكيف أميل إلى الظباء
 لو لم تُشَبِّهْ بعيونها وأجيادها ماله حسان من أعناق و عيون ؛ وكيف أصبو
 الى غُنة الغزال لو لا ذكرى تلك النبرات العذاب التي يسمونها السحر
 الحلال ؛ »

وما أنسَ لا أنسَ أن كتاب مدامع العشاق أثار على رجلاً هو منذ
 سنين على رأس الحياة العقلية في مصر والشرق ، وأن أستاذي الدكتور
 طه حسين كتب عنه فصلاً في جريدة السياسة فنالني بلام عنيف ، وكنت
 جديراً بالانصراف عن هذا النحو من البحث ترضيةً لتلك النفوس
 النبيلة التي تشفق على من ظلمت الإيفك وحنادس البهتان
 وليكن كيف وقد صار الحب مرضاً عضالاً لا يُرجى له بُرءٌ
 ولا شفاء ، وأصبحت وأصدق ما أحدث به عن نفسي كلتي إلى صديقي
 الأستاذ أنيس ميخائيل حين أقول :

« أرجو أن تعلم أن إدماني على الاغتباق بما أودع الله الليل من سحر
 يتمثل في بدره المشرق أو ظلامه المسدول ، والاصطباح بمطالعة ذلك
 الكتاب الخالد كتاب الوجود ، ودرس ما فيه من غرائب الملاحة وبدائع
 الجمال ، أحب أن تعلم أن هذه الحياة الوجدانية ، التي يحياها رجال الأدب
 طائعين أو كارهين ، توقد الحسَّ وتُلَبُّ الخيال ، حتى ليصبح القلب في

سعير من الظمأ وهو يسبح في كوثر من النعيم ، ومن هنا تجدد من لا يزال .
 يشكو ويعتب وهو في ظل من النعمة ظليل . وكذلك أحسب أن الطبيعة
 مَدِينَةٌ لَا عَجَابِي وَاحْسَاسِي بِمَا فِيهَا مِنْ زَهْرَةٍ تَتَفَتَّحُ أَوْ غَصْنٍ يَمِيدُ ، وَأَرَانِي
 صَاحِبَ الْفَضْلِ عَلَى كُلِّ عَيْنٍ تَرْنُو وَكُلِّ قَدْ يَمِيسُ . وَقَدْ يُلَحُّ الْأَسْرَافُ وَيَبْجُ
 الطغيان فأنكر أن يكون غذائي في هذه الدنيا من الخبز والماء ، وتمتد
 عيناى إلى انتهاب ما عَزَّ واستعصم من أسالة الخدود ، ورشاقة القدود ،
 وتسمو نفسى الى اقتناص ما نَدَّ من شوارد المني وأوابد الآمال ،
 ويتمرّد قلبي كلما أحسَّ سَانِحَةً تَتَمَنَّعُ ، أَوْ قَنَاةً لَا تَلِينُ . وَلَوْ شَاءَ الْحَسَنُ
 لَبَطَشَ بِي مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِأَنْ لَهُ وَحْدَهُ الْعِزَّةُ وَالْجَلَالُ ، وَصَعَقَ مَنْ لَا يَسْبَحُونَ
 لَهُ فِي الْغَدُوِّ وَالْآصَالِ ، وَلَكِنْ حَاشَاهُ أَنْ يَنْفَرَنِي مِنْ رِيَاضِهِ وَأَنَا شَاعِرُهُ
 وَمَجْنُونُ لَيْلَادِهِ ، أَوْ يَذُودَنِي عَنْ حِيَاضِهِ وَأَنَا حَارِسُهُ وَالسَّاهِرُ عَلَى حِمَاهِ .



إِذَنْ لَا مَفْرَءَ مِنَ الْعُودَةِ إِلَى ابْنِ أَبِي رَيْبَعَةَ ، أَوْ صَفِّ الشُّعْرَاءِ لِرَبَّاتِ

الْحِجَالِ !

ولكن كيف نعود إليه ؟

الامر يسير ! ألم تمفد الطبعة الثانية من كتاب (حب ابن أبي ربيعة

وشعره) ؟ فلنطبعه من جديد ، وفي هذا كفاية لمصاحفة شاعر الحب والجمال

ولنتهز هذه الفرصة لتتكلم جادّين أو مازحين عن العشق والصباية والحسن والصباحة ، ولتقلب هذه الكلمات على جميع وجوهها ولنطال فيما تتصل به من جدّ القول وهزله ، وحلوه ومره ، ولنجلّ صدأ النفس بتصريف هذه البضاعة التي سمعت غير مرة انها نوع من اللغو ، وضرب من الهراء وأنها شغل من لا شغل له من كل فارغ الرأس دقيق الاحساس :

حسن ! فلنكتب على بركة الله ، أو على وجه الحب مقدمة للطبعة

الثالثة :

ولكن ماذا نقول ؛ لا بدّ من جديد ، فان قراء اليوم لهم نياتٌ أشدّ تعقيداً من ضمائر الوشاة ، ولهم أبصارٌ أحدٌ من عين الرقيب ! وبيننا أنا أعد نفسي لكتابة هذه المقدمة مرتبى حوادث خطيرة زادتني ثقةً بأن بنى آدم كأنما خلّقوا ليبغى بعضهم على بعض ، وليكون أشرارهم حرباً لأخيارهم ، ولتكون كرائم الإخلال من المودة والوفاء والاخلاص براقع يلبسونها ليخفوا ما فطر عليه لثامهم من الغل والحقد ، وما درجوا عليه من الاثم والبغى والعدوان

وكذلك أمضيت ثلاثة أسابيع أفكر فى أناسٍ سقيتهم الشهد فسقوني العلقم ، وأصفيتهم الود فأصلّوني نار الجحود !

والآن أستطيع أن أتقدم اليك أيها القارىء بشيء جديد !

أندري ما هو؟

أستطيع أن أقول لك : ان هذه الحياة أغلى وأثمن من أن تضيع
في معاشرة حاسدٍ لئيمٍ العم والخال ، أو محاوره غبيٍّ قدَّ رأسه من الظلمة ،
ورصينَ عقله من الهباء ، أو مصافحة صديق يتجنَّب عليك وهو يعلم أنك
في طُهر الملائكة ، ونُبَل الأنبياء

وستقول : أهذا جديد؟ ألم يقل به فريق من الفلاسفة قبل اليوم ؟
وأجيبك بأن ابن أبي ربيعة نفسه جهر بما يشبه هذه الدعوة ،
والمتبني زاد عليها حين قال في السُّخَر من مَلاحَةِ المِلاح :

مِمَّا أَضَرَ بِأَهْلِ الْعَشَقِ أَنَّهُمْ هَوُوا وَمَا عَرَفُوا الدُّنْيَا وَلَا فُطِنُوا
تَفَنَّى عِيُونُهُمْ دُمْعًا وَأَنْفُسُهُمْ فِي إِثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهُهُ حَسَنٌ
تَحْمَلُوا حِمْلَتَكُمْ كُلَّ نَاجِيَةٍ فَكُلَّ بَيْنٍ عَلَى الْيَوْمِ مُؤْتَمَنٌ
مَا فِي هَوَادِجِكُمْ مِنْ مَهْجَتِي عَوْضٌ أَنْ مِتَ شَوْقًا وَلَا فِيهَا لَهَا ثَمَنٌ
فَلْيَكُنْ هَذَا جَدِيدًا عَلَيَّ وَحْدَى أَيُّهَا الْقَارِئُ ، وَلَا كَتَفْ بِالْإِبْتِهَالِ
إِلَى اللَّهِ أَنْ يَهْبِكَ مِنَ الْبَصَرِ بِالطَّبَائِعِ وَالْخِلَاقِ مَا يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ
السَّكُونِ إِلَى وَرْدٍ يَحْلُو يَوْمًا لِيُمِرَّ أَعْوَامًا ، وَالْإِخْلَادِ إِلَى نَفْسٍ
تَصِفُو لَحْظَةً لَتَكْدُرْ دَهْرًا ، وَالرِّضَا عَنْ حَظْوِظِ هِيَ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ مَطَامِعُ
وَأَهْوَاءُ ، وَفِي نَظَرِ الْعَمَلِ مَصَائِبُ وَأَرْزَاءُ ۝

إذن لم يكن إدماني على كأس الحب شرًّا كله ، ولا إسرائي
في رعاية الحسن إنما كله ، بل أستطيع بعد اليوم أن أعد غوايتي هدىً ،
وان أحمد الله على أن جعل لي في ظلال الحسن مقيلاً أنسى فيه لفحات
الأسى ولذعات الأشجان

ولكن أين مواسم ابن أبي ربيعة ؟ أين مناسك الحج حيث
تُعرض نفائس الجمال ، وروائع الحسن ، وغرائب الملاحه ، من
الحجاز والشام والعراق ؟
الله كريم ، كما يقول الأتراك !

فانه حين خلق الطرف الجامح ، والقباب الخافق ، أنشأ بجانبهما
في كل بقعة وفي كل زمان ، ملاعباً للغيرد ومراتع للظباء !!
هو إذن رأى أدين به ، وأذهب إليه ، فاست والله سيء القصد ،
ولا أسودَّ الغرض ، ولا أنا ممن يعيشون في الأرض ويهتكون
الحرمت ، فليطمئن أساقى المشفقون على من تقول المفترين ، وتزيد
المعتدين ، فقد صممت منذ زمان على أن أساير الفطرة ، وأجاري
الطبيعة ، وأن أقف حيث يقفني وحي الواجب ، وصوت الضمير .
وإن الموت لأحبُّ إليَّ من أن أكون رجلاً يُقال له كُنْ فيكون !
فان عشت صاغت الثرياً وإن أمتْ فان كريماً من تضم الصفائح



وبعد فقد رأيت أن أضيف إلى هذه الطبعة فصولاً عن حب ابن أبي ربيعة وشعره أفصل بها بعض ما أجملت في تلك المحاضرات الثلاث فأثبت رأيتته التي أعجب بها ابن عباس مصحوبة بالشرح والتفسير ، وأترجم مصعب بن عبد الله الذي انفرد بين القدماء بتقديم مزايا شعره إلى الجمهور ، وأنحدث عن معشوقاته اللاتي أضرنَّ في قلبه نار الحب ، وهدينه إلى سواء النسيب ، وأذكر بعض الفكاهات التي اتصلت به وجرت مجرى الأمثال

غير أني أحب أن انتهز هذه الفرصة لأعرض لك رأيي في إيثار الأدب المكشوف ، إذ كنت واثقاً من أنك ستري في جملة هذا الكتاب ما أخشى أن تتخرج منه ، أو تتنكر له ، مع أن الأدب كالفن يجب أن يسمو عن الأوضاع والتقاليد ، حتى لا يفتر ويضوى بوضعه تحت رحمة المتزمتين من رجال الدين ، ورعاية المتحرجين من دعاة الأخلاق

ألا ترى أنك لو عمدت إلى امرأة جميلة فصورتها وهي في لباس المصرية أو الفارسية أو التركية أو الانجليزية أو الألمانية لكان لذلك

اللباس أثر سيء في وضع تلك الصورة في حدود ضيقة تحبسها حيث يليق ذلك الزئ ويقبل ذلك الهندام ؟ ولكنك لو صورتها عريانة حيث صاغها الحسن ورسمها الدلال لبقيت « انسانية » تروق الانسانية في جميع البقاع

ولأمر مّا وضع الأقدمون « قينوس » عارية الجسم ، غانية عن الحليّ واللباس ! إنهم وضعوها كذلك لتبقى مُنية الأُفدة ، ونُهبة العيون ، في جميع الممالك وعلى اختلاف الأجيال

وكذلك الأدب يسمو بقدر ما يتحرر من قيود الزمان والمكان ، فالقصيدة أو الرسالة التي تعبر عن معنى من المعاني الانسانية أبقى على الدهر من التي تعبر عن نزعة مصرية أو انجليزية ، فان النزعات الموضوعية عرضة للتغير والزوال ، ولكن الميول الانسانية جديرة بالخلود ، والأدب المستور انما يُغشّى بالحُجب المحلية التي لاندري أبقى سائفة مقبولة ، أم يعدو عليها البدعُ المستطرف فيلقى بها في مهاوى الخمول ؛ ولقد ظن الناس ، حين شاهدوا المناظرة التي قامت بين الأستاذ سلامة موسى والأستاذ توفيق دياب ، أن هذه أول مرة يختلف فيها أدباء اللغة العربية في المفاضلة بين الأدب المستور والأدب المكشوف ، ولكن الواقع أن هذه المسألة بعينها كانت مثار الجدل عند المتقدمين

تحت اسم آخر هو الخصومة بين من يوجبون أن يكون الكلام جدًّا
كلّه ، وبين من يؤثرون أن يمزج حيث يقتضى الحال بشيء من
الدعابة والمجون

ولو عدنا إلى رجال الأدب في تلك العصور التي نهضت فيها اللغة
العربية ، ولفتت أنظار العالم في الشرق والغرب إلى ما فيها من عناصر
القوة وأصول الحياة ، لوجدنا أكثرهم من أنصار الأدب المكشوف ،
فهذا أبو الفرج الاصبهاني يودع كتاب الأغاني كل ما عرض له من
أخبار الخلفاء والشعراء والكتاب بعبارة حرة صريحة مكشوفة لا يشقلها
قيد ولا يحجبها قناع ، وهذا النويري يكتب نهاية الأرب بحرية
خالصة لا يشوبها تحرش ولا يحدّثها تنسك ، وهذا الجاحظ يأتى أن
يحرم القارئ من ثمار اطلاعه التي جمعت ما تفرق من شهوات العقول ،
وهذا الثعالبي يُفرط في تصيّد ما شرد من روائع المُلح والفكاهات
ونوادر الساسة والملوك ، ولا نفس ابن منظور الذي أشعر الناس بأنه
جبار أهل الجدّ حين وضع لسان العرب ، ثم رجع فراعهم بدعابته حين
وضع أخبار أبي نواس

على أنه من الخير أن نقدم للقارئ بعض ما يقوله هؤلاء الأفاضل
في إثار الأدب المكشوف ، ولنكتف بقول ابن قتيبة في مقدمة
عيون الأخبار :

« وسينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما ، فاذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به

» واعلم انك ان كنت مستغنيا عنه بتنسك فان غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج إليه ، وأن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيها على ظاهر محبتك ، ولو وقع فيه توقي المتزمتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه ، ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل عليه معك

» وانما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين . وإذا مرَّ بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو فاحشة فلا يحمانك الخشوع أو التخاشع على أن تصعّر خدك وتعرض بوجهك ، فان أسماء الأعضاء لا تؤثم وانما المأثم في شتم الاعراض وقول الزور والكذب وأكل حوم الناس بالغيب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تعزّى بعزاء أهل الجاهلية فأعضوه بهنٍ أيه ولا تكنوا » وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لبديل بن ورقاء — حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ان هؤلاء لو قد مسهم حز السلاح لأساموك — : « اعضض ببطر اللات ،

أُنحن نُسامه ؟ » وقال علي بن أبي طالب صلوات الله عليه : « من يطل
أير أبيه ينتطق به » وقال الشاعر في هذا المعنى بعينه :
فلو شاء ربى كان اير أبيكم طويلاً كأير الحارث بن سدوس
قال الأصمعي : كان للحارث بن سدوس أحد وعشرون ذكراً .
وقيل للشعبي : ان هذا لا يجيئ في القياس ، فقال : أير في القياس ، الولد ذكر
« وليس هذا من شكل ما تراه في شعر جرير والفرزدق لأن ذلك
تعمير وابتهار في الاخوات والأُمهات وقذف للمحصنات الغافلات ،
فتفهّم الأمرين وافرّق بين الجنسين . ولم أترخص لك في إرسال اللسان
بالرفث على أن تجعله هجّيراً على كل حال ، وديدنك في كل مقال ، بل
الترخص مني فيه عند حكاية تحكيها أو رواية ترويها ، تنقصها الكناية
ويذهب بحلاوتها التعريض ، وأحببت أن تجرّي في القليل من هذا على عادة
السلف الصالح في إرسال النفس على السجية والرغبة بها عن لبسة الرياء
والتصنع ، ولا تستشعر ان القوم قارفوا وتنزهت ، وثاموا أديانهم
وتورعت »

ومن هذه الكلمة نرى ابن قتيبة يقيد الأدب المكشوف بقيد واحد
هو أن لا يكون « تعميراً وابتهاراً في الأخوات والأُمهات وقذفاً
للمحصنات الغافلات » ونراه ينهي عن أن يكون ذلك النوع ديدن

الكاتب وهجّيراده ، ويحصّره في المواطن التي تنقصها الكناية ويذهب بحلاوتها التعريض ، وكذلك يرى اليوم أنصار الأدب المكشوف ، فهم لا يريدون أن يفرغوا للهزل والعبث ، وإنما يريدون أن يعطوا كل مقام حقه من الحلاوة والمرارة ، أو الشدة واللين

* * *

أشرت إلى أن من رجال الأدب من عمل وهو كاره على إثارة الأدب المكشوف ، ذلك بأن الجد المطلق يناهض طبيعة الحياة ، فلا يحسب أنصار الأدب المستور أنهم يستطيعون المضى إلى النهاية في ذلك الطريق ، فقد أراد صاحب زهر الآداب أن يصون كتابه عن ذكر طائفة من الشعر الصريح ، ولكنه غلب على أمره في مواطن كثيرة فأباح ما لم يكن يبيح من فنون اللهو والمجون

خطر له مرة أن يتكلم عن التضمين فضرب المثل بمن قلب قول النابغة « كالأقحوان غداة غبّ سمائه » فقال في الهجاء ^(١)

ياسائلي عن جعفر عهدى به رطب العجان وكفه كالجأمد
كالأقحوان غداة غبّ سمائه جفّت أعاليه واسفله ندى

ومع اننا لانسيغ هذا الضرب من الكلام فقد وصفه بأنه « جاء
مليحاً في الطبع ، مقبولاً في السمع »
وأراد مرة أخرى ان يتكلم عن محاسن الجوارى السود فساق
قصيدة ابن الرومي في جارية عبد الملك ابن صالح وفيها هذه الأبيات
في وصف محاسنها الباطنة ^(١)

لها حرٌّ يستعير وقْدتهُ من قلب صبٍّ وصدر ذى حَنْقٍ

كأنما حرُّه خابره ما ألهمت في حشاه من حُرْقٍ

يزداد ضيقاً على المراس كما تزداد ضيقاً أنشودة الوهق ^(٢)

وفي موطن آخر ذكر قول ابن الرومي يصف هن امرأة ^(٣)

يسع السبعة الأقاليم طراً وهو في اصبعين من اقليم

كضمير الفؤاد ياتهم الدنيا وتحويه دفنا حيزوم

وساقه الكلام عن تأصل الشاعرية في صدور العرب إلى الفكاهة الآتية ^(٤)

« قال اعرابي لشاعر من بني الفُرس : الشعر للعرب ، فكل من

يقول الشعر منكم فانما نزا على أمه رجل منا . فقال الفارسي : وكذلك من

لا يقول الشعر منكم فانما نزا على أمه رجل منا ! »

(١) ٢٠٩ ج ١ (٢) الوهق : الحبل يرمى في اسطوانة فتؤخذ به الدابة والاسنان ،

والاسطوانة عقدة سهل انحلالها كعقدة النكة (٣) ص ٩٣ > ٢ (٤) ص ٥١ > ٣

وأراد أن يذكر ألفاظ أهل عصره في محاسن النساء ، فرأى من
 تنمة البحث أن يورد أيضا ألفاظهم في محاسن الغلمان ، وأتى في هذا
 الباب بطائفة من التعابير المختارة التي تهيج الحواس وتوقظ ماخمد من
 نزوات الرؤوس ^(١) وقد أخذ يبدى ويعيد في هذه المعاني كلما سنحت له
 الفرصة وساقه الحديث ، حتى لنعد من ألف مارواه قول أبي نواس :
 ومُنْتَظَرٍ رَجَعِ الحديث بطرفه إذا ما انثنى من لينه فضح الغصنا
 إذا جعل اللحظ الخفي كلامه جمعت له عيني لتفهمه أذنا
 وانما قدمت للقارىء هذه الشواهد من زهر الآداب ليرى كيف
 فعل أحد المؤلفين المتخرجين الذين يفرقون بين ما يباح وما لا يباح ،
 وهما نحن أولاء نرى ذلك المؤلف لا يستطيع الصبر على تقييد الأدب بما
 تتأثر به الأذواق من الأوضاع والتقاليد . ولقد ذكرنى ذلك
 باللوحات التي يراها الناظرون في حديقة لكسمبور وغابة بولونيا في
 باريس ، ففي كل ركن لوحة فيها انذار بالطرده لكل من يخرج على
 حدود الأدب والاحتشام ، وفي كل مكان من تلك الملاعب قد بُضِمُ ،
 وثرثر يُرشف ، وحمى يُباح !!



وقد جاء في خطبة الأستاذ توفيق دياب ان الأدب لا يراد لذاته وإنما هو وسيلة إلى الأخلاق ، وأذكر انه قال في شيء من الانفعال :
 فليسقط الأدب ان أضر بالأخلاق . ويغلب على ظني ان الأستاذ دياب لم يقل العبارة الأخيرة الا مبالغَةً في الدفاع عن رأيه والدعوة اليه ، لذلك أرجو أن يرى معنا انه لاغنى للأمم الحية عن الآداب والفنون ، بغض النظر عن قربها أو بعدها من الأخلاق . فلننظر معاً برفق وبإخلاص إلى تأثير الدين والأخلاق في اتحاد الآداب والفنون :

لا ينكر أحد ، ولو أسرف في التكلف ، ان تحريم الاسلام للتصوير جنى على الشعوب الاسلامية جنابة عظيمة ، وعطل مواهبها الفنية ، وحشرها في زمرة المتخلفين عن فهم أسرار الجمال . ولا ينكر أحد ، ولو أمعن في التعصب ، ان تحطيم العرب للأنصاب والتماثيل التي كانت تفصح وتبين عن أساطير الأولين إنما كان أثراً للتخرج الذي دعاه اليه الدين . ولولا بقية من سلامة الذوق وصُباة من صدق الحس لما رأينا في الشعوب الاسلامية ميلاً إلى روعة الفن ولا كلفاً بآثار المبدعين .

وسيسأل القارئ : وما الذي خسرناه بانصراف المسلمين عن النحت والتصوير ؟ ونجيبه بأننا حرّمنا بذلك من الوقوف على ميولهم وغرائزهم وسجايهم . فلو تركهم الدين أحراراً في شرح ألوان حياتهم

لرأينا كيف كانوا يلعبون وكيف كانوا يجدّون ، وكيف كانت تجيش
بصدورهم هواجس المني ونوازع الآمال . ولكنه قيدهم فلم يتركوا لنا
إلا آثاراً ضئيلة لا تكفي في كشف ما كانوا يضمرون

ولقد أبيع لهم في سبيل الترغيب والترهيب أن « يتكلموا » عن
نعيم الجنة وعذاب السعير ، فتركوا لنا طائفة من الأمانى والمخاوف
تمثل ما كانوا يرجون ويرهبون ، فعرفنا مثلاً أنهم بحكم مركزهم الجغرافى
الأول قبل أن يخرجوا من جزيرة العرب كانوا من آلام الظأ والجوع
فى كرب عظيم ، ألا ترى كيف يذكرون أن أول ما ينعم به أهل الجنة
هو الكوثر ، والكوثر نهر عذب ينهل منه الوارد نهلة فلا يظأ بعدها
أبدًا ، وعبارة « لا يظأ بعدها أبدًا » تمثل أقصى ما يتمناه البدوى فى
الصحراء وقد لفحته السموم وصهرته الرمضاء . ولك أن تقول مثل
ذلك فيما تحدثوا به عن عذاب القبر إذ تراهم يتصورون المذنب وقد
أحدثت به الحيات والثعابين ، وأنه لدليل على ما كانوا يقاسون فى البادية
من عنت الأفاعى والصلال .

افهم هذا أيها الفارئ واستغفر الله لى ولك ، فان مناهج البحث
الحديث لا تسمح بالوقوف عند معانى الحروف كما كان يفعل
المتقدمون !!

ولو عدنا إلى الشعر لرأينا أثر المتزمتين في اخماده كان غاية في الشناعة والقببح ، فقد عرّض النبي بالشعر وهاجم الشعراء متأثراً بعداوة من عاداه من شعراء قریش وشعراء اليهود ، فكان من ذلك أن أسرف جمهور المسلمين في بغض الشعر والنيل من الشعراء ، وقد سئل عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : أتقول الشعر في فتهك وورعك ؟ فأجاب : لا بد للمصدر أن ينفث ! وهذا الفقيه هو صاحب هذه الابيات الرائعة :

شقتِ القلب ثم ذررت فيه هواك فليمَ فالتأم الفطورُ
تغلغل حب عثمة في فؤادي فباديه مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور
وقد زعموا أن الامام الشافعي قال :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد
وكذلك زعموا قاتلهم الله أن النبي لم يكن يقرأ بيتاً من الشعر إلا كسره ، وذلك غاية الإفك والبهتان ، ولا يزال شيوخ الأزهريين في بدء الشعر بالبسملة لأنه فيما يرون ليس من الأمور ذوات البال !

وهذا الاتجاه الذي تورط فيه الجمهور الاسلامي ضد الشعر أتاح

لنا طائفة من الفكاهات ، فقد قيل لابن سيرين : ان قوماً يزعمون
أن انشاد الشعر ينقض الوضوء ، فأنشد :

لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشراً

ولورضيت رشح أسته لاستقرت

وفام يصلى : وقيل بل أنشد :

أنبتت أن عجوزاً جئت أخطبها

عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول

وسئل ابن عباس : هل الشعر من رفث القول ؟ فأنشد :

وهنَّ يمشين بنا هميسا إن تصدق الطير نك لميسا

وقال : إنما الرفث عند النساء ، ثم أحرم للصلاة !

وقيل لابی السائب المخزومى : أترى أحداً لا يشتهى النسب ؟

فقال : أما ممن يؤمن بالله واليوم الآخر فلا !

ولولا خوف الإطالة لأريت القارىء كيف أثر التخرج فى قتل

سائر الفنون . فلا كتف بما أسلفت ، ولا شر فقط إلى أن جنابة

التخرج لم تقف عند الأدب والفن ، بل طغت على العلم أيضا ،

فقد كان الغزالي يكره التشريح لأنه يذهب بفريق من العلماء
إلى أن النفس تموت !!!

ولو أن الدين والخلق وقفا عند حدود العقل خلف الأمر
وهان ، ولكنهما صارا سناداً لكل ضعيف الحجة سقيم البرهان
فلنعلن حرية الآداب والفنون ، ولىرض من شاء بالجهالة يحرسها
الدين وتحوطها الأخلاق !

زكى مبارك

مصر الجديدة / ٣ رمضان سنة ١٣٤٦
٢٤ فبراير سنة ١٩٢٨



المحاضرة الاولى

أيها السادة

في ضواحي سنتريس ، حيث يحلو السَّمَر ، في ليالى القَمَر ،
وعلى شاطئ النيل هناك ، حيث النجم والشجر ، والماء والزهر :
في تلك البقعة المشتبهة الأزاهر ، المشتبكة الجداول ، حيث السواقي
الشاديات ، والطيور العساحات ، وتحت تلك الشجرة المعطّفة الغصون ،
المهدّلة الشعور ، حيث أجاس في الضحى والظهيرة ، مع الصبح
والعشيرة ، بجانب ذلك الطريق الجميل : حيث تعدو السيارات
الفاخرة ، من القاهرة إلى الاسكندرية ومن الاسكندرية إلى
القاهرة ، وحيث يمشى فضلاء سنتريس في الأصائل والعشيات ،
جماعات جماعات ، يتناشدون الأشعار ، ويتناقلون الأخبار .

هناك : حيث أستظرف الجلوس مع أولئك الأُمّجاد ، شجعان
البلاد . أولئك الذين لم تخالط نفوسهم أوضار الحضارة ، ولا سموم
المدنية ، ولم تفارق طباعهم أخلاق البداوة ، ولا رسوم العصبية ،
أولئك الذين أجلس اليهم فيعود إلى ضلالى القديم ، وعُدوانى

الموروث ، فأتدح بأجدادى الشجعان ، وآبائى الأبطال ، وأذكر
ماشتوا من الغارات ، في العصور الخاليات

هناك حيث أقضى شطراً من الصيف ، وجزءاً من الخريف ،
بين خطاب أكتبه ، أوجواب أقرؤه ، وحبیب أسأهره ، أو أنيس
أسأمره . وعهد أحنُّ إليه ، أو عيش أبكى عليه

ليالى النيل واللذات ذاهبةٌ وجدى عليكن أشجاني فأضناني
لو يرجع الدهر لى منكنَّ واحدةً فى سنترس ويدنى بعض خلانى
إذا تبين دهرى كيف يرحمنى من ظلمهمي ومن عدوان أحزاني^(١)

هناك ، هناك جاست فى بعض الأصائل مع الصديق الحميم :
الشيخ حسين الحكيم^(٢) يتحدثني وأحدثه عن الشاعر الغزل :
عمر بن أبى ربيعة المخزومى

(١) هذه الأبيات من قصيدة لامؤلف

(٢) ولد السح حسب الحكيم في سويس ثم سكن القاهرة والحق بمدرسه عثمان باشا
ماهر فمدرسه القضاء الشرعى . ثم بال منها شهادة العالمية ، وعين مدرسا للغة العربية
بمدارس الجمعية الخيرية الاسلاميه ، فقصى سنة فى المدرسة الواصفية بسور سعيد . ونصحه
أشهر فى مدرسه دسوق الثانوية ، ثم قضى نحيه هناك يوم الجمعة ٩ ربيع الأول سنة ١٣٢٧ —
١٣ ديسمبر سنة ١٩١٨ ثم نقل الى القاهرة مساء السبت فدفن بها مساء الأحد

وكان رحمه الله آية الآيات فى حسن الخلق . وصباحة الوجه ، وحلاوة
الحديث . وأصالة رأى . وكان لا يعدله عندى غير شقيقى سيد مبارك الذى فقدته

وكذلك يميل الشباب الى شعر الشباب ، كما يرغب الكهول
 في أدب الكهول . فان للشبيبة شعراً ، وللكهولة شعراً . ولأدب
 الصبا في استطرافه أشياع وأتباع ، كما لحكمة الشيخوخة في رزائنها
 أنصار وأعوان

فلما قضينا بعض ما رب الشباب ، من الجرى في ميدان الخيال
 الساحر ، وشرحنا بعض أهوائنا وميولنا في شخص ابن أبي ربيعة ،
 وكانت الشمس قد جنحت الى الغروب ، ونسمات الأصيل قد مالت
 الى الهدوء ، وبدت لنا سنتريس وكأنها بسمة في فم الكون يضممرها
 اذا جن الظلام ، فما تبين منها غير المصاييح الزاهرة ، في المغاني
 الساهرة ، والأندية السامره ، لم نجد بداً من العودة اليها ومساهرة
 السامرين فيها

ولأمر مما أراد صديق الشيخ حسين أن يذهب الى منزله في شمال
 البلدة . وأردت العودة الى منزلي في جنوبها الشرقي . بيد أنا لم نكد
 نبتعد كثيراً حتى سمعته يقول : اذا عدت غداً فأحضر معك ديوان ابن

معه في أسوء واحد وكان موهما معا الخي الاسمية لارد الله ها عربه ولا قدر
 ها رحمه ، وكان أحى سيد من أقوى القتيان بأسا وامصاهم عرته ولو عش اضررت
 بسجاعة الامثال

أبى ربيعة . فقلت له مازحا : ومن ابن أبى ربيعة ؟ فأجاب مسرعاً :
 فتى قريش وشاعرها

فأعجبت بجوابه ، وسررت من بداهته ، إذ علمت ان ابن أبى ربيعة
 مهما درسنا شعره ، وحللنا شخصيته ، فلن نجد إلا فتى قريش وشاعرها
 وكذلك أريد أن أحدثكم عنه من هذه الناحية : فأشرح لكم فتوته
 وشعره . أوجبه ونسيبه



أيها السادة

ان الغرض من هذه المحاضرات انما هو البحث العلمى قبل كل
 شىء ، والوصول الى الحقيقة من أى سبيل ، وهنا ألفت نظركم الى
 ان العلم لا يكون دائماً جافاً ، بل قد يكون أحلى من المنى ، وأشهى من
 ثغور الحسان ، فإنك اذا احتجت الى شىء من الزهادة فى العيش ،
 والرغبة عن الحياذ ، لتفهم الجزء الثالث من كتاب الاحياء للغزالى ،
 والى قسط من الارتياب ، لتفهم حديث الملحد تيموكليس مع الراهب
 بافنديس ، للفيلسوف اناطول فرانس ، فانك أيضاً فى حاجة الى شىء من
 الاخلاعة ، ونصيب من المجون ، لتفهم الشاعر الفتى عمر بن أبى ربيعة

وكذلك أدعوكم الى استقدام هواكم : قديمه وحديثه ، واستنهاض
صبا بتكم : طريفها وتليدها ، حتى تفهموا هذا الشاعر الغزل ، وتدرکوا
غرض هذا الماजन الخلیع

ولن تكونوا اذا فعلتم ذلك الا باحثين عن الحقيقة ، سائرين
اليها عن طريق العلم ، فان أنواع العلوم تتطلب ألواناً من النفوس ،
بل الفن الواحد يتطلب أرواحاً مختلفة ، لفهم أدواره المختلفة ، فليس
الذى يفهم نسيب الأمراء ويطرب له ، لأنه يساكن من يهوى ،
ويختلف الى من يحب ، بقادر على أن يفهم نسيب المشردين فى الآفاق :
ممن أهدرت دماؤهم ، وصودرت ميوههم
وليس الذى يعجب بقول كثير :

يكلفها الغير أن شتمى وما بها هوانى ولكن للمليك استذلت
هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزه من أعراضنا ما استحات
فلا يحسب الواشون أن صبا بتي بعزة كانت غمرة فتجلت^(١)
بمستطيع أن يعجب بقول الآخر :

صفا ودليل ما صفائهم لم نطع عدواً ولم نسمع به قيل صاحب

(١) هذه الابيات من تائية كبير وهى عرة من عرر الشعر العربى يجدها القارىء
كاملة فى كتاب مدامع العساق

فلما تولّى ود ليلي جانبٍ وقومٍ تولّينا لقومٍ وجانب
 وكلُّ خليلٍ بعد ليلي يخافني من الغدر أو يرضى بودٍ مقارب
 فاذا رأيتهموني أكثر من الأمثلة ، وأغنى بانشاد الشعر ، فليس
 ذلك لائمتاع افتدتكم ، وإشباع أسماعكم ، فحسب ، بل لأثبت في أذهانكم
 وأمكن من قلوبكم صورة ذلكم الشاعر الشاب ، الذي قضت أيامه بأن
 لا تمتد إليه أيدي الرسامين والمصورين ، فلم يبق لنا من معالم جماله ، ومعاهد
 شبابه ، إلا ما تركه في شعره ، وخلاؤه في نسيبه ، والشعر صورة الشعراء



وبعد فهل كان ابن أبي ربيعة محباً صادق الحب ، متين الصبابة ؟ أم
 كان فتى مغروراً بشبابه ، مفتونا بجماله ، لا يأبه بالحب ، ولا يخضع
 للفرام ؟ وإذا لم يكن عاشقاً ولا محباً ، فكيف أجاد النسيب ، وأبدع
 في التشبيب ، وما هي ميزة شعره ، التي بدّ بها اخوانه ، وفاق بها
 أقرانه ؟ ؟

فأمامنا إذاً مسألتان : الأولى حقيقة حبه ، والثانية حقيقة شعره ،
 وسنوفى الكلام عن أولاهما في هذه المحاضرة ، وزجىء الكلام عن
 أخراهما إلى المحاضرتين القادمتين ، إن شاء الله

أما حبه ، فأنا أتهمه فيه ، وأنكره عليه ، وذلك لأمر :
 أولا — لأنه حَضَرى لبدوى ، وقاما يصدق للحضرين حب ،
 أو تبقى لهم صباية : إذ يرون من متمات الظرف ، ومكلمات الأدب ،
 أن يحيا الرجل بعين باكية ، وقلب خفاق : فلا يزالون يتلمسون الهوى
 ويتحسسون الصباية ، حتى تنح لهم أسبابها ، وتساق إليهم همومها
 وأنا الذى اجتلب المنية طرفه ، فمن المطالب والقتيل القتائل
 إذا رهب البدوى الحب ، فقال يتخوف عواقبه ، ويتهيب
 جانبه :

فيارب خذلى رحمةً من فؤادها وحل بين عينيها وبين فؤادى
 رأيت الحضرى شرها طامعا ، يود لو حشر الله إليه أهل الجمال أجمع
 فقال من الصباية أقصاها ، ومن المحبة أسماها . وينشد قول ابن الاحنف
 إن الهوى لو كان يند فذفيه حكى أو قضانى
 لطالبته وجمعه من كل أرض أو سماء
 ففسمته بينى وبينه ن حبيب نفسى بالسواء
 فتميش ما عشنا على محض المودة والصفاء
 حتى إذا متنا جميعا ما والامور الى فناء
 مات الهوى من بعدنا أو عاش فى أهل الوفاء

كَأَنَّ حَتْمًا عَلَى الْبَدْوَى أَنْ يُخَلَّدَ إِلَى الْقَنَاعَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَعَلَى الْحَضَرَى
أَنْ يُعْرِفَ بِالْجَشْعِ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

وَمِنْ هُنَا نَعْرِفُ كَيْفَ غَابَتِ الْعِفَّةُ عَلَى أَوْلَئِكَ ، وَتَطَرَّقَ الْفَسْقُ إِلَى
هَؤُلَاءِ ، فَإِذَا قُلْتُ لِلْبَدْوَى انْشَدْنِي شَيْئًا مِنَ الشَّعْرِ ، فَقَلَمَا يَرُوقُهُ غَيْرُ
قَوْلِ جَعْدَرٍ وَقَدْ زُجَّ فِي السَّجْنِ

أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو وَإِيَّانَا فِذَاكَ لَنَا تَدَانُ
نَعَمْ وَأَرَى الْهَلَالَ كَمَا تَرَاهُ وَيَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلَانِي
وَإِذَا اسْتَمَشَدَتِ الْحَضَرَى شَيْئًا مِنْ مَخْتَارِهِ فِي النَّسِيبِ ، فَقَلَمَا يَنْشُدُكَ
غَيْرُ قَوْلِ ابْنِ الْفَارَضِ

وَإِذَا اكْتَفَى غَيْرِي بِطَيفِ خَيَالِهِ فَأَنَا الَّذِي بَوَّالَهُ لَا أَكْتَفِي
وَذَلِكَ لَمَّا يَخْتَلَفُ الْفَرِيقَانِ فِي فَهْمِ مَعْنَى السَّعَادَةِ فِي الْحُبِّ ، فَهِيَ
عِنْدَ الْأَعْرَابِ لَا تَعْدُو مَسَامِرَةَ الْأَمَانِيِّ ، وَمَسَايِرَةَ الْأَحْبَةِ ، وَعِنْدَ أَهْلِ
الْحَضَرِ : كُلُّ مَا أَمْتَعَ الْعَيْنَ وَالْإِلَّهَ . . . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَشْتَهَوْنَ

وَإِذَا كَانَ الْمَالُ - وَهُوَ مِنْ مَعْبُودَاتِ الْحَضَرِيِّينَ - يُطَالَبُ بِبَعْضِهِ لِلْإِدْخَارِ
وَبَعْضُهُ لِلْإِنْفَاقِ ، فَانْجَالِمْ عِنْدَهُمْ كَذَلِكَ - إِلَّا مِنْ عَصَمَ اللَّهُ - فَهَمُ
يُعْجِبُونَ بِالْعَمِيُونِ الْكَحِيلَةِ ، وَالشُّعُورِ الْمُرْسَلَةِ ، لِيَمْتَعُوا عَيْنَهُمْ بِالنَّظَرِ
إِلَيْهَا وَأَفْتَدَتَهُمْ بِالتَّفَكِيرِ فِيهَا ، ثُمَّ لَا تَسْأَلُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ رَأْيِهِمْ فِي بَقِيَّةِ

الحاسن ، فعهدي بهم يرجون الخد للتقبيل ، والريق للارتشاف ، وهكذا حتى يصل بهم الطمع : الى ما ترغب النفس عن ذكره ، والتأمل في جدواه .

الحسن عند الحضريين ، أشبه شيء بجنة وردها جنيّ ، وزهرها نديّ ، يدخاها الزائر : فلا يعجب منها بزهرة ذات بهجة ، أو وردة ذات نضرة ، إلا دعتة أخرى أنضر منها وأصبح .

فاذا ذهب اليها يجتلي حسننها ، ويتأمل شكلها ، لفتت نظره ثالثة ورابعة ، حتى يتصفح الحديقة بأكملها ، ويقتلها نظراً وشما ، والمرء يكلف بالحسن ، ويُغرم بالجمال

فاذا عاد الى قابله ، ورجع الى نفسه ، ليعرف أيها أعلق بخاطره ، وأملك لوجدانه ، حسبها هذه بل تلك ، ثم يختلط عليه الأمر ، فلا يدري أيها أحق بالرعاية ، وأولى بالاحتفاظ : فينصرف وقلبه مسرور من البستان في جملة ، غير مغرم بزهرة معينة من زهوره الحسن

وكذلك يمشي الحضري في متنزهات الحواضر ، فيرى من شتى الألوان في الحسن ، ومختلف الاشكال في الملاحظة ، ما يملأ عينه ، ويبهز قلبه ، ثم يأوى الى بيته خلياً من الهوى بريثاً من الصبابة ، كأن لم يسمع وسواس الحليّ ، ولم ير لآلاء الجبين .

وهب أن بين أولئك الفاتنات ، من غلبت على قلبه ، وأستولت على لبه ، أتراه يسلم في أيامه البواقى ، من عادة أملح شكلا ، وأحلى دلا ، فتملك من بعدها قلبه ، وتمفرد من دونها بهواه ، وهو للحسن تبوع ؟

ألا إن الحضرى فى حبه كمدمن الخمر ، يُصرع كل يوم مرة :
فينسى بكاسه الأخرى كاسه الأولى

والمرء ما دام ذا عين يقلبها فى عين الغيد موقوف^٣ على الخطر
ولقد ذكروا أن كثيرا مشت أمامه امرأذ ظريفة المشية ، فتبعها عينه ، فالتفتت اليه ، فعرض عليها حبه ، فقالت : كيف ذلك وقد ضاع شعرك فى عزة ؟ فقال : يا سيدتى ! قد كان ذلك تصنعاً ورياء . وإن أبحتنى حبك ، ومنحتنى حسنك ، لأسيرن فى ذكرك الشعر ، ولأضربن بحسنك الأمثال : فكشفت عن وجهها فأذا هى عزة . ثم قالت له : حسبك يا غادر ! فهت كثير وانصرف : وهو خزيان نادم !

وكذلك كان ابن أبى ربيعة : فما قصر نفسه على امرأه ، ولا وقف حبه على فتاة . وإنما كان يتامس الجمال بين مناسك الحج ، ويتماقط الحسن فى مسارح الطباء : فيغشى الرياض الزاهرة ، عليه يظفر بزهره لا كالزهور ، ويقصد الأندية السامرة ، عساه يسمع حديثاً عن بعض

الآنسات الحور ، بل ربما صدَّ عن تجزيه بالحب حباً ، ورام من تجزيه
بالقرب الصدود .

ولقد مر به فتیان وهو بالحجر يصلى ، بعد أن صوّح زهره ،
وتأوّد غصنه ، وبعد أن سئم الغواية والفساد ، وجنح الى الهداية
والرشاد ، وبعد أن خلّى الغرام جانباً ، وأقبل على نفسه يحاسبها ، وعلى ربه
يستغفره . فلم يكده يقضى صلاته حتى هرع إليهما يتعرف خبرهما
ويعرف أهلهما . فلما عرفهما وكانا أخوين قال :

يا ابنى أخى : لقد كنت موكلاً بالجمال أتبعه ، وانى رأيتكما
فراقنى حسنكما وجمالكما فاستمتعا بشبابكما قبل أن تندما عليه !

وليس بمعجيب أيها السادة أن لا يصدق فى حبه من يقول :
سلامٌ عليها ما أحببت سلامنا فان كرهته فالسلام على الأخرى
ولا يزيد بهذه الكلمة الغضب من عواطف الحصريين ولا الطعن
فى كرامتهم ، فقد يكون من بينهم من هو أصدق حباً ، وأتقى عرضاً ،
ولكننا نرى الشره فى الحب ، والطمع فى الصباية ، من علامّ التلون ،
ودلائل التقلب ^(١)

(١) يرى الاستاد الدكتور احمد صيف ان العلم والفلسفة قد يهديان النفس . ويلطمان
الطبع . فلا تكون الحصاراة من أسباب الفسق ، ولا موحات الفجور ، ثم لا يكون

ليس في القلب موضع لحبيبه — من ولا أحدث الأمور اثناز
فكما العقل واحد ليس يدرى خالقاً غير واحدٍ رحمن
فكذا القلب واحد ليس يهوى غير فرد مباعد أو مدان
وكذا الدين واحد مستقيم وكفور من عنده دينان
هو في شرعة المودة ذو شر لك بعيد عن صحة الإيمان
وكذلك كان الحضريون مكذّبين في عشقهم ، متهمين في حبهم

*
* *

ثانياً — كثر غروره بشبابه ، وفتونه بجماله ، وتحذنه بحب النساء
له ، وإقبالهن عليه . وقاما يكون المعشوق عاشقا ، والمحبوب محبا ،
وقد رأيت في شعره عزة المعشوق ، لاذلة العاشق . وتيه المحبوب ،
لاخضوع المحب

فتارة يذكّر أنه أمنية محبوبته ، وأمل معشوقته ، كقوله :

البدوى أصدق من الحضري في الحب . ولا أنبت منه في العرام
وهي فكره حميلة عبر أنها لا تطبق على ابن أبي ربيعة وأمثاله من الحضريين .
فان كثيرا منهم يساركون الفلاسفة في سعة العلم . وبعد النظر . ثم لا يرون رأيهم في التقصيف
والرهد : واليهما يرجع الفضل في كبح الهوى ورجز النفس .
على أن المذاهب الفلسفية لا تدعو كلها الى الطهر . ولا نزعب في العفاف .
ولا ينتفع المرء بأحسنها أثراً مالم يصبر من أربابها . والداعين اليها . في سره وظهره .
وشبابه ومسيه . والا فلماذا تجمع الحواضر بين العلم والفساد :

أَلِمَ بَزِينُ بْنُ الرِّكْبِ قَدْ أُفِدَا قُلَّ الثَّوَاءُ لِمَنْ كَانَ الرِّحِيلُ غَدَا^(١)
 قَدْ حَلَفْتَ لَيْلَةَ الصَّوْرَيْنِ جَاهِدَةً وَمَا عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا الْحَلْفُ مَجْتَهِدَا^(٢)
 لِأَخْتِهَا وَلَا أُخْرَى مِنْ مَنَاصِفِهَا لَفِدَ وَجَدَتْ بِهِ فَوْقَ الَّذِي وَجَدَا^(٣)
 لَوْ جُمِعَ النَّاسُ ثُمَّ اخْتِيرَ صَفْوَتُهُمْ شَخْصًا مِنَ النَّاسِ لَمْ أَعْدِلْ بِهِ أَحَدًا

وقوله

وَأَنهَا حَلَفْتُ بِاللَّهِ جَاهِدَةً وَمَا أَهْلٌ لَهُ الْخُجَاجُ وَاعْتَمَرُوا
 مَا وَافَقَ النَّفْسَ مِنْ شَيْءٍ تَسَرُّ بِهِ وَأَعْجَبَ الْعَيْنَ إِلَّا فَوْقَهُ عَمْرُ
 وَأُخْرَى يَتَمَدَّحُ بِعَتَبِهَا عَلَيْهِ ، وَتَوَدُّهَا إِلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ

فَمَا أَنَسَ مِنْ وَدِّ تَقَادُمِ عَهْدِهِ فَاسَتْ بِنَاسٍ مَاهَدَتْ قَدَمِي نَعْلِي
 عَشِيَّةً قَالَتْ وَالْدموعُ بَعِينُهَا هَنِيئًا لِقَابِ عَنَّاكَ لَمْ يُسَلِّهِ مُسَلِّ
 لَقَدْ كَانَ فِي إِقْرَاضِكَ الْوَدَّ غَيْرِنَا وَفَعَلْتَ نَادِي لَوْ أَنَّ مَعِيَ عَقْلِي
 فَهَذَا الَّذِي فِي غَيْرِ ذَنْبٍ عَامَتُهُ صَنِيعُكَ بِي حَتَّى كَأَنَّكَ ذُو ذَحَلٍ^(٤)
 هَلِ الصَّرْمُ إِلَّا مُسْلَمِي إِنْ صَرَمْتَنِي إِلَى سَقَمٍ مَاعَشْتُ أَوْ بَالِغٍ قَتَلْتَنِي^(٥)

(١) أهد الركب : أسرع (٢) الصوران : منى الصور وهو موضع بالقيع (٣) انصاف

الخدم جمع مصفف ومصفى . وهى هنا الوصائف اللائى يمنى بحدمة الحسان

(٤) الدحل : الثأر . أو هو العداوة والحقد

(٥) ولقد دكروا أن كثيراً عاب ابن أبى ربيعة فى قوله

قال لرب لها نحتها لفسدن الطواف فى عمر

وحينا يفخر بدموعها المرفضة لبعده ، المهلة لهجرده ، كقوله
 تقول وعينها تدرى دموعاً لها نسق على الخدين تجرى
 ألسـت أقرّ من يمشى لعيني وأنت الهم في الدنيا وذكري
 أمن سخط على صددت عني حملت جنازتي وشهدت قبري
 وآخر يصف نفسه بالجمال اليوسفي فيقول

قلن هذا الذي نلومك فيه لا تحجى من قولنا بفتيل

قومي بصدى له ليصبرنا ثم اعمره يا أحب في حفر
 قالت لها قد عمره فاني ثم اسطرب سمي على أثري
 وقال له : انما بنسب نفسك . ولو أنك وصفت بهذا الشعر هرة أهلك . لكسب
 قبيحت وقات الحجر . انما توصف الحرة بالخياء والاباء ، والنخل والامتاع . كما قال
 هذا . وأشار الى الاحوص

أدور ولولا أن أرى أم حمقر نأساكم ما درت حيث أدور
 وما كنت روار أو اسكن دال هوى اذا لم يرر لاد أن سرور
 لقد معب معروفا أم حمقر وإني الى معروفا انمقر

وقد لاحظ عليه ذلك ابن أبي عتيق أيضا في قوله

بينما يعسى انصرتني دون قمد الممل بعدو بني الاعر
 قالت الكبرى أما يعرفه قالت الوسطى بلى هذا عمر
 قالت الصغرى وقد تيمها قد عرفناه وهل يخفى القمر

وعندي أن هذا خطأ من كثير وصلال من ابن أبي عتيق . وليس لاس أبي ربيعة في
 صباحته ان يتبع رأى كثر في دمايته فان لجمال الساعر أثراً في سنيه وعصبيا من تسسه
 . وقد اوصح ذلك في المحاضرة الثالثة فاطره هناك

فصليہ فلن تلامی علیہ فهو أهل الصفاء والتنویل

وانه لیُغْرِبُ أحياناً فی الصَّلَفِ ، ویُمن فی التیہ : فیقول مثلاً :

قالت علی رِقْبَةٍ یوما لجارِتها ما تأمرین ؟ فان القلب قد تُبَلَا^(١)

وهل لی الیوم من أختٍ مُواسِیَةٍ منکنَّ أشکو الیها بعض ماعملا

فراجعتها حَصَانٌ غیر فاحِشَةٍ برجع قول ولبَّ لم یکن خطِلاً^(٢)

لا تذکری حبَّه حتی أراجعه انی سأ کفیکہ ان لم أمت عَجَلاً

فأقننی حیاءک فی سترٍ وفی کرمٍ فلست أول أنى عُلقَت رجلاً^(٣)

صدت بعداً وقالت لاتی معها بالله لومیہ فی بعض الذی فعلا

وحدثیه بما حدثت واستمعی ماذا یقول ولا تعی به جدلاً

حتى یرى ان ما قال الوشاة له فینا لیدی الینا کله نقلا

وعرفیه به کلهزل واحتفظی فی غیر معتبة ان تغضبى الرجال

فان عهدی به والله یحفظه وان أتى الذنب ممن یکرده العذلا

لوعندنا اغتیب أو نزلت تقیمته ما آب مغتابه من عندنا جدلاً

ویقول أیضاً فی الحدیث عن بعض الواجدات به :

(١) تبیل القاب : اسقمه الحب (٢) الحصان والحاص المرأة العقیمة ، وساء حواصن

(٣) اقننی حیاءک : الزمیہ

لقد حَلَيْتِكَ العَيْنَ أَوَّلَ نَظَرٍ وَأَعْطَيْتَ مِنِّي يَا بَنَ عَمٍّ قَبُولًا
فَأَصْبَحْتَ هَمًّا لِلْفُؤَادِ وَمُنِيَّةً وَظِلًّا مِنَ النُّعْمِي عَلَى ظَلِيلًا
فهذا كله دليل على أن ابن أبي ربيعة كان معشوقًا لا عاشقًا ،
ومطلوبًا لا طالبًا ، وأن النساء كانت تقع عليه كما يقع النحل على الزَّهَرِ ،
والطير على الشجر .



ثالثًا — كثرت دعوى ابن أبي ربيعة توحيد حبه ، وإفراد غرامه ،
فيقول في ليلى :

لقد أرسلت في السر ليلى تلومني وترعمني ذا مائة طَرْفًا جَلْدًا^(١)
تقول لقد أخلفتنا ما وعدتنا ووالله ما أخلفتها طائِعًا وعدًا
فقلت مَرُوعًا للرسول الذي أتى تراد لك الويلات من أمرها جدا
إذا جئتها فاقِر السلام وقل لها

ذَرِي. الجور ليلى واسلكي منهجًا قصدا
تَعْدِينَ ذَنْبًا أَنْتَ لَيْلى جَنِيَّتِهِ عَلَى وَلَا أَحْصَى ذُنُوبَكُمْ عدا
أَفِي غَيْبِي عَنْكُمْ لَيْالٍ مَرْضَتَهَا تَزِيدُنِي لَيْلَى عَلَى مَرْضَى جَهْدًا

(١) الطرف : هو المقاب الذي لا يثبت على امرأة ولا صاحب

فلا تحسبى أنى تمكثتُ عنكمُ ونفسى ترى من مكثها عنكمُ بُدا
 ألا فاعلمى أنا أشد صباية وأصدق عند البين من غيرنا عهدا
 غداً يكثر الباكون منا ومنكمُ وتزداد دارى من دياركمُ بُعدا
 فان تصرمىنى لا أرى الدهرَ قرّةً اعينى ولا ألقى سروراً ولا سعداً
 فان شئت حرمت النساء سواكمُ
 وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا برّداً^(١)

ويقول فى الرباب :

أرسات تعتب الرباب وقالت قد أتانا ما قات فى الانشاد
 قات لا تغضبى فداؤك نفسى ثم أهلى وطارفى وتلادى
 إن تعودى تكن تهامة دارى وبندجٍ إذا حلت معادى
 أنت أهوى إلى من سائر النا رس ذرى من كثرة التعداد
 ويقول فى عبدة :

أعبدة ما ينسى مودتك القابُ ولا هو يسليه رخاء ولا كربُ
 ولا قول واش كاشح ذى عداوةٍ ولا بُعد دار إن نأيت ولا قربُ
 وما ذاك من نعى لديك أصابها ولكن حباً ما يقاربه حبُ
 فان تقبلى يا عبد توبة تائب يتب ثم لا يوجده له أبداً ذنبُ

أَذَلُّ لَكُمْ يَاعْبِدُ فِيمَا هَوَيْتُمْ
وَأَعْذِلْ نَفْسِي فِي الْهَوَى فَتَمَعْتَنِي
وَفِي الصَّبْرِ عَمَّنْ لَا يَوَاتِيكَ رَاحَةٌ
وَعَبْدَةٌ بَيِّضَاءُ الْمَحَاجِرِ طِفْلَةٌ
وَلَسْتُ بِنَاسٍ يَوْمَ قَالَتْ لِأَرْبَعٍ
أَلَا لَيْتَ شَعْرِي فِيمَ كَانَ صُدُودُهُ
وَيَقُولُ فِي زَيْنَبَ (١) :

أُحَدِّثُ نَفْسِي وَالْأَحَادِيثُ جُمَةٌ
إِذَا طَلَعَتْ شَمْسُ النَّهَارِ ذَكَرْتُهَا
وَأَكْبَرُ هَمِّي وَالْأَحَادِيثُ زَيْنَبُ
وَأُحَدِّثُ ذَكَرَ إِذَا الشَّمْسُ تَغْرَبُ

(١) هي زينب بنت موسى الحميرية . وكان سبب اسمه بها أن ابن أبي عتيق ذكرها
عنده يوماً فأطراها . ووصف من عقلها وأدبها وحماها ما شغل قلب عمر . وأماله إليها
فقال فيها الشعر وشب بها . فلما بلغ ذلك ابن أبي عتيق لأمه وسخط عليه . وقال له :
أتقول الشعر في أمه عمتي ؟ فقال ابن أبي ربيعة وقد عطف عليه النساء :

لَا يَلْفَنِي عَتِيقُ حَسْبِي الَّذِي بِي إِنْ بِي يَاعْتِيقُ مَا قَدْ كَفَانِي
لَا يَلْفَنِي وَأَنْتَ رَيْبَتَهَا لِي أَنْتَ مِثْلُ السَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ
لَوْ بَعِينُكَ يَاعْتِيقُ بَطْرًا لَيْلَهُ السَّفْحُ قَرَّتِ الْعَبَارِ

وقد رعم في هذه القصيدة أنه سبى من أجلها النساء إذ يقول
لَمْ تَدْعِ لِلنِّسَاءِ عِنْدِي بَعِيداً عَيْرَ مَا قُلْتَ مَا زَحاً بِلِسَانِي
وَقُلِّي قَلْبِي لِلنِّسَاءِ سِوَاهَا بَعْدَ مَا كَانَ مَعْرُوماً بِالْغَوَانِي

ويقول في أسماء

لم يحجب القلب شيئاً مثل حبكم ولم تر العين شيئاً بعدكم حسناً
ما إن نبألى إذا ما الله قريبكم

من كان شط من الاحباب أوقطنا^(١)

فإن نأيتم أصاب القاب نأيتكم وإن دنت داركم كنتم لنا سكنا
إن تبخلى لايسلّى القلب بخاكم ويقول في هند:

ولقد قلت إذ تطاول هجرى رب لا صبر لي على هجر هند
رب قد شفني وأوهن عظمي وبراني وزادني فوق جهدي
ليس حبي لها ببدعة أمر جعل الله من أحب سواكم
من جميع الأنام نفسك يفدي ويقول في النوار:

لأبألى إذا النوى قربتكم فدنوتم من حلّ أو من سارا
والليألى إذا نأيت طولاً وأراها إذا دنوت قصارا
ويقول في عمرة:

أحدى بني أود كلفت بها حملت بلا رقة لنا وترا

(١) شط: بعد -- قطن: أقام

والله ما أحببت حبيكم لاثنيباً مُخلِقت ولا بكرأ
وأظهر من كل ماتقدم قوله في عثمة
ماخنت عهدك يا عثيم ولا هفنا قلبي الى وصلٍ لغيرك فاعلمى
ولا يمكن أيها السادة أن تكون كل هذه الدعاوى صحيحة . فإن
كذب بعضها كان دليلاً على كذب البواقي ، فهو إذاً محتالٌ ماهر
يُقسم لكل غانية يمينا . والغواني سريعة التصديق ^(١)

(١) قد وافقنا على هذا الرأي كثير من شيوخ الادب ، وأسادة السان . وفي مقدمتهم
الاستاد السح مصطفى القاياتي والاستاذ الدكتور احمد صيف وحالما في ذلك الاستاذ
الشيخ عبد الوهاب الحجار : فهو يرى أن بعدد المعسوقات لاندل على الكذب في
الحب . وقد نخاص الحب في يومه إلى إحدى العايات ، ثم يصق عبرها الود في
العد . ولا يكون كاداً في حبه الاول ، ولا منهمأى وده الماني . بل قد يفنى في حبه
لنفس العواني ثم يصرف عنها ثم يعود إليها . كما قيل :

هجرنا حتى قيل لا يعرف الهوى ووربك حتى قيل ليس له صبر
ولكن ألا يرى فصله الاساد الشيخ الحجار أن هذا من أن ربيعه وأمثاله
تقلب في الحب . وتلون في الود . وانه إن لم يكن كل الكذب فهو بعض الكذب ؟
أبعد وفا من قلبه كل يوم في حب حديد . أو نحس صادقا من لم يلى دا وفاء ؟
إن هذا المعيد

هذا . وقد عرس أسادا الدكتور طه حسن لخبان أن ربيعه في كتابه حديث
الاربعاء ح ٢ ص ١٤٣ وقد ذكر انه لم يكن يحب بعقله ولا نقله وانما كان يحب بحسه ،
وبحسه لبس عسر . ثم قرر أنه لم يكن يتصور المرأة إلا على أنها مكلمة لارجل لاستطيع
أن تعبس دونه وانه لم يكن يقصر هذه الصلة الجديسه على معاها المادى وحده
وانما كان يريد لها واسعة متناولة جميع أطراف الحياة

رابعا - قد جاء في شعره ما يدل على أن النساء عرفن فيه التلوّن ،
وعهدن منه التقلب . فمن ذلك قوله :

عجيباً ما عجبتُ مما لو أبصر	ت خليلي ما دونه لعجبتا
لمقال الصفيّ فيم التجنى	ولما قد جفوتني وهجرتا ؟
في بكاء ، فقلت ماذا الذي أبـ	كأك قالت فتاتها : ما فعلتا
ولوت رأسها ضراراً وقالت	إذ رأتنى : اخترت ذلك أنتا
حين آثرت بالمودّة غيرى	وتناسيت وصلنا ومللتا
قلت لي قول مازح تستبينى	بلسان مصدّق إذ حلفتا
عاشري فاخبري فمن شؤم جدّي	وشقائي عوشرت ثم أخبرتا
فوجدناك إذ خبرنا ملولاً	طريقاً لم تكن كما كنت قلتما
وتجلّدت لي لتصرم حبلى	بعد ما كنت رثّة قد وصلتما
فاذكر العهد بالمحبّ والودّ	الذي كان بيننا ثم خفتا ^(١)
ولعمري ماذا بأول ماعا	هدتنى يا بن عمّ ثم غدرتا
فحرامٌ عليّ أن لاتنال الد	هر مني غير الذي كنت نلتا ^(٢)
قلت مهلاً عفوا جميلاً فقالت	لاوعيشي ولو رأيتك متا

(١) المحصب : موضع رمى الحمار بني (٢) الطاهر أن « لا » رائدة في قوله :
فحرام عليّ أن لاتنال

ويقول في الحديث عن بعض معشوقاته :

قالت وقد جدّ رحيل بها والعين ان تطرف بها تسجم
ان ينسنا الموت ويؤذن لنا نلقك ان عمرت بالموسم
إنك والله لذو ملة يصرفك الأدنى عن الأقدم

ويقول أيضا في الحديث عن بعضهن

قالت لآنسة رداح عندها كالرئم في عقد الكثيب الأيهم
هذا الذي منح الحسان فؤاده وشركمه في مخه والأعظم
علمي به والله يغفر ذنبه فيما بدالى ذو هوى متقسم
طرف ينارعه الى الأدنى الهوى ويبت خلة ذى الوصال الأقدم
وقد كثر شعره فى هذا المعنى ، حتى لقد يذكر شتمهن له ، وعتبن
عليه ، كقوله :

وقالت حات عن عهدى وودى جديد ماحيت لكم يسير
وطاوت الوشاة وزرت من لم يزرك وقد تبين لى الختور
ولم ترع الوداد كما رعينا وبانت منك لى عمداً أمور
ولم تجز القروض ولم تثبها وأنت لكل صالحة كفور
وقد أقر نفسه بالتلون ، وصرّح بالتقلب ، فى قوله

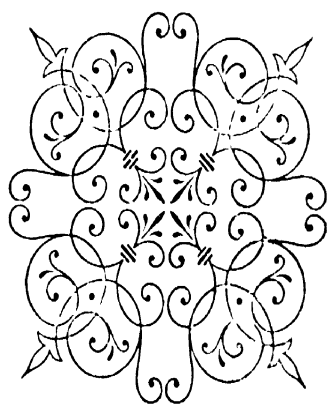
لعمري لقد كان الفؤاد مسلماً صحيحاً فأمسى لا يطيق لها هجراً

فجازى ودوداً كان قبلك فى الهوى دءولاً فقد أورثته السُّقْم والضُّرا
أفى الحق أنْ حُكِّمْتُمْ فحُكِّمْتُمْ صواباً فما أخطأتم الظلم والكفرا
وأين هذا أيها السادة من قول مضر بن قرط المازنى :

ولو تعلمين العلم أيقنتِ أنى وربّ الهدايا المشعرات صدوقُ
أذود سَوَامَ الطرف عنك وماله إلى أحدٍ إلا عليكِ طريقُ
فإِن كنتِ لَمَّا تخبرينى فاسألى وبعض الرجال للرجال رَمُوقُ
سلى هل قلانى من خليل صحبتهُ وهل ذمّ رحلى فى الرجال رفيقُ؟
وهل يجتوى القوم الكرام صحابى اذا اغبرَّ فُخْشِي الفِجَاج عميقُ

* * *

فياليت شعرى — وقد بينت لكم كذبه فى الحب — ماهى الميزة
التي سما بها شعره ، وسار بها ذكره ؟ وما هو السر فى أن سَحَرَ شعره
النساء ، وآمن به الشعراء ؟



المحاضرة الثانية

أيها السادة

بيننا في المحاضرة السالفة : أن ابن أبي ربيعة لم يكن صادق الحب ، ولا متين الصبابة . وأنه كان هتما كاللجرائر ، فتناك بالأنس . ساعده على ذلك شبابه الرائع ، وجماله الفاتن ، وثروة طائلة : كان من شأنها أن يتسع وقته لمداعبه الغيد ، وملاعبه الحور .

وما كان بما أن نطيل القول في ذلك ، لولا ما نعرفه ونؤمن به من أنه لا يصح الحكم على شعر شاعر ، أو نثر ناثر ، إلا بعد الوقوف على دقائق قلبه ، وخطرات فؤاده . وقد علمنا مما سلف مبلغ ابن أبي ربيعة من الحب ، ونصيبه من الصبابة ، ولم يبق إلا أن نذكر ما يجب أن يكون لشعره من ميزة ، ولأسلوبه من طابع ، وفقاً لحالته النفسية ، وميوله الشخصية ، وأن نبين أثر تلونه في حبه ، وتلاعبه في عشقه ، وكيف كان ذلك داعياً إلى أن يكون لشعره صفة تميزه عن غيره ، وتفضله عما عداه .

غير أنني لم أشأ أن أكشف الغطاء عن ذلك ، وأميط اللثام

عنه ، إلا بعد أن أئين لكم كيف فهمه الناس من قبلنا وكيف كان حكمهم على شعره وتقديرهم لأدبه ، فاني إذا فعلت ذلك فبينت بُعدهم من الصواب ، وانحرافهم عن الجادة ، كنت جديراً بأن أقول : اني عملت عملاً جديداً ، وأحدثت أثراً جميلاً ، وابتدعت بدعة حسنة ، وسلكت في فهم ابن أبي ربيعة سيلاً لم يسلكه الناس من قبل . نعم وكنت جديراً بأن أخطيء من يقول : لا جديد تحت الشمس ، وأن أكون نصيراً للداعين إلى الجديد تنميماً للقديم

أعمل ذلك وأسعى إليه ، وأنا أحترم أدب الأسلاف وفكرهم ، مع اعتقادي أن كل شيء في الكون قابل للتهذيب ، مفتقر إلى التكميل وأن السبعين صحيفة التي كتبها صاحب الأغاني عن ابن أبي ربيعة لم تكن لتفهمنا حقيقته ، وتعرفنا شخصه . إذ كانت موضوعة على غير نظام مبنية على غير أساس ، وأن بنوتنا لأسلافنا وتبعيتنا لهم لا يحولان بيننا وبين تكميل ما لم يكملوه ، وتهذيب ما لم يهذبوه ، فان للولد - وان يكن سراً أبيه - قلباً يفقه به ، وعيناً يبصر بها ، غير قلب أبيه وعينه ، وليس للوالد مهما عظم أمره ، وجلّ قدره ، أن يضطر ابنه إلى الحكم على الأشياء كما يحكم هو عليها . كما لا ينبغي

للولد مهما أخلص في بنوته ، وصدق في بره ، أن يعقَّ الطبيعة
فيما أهده من نظر ومنجته من تدبير

*
* *

أيها الساذج :

علمت أن ابن عباس سمع شعر ابن أبي ربيعة واستحسنه ،
وأن قائلاً قال له : اللهَ اللهَ يا ابن عباس فأننا نضرب اليك أكباد الإبل
من أقاصى البلاد نسألك عن الدين فتعرض ؛ ويأتيك غلامٌ من قریش
فینشدك سفيها فتسمعه ؟ فقال تالله ما سمعت سفيها ! فعلمت من ذلك
أن ابن أبي ربيعة شاعرٌ مُستجاد الشعر ، غير أن الشعراء كثير :
فمن هو من بينهم ؟ وما سبيله التي سلكها ؟ وما هو الابداع
الذي عرف به ؟

وبلغنى أن الفرزدق سمع شيئاً من تشبيب ابن أبي ربيعة فقال :
هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار ، ووقع هذا عليه .
فلم أفهم من هذا شيئاً ، ولم أدر ما الذي يدل عليه اسم الإشارة في قوله :
هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته ؟

وبلغنى أيضاً أنه كان بالكوفة رجل من الفقهاء يجتمع الناس اليه

فيتذاكرون العلم ، وأنه ذكر يوماً شعر ابن أبي ربيعة في مجلسه فهجّنه فقالوا له : بمن ترضى حكماً - ومرّ بهم حمّاد الراوية - فقال قد رضيت هذا . فقالوا لحمّاد : ما تقول فيمن يزعم أن عمر ابن أبي ربيعة لم يحسن شيئاً ؟ فقال أين هذا ؟ اذهبوا بنا إليه . قالوا نصنع به ماذا ؟ فقال : ننزو على أمه لعلّها تأتي بمن هو أمثل من عمر !! فعلمت أن ابن أبي ربيعة شاعر اختلف الناس في تقديره ، وأن بعض أعدائه اعتمدوا في النيل منه على الفحش والسباب

وسمعت أيضاً أن العرب كانت تُقرّ اقريش بالتقدم عليها في كل شيء إلا الشعر : فانها كانت لا تقرّها بها ، حتى كان عمر ابن أبي ربيعة ، فأقرت لها الشعراء بالشعر أيضاً ولم تنازعها شيئاً ، فلم أفهم من هذا أيضاً إلا أنه شاعر مجيد ، رفع من شأن قومه ، وأكمل مجد آبائه . وربما سمعت من طريق آخر أنه محب ، فأقول ومن هو في المحبين ، فإن الحب درجات ؟ أو ناسب متغزل ، فأقول : ومن هو في المشبين فإن للنسيب مذاهب ؟



وكذلك ما زلت أسمع من أخبار ابن أبي ربيعة ، وأقرأ من وصف

الناس له ، ما يبعدنى عن فهمه ، والحكم على شعره ، حتى رأيت حديثاً مسهباً لبعض العلماء المتقدمين فيما ابتكروه ابن ابى ربيعة من نادر المعاني وابتدعه من جديد الاغراض ، حديث عامى ، أراد به كاتبه — عفا الله عنه — أن يعلم الناس كيف يعتسفون فى فهم الأدب ، ويضلون فى تقدير الشعراء : حديث طويل بيد أنه كسر اب ببيعة يحسبه الظمان ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً : حديث خادع ، ظن صاحب الاغاني أنه يكرم الأدب بذكره ، ويمتتع الأدياء بنقله ، فلم يغفل منه كلمة ، ولم يغادر منه حرفاً .

وقد رأيت أن أنقل لكم ذاك الحديث وأناقشه ، حتى تعلموا أى ضرر يعود على قارئ تلك الكتب . إن لم يكن من أهل الحكم ، وممن يميز الخبيث من الطيب ، وحتى تعرفوا خطأ أولئك الذين يدرسون الأدب فى بيوتهم ، وبعد الفراغ من أعمالهم ، ظناً منهم أنه علم كمالى بسيط ، يكفى فى فهمه ودركه أن يكون للمرء مكتبة يرجع إليها ويروض الفكر فيها ، ثم يبيحون لأنفسهم بعد ذلك أن يؤلفوا فى الأدب ، وأن ينقدوا الكتاب والشعراء !!

نعم وحتى يعلم الناس جميعاً أن لاهياة للأدب ، ولا بقاء للغة ، إن لم ننظر فى حياة غيرنا الأدبية ، فنعرف الفرق بين أدبنا وأدبهم ، وكيف

نبهوا بعد خمولهم ، ونشطوا بعد فتورهم . وما هي السبل التي أوصلتهم إلى ما وصلوا إليه ، حتى نصل نحن كذلك ، فانا لا نريد أن نفخر بأجدادنا ونحن دونهم ، ولا أن نعيش في ظلهم كما عاش آباؤنا في ظلهم ، بل نريد أن تكون لنا ثروة أدبية ، وتراث فكري ، وأن نحيا في أنفسنا ، وبأنفسنا ، حياة طيبة خالدة ، يتغنى بها الأبناء والاحفاد .

نقل صاحب الأغاني — وهو يترجم ابن أبي ربيعة — عن الزبير ابن بكار عن عمه مصعب انه قال :

« راق عمر بن أبي ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرعهم : بسهولة الشعر ، وشدة الأثر ^(١) . وحسن الوصف . ودقة المعنى وصواب المصدر ، والقصد للحاجة ، واستنطاق الربع ، وانطاق القلب ، وحسن العزاء ، ومخاطبة النساء ، وعفة المقال ، وقلة الانتقال ، وإثبات الحجة ، وترجيح الشك في موضع اليقين . وطلاوة الاعتذار ، وفتح الغزل ، ونهج العلل ، وعطف المساءة على العذار ، وأحسن التفجع ، وبخل المنازل ، واختصر الخبر ، وصدق الصفاء . إن قدح أوري ، وإن اعتذر أبرأ ، وإن تشكى أشجى . وأقدم عن خبره ، ولم يعتذر بغرة

(١) الأسر يسكون السين : الخلق . قال تعالى « نحن خلفاهم وشددنا أسرهم » ويراد

بسدة الأسر في وصف الشعر إحكام النسيج وممانعة التركيب

وأسر النوم ، وغمّ الطير ، وأغذّ السير ، وحيرّ ماء الشباب ، وسهّل
وقول ، وقاس الهوى فأربى ، وعصى وأخلى ، وحالف بسمعه وطرّفه وأبرم
نعت الرسل . وحذّر . وأعلن الحب وأسرّه ، وبطن به وأظهره . وألحّ
وأسفّ ، وأنتج النوم ، وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه ، وأذلّ
صعبه ، وقنع بالرجاء من الوفاء ، وأعلن قاتله ، واستبكي عاذله ، ونفض
النوم ، وأغلق رهن منى وأهدر قتلاه . وكان بعد هذا كله فصيحاً «
فهل رأيتم أغمض من هذا الكلام ، وأقل وضوحاً منه ؟
وهل يحسن أن يجيب المرء بمثل هذا إذا سئل عن شعر ابن أبي ربيعة ؟
اللهم إنك تعلم انى لا أريد إلا الاصلاح ما استطعت ، وانى
لقيت عنتاً فى فهم هذا الحديث المبهم الغامض ، وأنى أخشى أن يتورط
فيه من يشق عليه فهمه ، ويصعب عليه دركه ، فان المؤلف نفسه قد
شعر بغموضه ، وأحس بابهامه : فأطال فى شرحه بالمثل

ولنفرض أن هذا كلامٌ واضحٌ بين ، فمن ذا الذى يستطيع أن
يحمل ذاكرته ستاً وأربعين صفة لشاعر واحد ؟ وما كانت تكون
الطامة لو ألفنا هذا النحو من الفهم فى تقدير كتابنا وشعرائنا
وحكائنا ؟ أكانت تتسع اللغة لهذه الألقاب العديدة ، والمصطلحات

الكثيرة ؟ أم كان يتسع وقتنا لدراسة الفنون على هذا النحو في اختلاف أنواعها ، وتباين أشكالها ؟ هيهات هيهات ! ولشد ما تورط الكاتب في الخطأ ، وأمعن في الضلال !



ولكن فلنترك^١ تأنيبه جانباً ، ولنعد إلى النظر في تلك الكلمة ، ولنفهمها فهما يخول لنا الحكم عليها ، حكماً صارماً لا يرد أليس معنى كلامه قبل كل شيء أن ابن أبي ربيعة انفرد بتلك الصفات كلها لم يشاركه فيها مشارك ، ولم يزاحمه عليها مزاحم ؟ وإلا فكيف بهربها الناس ، وفاق من أجلها النظراء ؟ لا بد أن يكون غرضه ذلك وإلا كان خاطئاً في حكمه ، واهماً في فهمه — نعم يجب أن لا يريد من تلك الصفات إلا أنها من خواص ابن أبي ربيعة فإن ذلك هو موضوع الحديث ، وما سأل من أجله القلم . وإذا فلننظر أصدق أم كان من الكاذبين ؟

وإني ألاحظ أولاً أيها السادة : أن ذلهم المؤلف لم يدرس شعر ابن أبي ربيعة دراسة تمكنه من الحكم الصحيح وتجعله قادراً على وضع الكلام في موضعه ، وأن يكون الشاهد وفقاً

لما يزعمه ، وطبقاً لما يدعيه : فقد رأينا يمثّل لدقة معناه وصواب
مصدره بقوله :

عوجاً نُحَى الطلل المحُولاً والرّبعَ من أسماء والمنزلاً^(١)

بجانب البوابة لم يعدهُ تقادم العهد بأن يؤهلاً^(٢)

وليس هذا بالكلام الرائع ذى المعنى الدقيق ؛ وإنما هو شعر كان
من أمره فى التعقيد أن اختلف الناس فى فهمه وتأويله : فقال إسحق
ابن ابراهيم : يعنى أنه لم يؤهل فيعدود تقادم العهد . وهو فهم سقيم ،
فإن المنزل الذى لم يؤهل حتى لا يخشى عليه تقادم العهد ، ليس أهلاً
للتحية ، ولا لتذراف الدموع . وقال بعض المدنين : يحيمه بأن يؤهل
أى يدعو له بذلك ، وهو أنسب ، وكان أولى لو مثل الكاتب لدقة المعنى
وصواب المصدر بقوله

أشارت بمدراها وقالت لأختها أهذا المغيرُ الذى كان يُذكر^(٣)

لئن كان إياهُ لقد حال بعدنا عن العهد والانسان قد يتغيرُ

قال ابو الحارث جُمَيِّز : امرأته طالق ان كانت أشارت اليه بمدراها

(١) الطلل المحول والمحيل هو الذى أتى عليه أحوال وطمس معالمه وأحقت رسومه

(٢) البوابة الفلاة واسم لصحراء أرض تهامة (٣) المندرى والمندرة : حديدة

يحك بها الرأس

الا لتفقأ بها عينه ، هلاً أشارت اليه بنقائق مُطرف بالخردل ، أو
سَنَبُوسَجَة ^(١) مغموسة في الخل ، أو لَوَزِينَجَة ^(٢) شَرِقة بالدهن ، فان
ذلك أنفع له ، واطيب لنفسه ، وادل على مودة صاحبتة !

ونحن بالرغم من نقد هذا الا كول الشره ، نرى ابن أبي ربيعة
أبصر بمواقع الكلام : فانه هنا لا يتحدث عن فتوَّنه وشبابه ، حتى يصف
هدايا النساء له ، واقبالهن عليه . وانما يذكر ما نالت من حسنه الايام ،
وهدَّت من قواه الايالى . ألا ترونه يقول بعد ذلك :

فَقَالَتْ نَعَمْ لَا شَكَّ غَيْرَ لَوْنُهُ سُرَى اللَّيْلِ يُحْيِي نَصَّهُ وَالتَّهَجُّرُ ^(٣)
رَأَتْ رَجُلًا أَمَا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ

فِيضِحِي وَأَمَّا بِالْعَشَى فَيُخْصِرُ
قَالِيلاً عَلَى ظَهْرِ الْمَطِيَّةِ ظِلُّهُ سَوَى مَانَفَى عَنْهُ الرِّدَاءُ الْحَبْرُ
أَخَاسِفَرُ جَوَّابِ أَرْضٍ تَقَاذَفَتْ بِهِ فَلَوَاتٌ فَهُوَ أَشْعَثُ أَغْبَرُ
وَهَذَا وَلَا شَكَّ أَدَقُّ مَعْنَى وَأَصُوبُ مَصْدَرًا مِمَّا ذَكَرَهُ صَاحِبُنَا
مِنْ قَبْلِ فِي بَيَانِ رَأْيِهِ ، وَتَأْيِيدِ مَذْهَبِهِ .

(١) السدوسح : ما يحشى بقطع اللحم والخور ونحوه من الرقاق المعجون بالسم أو الشبرج

(٢) اللوزيخ : نوع من الحلواء يسبه القطائف يؤدم بالجور (٣) نص السرى :

أسراعه — والتهجر : السير في الهاجرة وهي شدة الحر

ثم مثل لصدقه الصفاء بقوله :

كل وصل أمسى لديك لأنى غيرها وصاها إليها أدا

كل أنى وإن دنت لوصال أو نأت فهى للرباب الفداء

وعندى أن هذا الشعر يدل على الكذب أكثر مما ينمُّ على الصدق،

وما قيمة الصدق فى حبه ، والحب فى قلبه ، وهو يعرف غيرها ويصل

سواها ؟ ولو أنه نظر نظرة عميقة فى شعر ابن أبى ربيعة لاهتدى الى

المثال الواضح والشاهد البين فى الدلالة على صدقه فى الحب ، وثباته فى

الغرام . واليكم احسن ما قال ابن أبى ربيعة فى هذا المعنى ، وقد وقف

فى بعض المناسك فاقبل النساء جماعات جماعات كأسراب الحمام ، وكنَّ

بالحج عابثات ، وفى المنسك لاعبات :

من اللاء لم يحججن يبعين حسبةً ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

فأخذ الرجال يرشقونهن بالنظرات ، ويصلونهن بالأمانى : فيطيعون

الهوى ويعصون الله ، ويجيبون داعى الحسن ويعقون داعى المنسك .

كل ذلك وابن أبى ربيعة عفيف الطرف والقلب ، لخشيةً من الله ، أو

إجلالاً للمنسك ، ولكن طاعةً للهوى ، ونزولاً عند حكم الصبابة ،

احتفاظاً بود من هوى ، ورعيماً لعهد من يحب . وفى ذلك يقول :

يقولون انى لستُ أصدقك الهوى وأنى لأرعاك حين اغيبُ

فأبال طرفي عفَّ عما تساقطتْ لهُ أعينٌ من معشرٍ وقلوبُ
 عشيةٌ لا يستنكف القوم أن يروا سفاه امرئ ممن يقال لبيبُ
 ولا فتنةً من ناسكٍ أومضتْ لهُ بعين الصبا كسلى القيام لعوب^(١)
 تروّحَ يرجو أن تُحط ذنوبهُ فآب وقد زيدتْ عليه ذنوبُ
 وما النّسك أسلاني ولكنّ للهوى على العين منى والفؤاد رقيب^(٢)
 ومثل لحسن عزائه بقوله

أألحقَّ إن دار الرباب تباعدتْ أو انبتَّ حبلٌ أن قلبك طائرُ ؟
 أفق قد أفاق العاشقون وفارقوا الـ بهوى واستمرت بالرجال المرائر^(٣)
 زع النفس واستبقى الحياء فانما تباعد أو تُدنى الرباب المقادر^(٤)
 أميت حبها واجعل قديم وصلها وعشرتها كمثل من لا تعاشر
 وهبها كشيء لم يكن أو كمنزاح

به الدارُ أو من غيبته المقابر

(١) أومضت له : سارقه المطر (٢) يلاحظ القارىء رفع اسم « اسكن » وقد
 طن بعضهم أن هذا خبره . عبر أنه يحب أن يقرر أن مثل هذه المخالفة لقواعد
 العرب تنكث في الشعر الذي سق وضع القواعد والحرص على مراعاتها ، ولولا ضيق
 المقام لذكرنا شواهد ذلك من الشعر القديم ومن القرآن

(٣) استمرت بهم المرائر . قويب عرائثهم فأقعوا عن عوايتهم

(٤) زع النفس : أرحبها عن الهوى

وكالناس عُلِّقت الرِّباب فلا تكن

أَحاديث من يبدو ومن هو حاضر^(١)

وليس في هذا الشعر شيء من حسن العزاء ، إنما هو تناسٍ لمن
يهوى ، وتغاضٍ عَمَّن يحب ، فكيف يُحسب من الحسنات أو يعدُّ
من المبتدعات ؟

ولعل خيراً منه في معناده ، وأدل منه على الصبابة ، قول شبيب

ابن البرصاء

ألم تر أن الحَيَّ فرق بينهم نوَّى يوم صحراء الغميم لجوج^(٢)

نوَّى شطنتهم عن نوانا وهيجت لنا حزنًا أن الخطوب تهيج^(٣)

فلم تذرف العينان حتى تحمَّلت مع الصبح أحفاض لهم وحدوج^(٤)

وحتى رأيت الحَيَّ تُذرى عراصهم

يمانية تُذرى الرِّغام دروج^(٥)

(١) من يبدو ومن هو حاضر : يريد من يقيم في الدو والحضر

(٢) الغميم كأمير واديين الحرمين على مرحلتين من مكة (٣) شطنتهم : أبعدهن
والنوى الثابتة هي القرب (٤) الأحفاض جمع حفص بالتحريك وهو متاع البيت
إذا هوى لأحمل والغير الذي يحمله — والحدوح جمع حدح بالكسر وهو الحمل
ومركب للنساء كالخفمة (٥) العراص جمع عرصة بفتح العين وهي البقعة الواسعة بين
الدور ليس فيها ساء — والرغام : رباب لين أو رمل مختلط بتراب

فأصبح مسرورٌ ببينك معجبٌ^(١) وباكٍ له عند الديار نشيج^(٢)
 فان تك هند جنةً حيلٌ دونها فقد يعرف اليأسَ الفتى فيعيج^(٢)

*
* *

والأحظ أيضاً أيها السادة أنه كرر بعض الصفات : فانه قال : إن
 اعتذر أبرأ ، وأنشد في ذلك قوله :

فالتقينا فرحبت حين سام ت وكفت دمعاً من العين ثارا
 ثم قالت عند العتاب رأينا منك عنا تجلداً وازورارا
 قلت كلا لامِ ابن عمك بل خف منا أموراً كنا بها أغمارا
 فجعلنا الصدود لما خشينا قالة الناس للهوى أستارا

ثم قال : وطلاوة الاعتذار ، وأنشد فيها قوله

أرسلت إذ رأت بعادى ألاَّ يقبلن بي محرّشاً إن أتادهُ
 دون أن يسمع المقالة منا وليطعنى فان عندى رضاه
 لا تطع بي فدتك نفسى عدوا لحديثٍ على هواه افتراه
 لا تطع بي من لو رآني وإيا لك أسيرى ضرورة ما عناه

(١) السبج : هو العصص بالبكاء وورده بالصدر في غير المختار

(٢) يعيج : يعود إلى رشده

ولا فرق بين هذين الشعرين إلا أنه في أولهما يحدث عن نفسه
وفي ثانيهما عن حبيبته .

وكذلك ألاحظ أن قوله (وقلة الانتقال ، وإثبات الحجة ، إن
قدح أوري ، وإن اعتذر أبرا . وإن تشكى أشجى) كل هذه الصفات
تؤدي إلى غرض واحد : هو استيفاء الموضوع ، وإقناع المخاطب .
فإنك تنظر إلى ما أنشده في قلة الانتقال ، فلا تجد غير ما أنشده في
إثبات الحجة : فكلاهما في محاورة اللأم ومراجعة العاذل

على أن إسباغ الكلام ، وتتميم الموضوع ، يُعدّان من الميزات
الأولية في الشعر العربي ، فقد يتكلم الشاعر عن عدة أشياء في قصيدة
واحدة ، وهو مع ذلك يوفي كل موضوع حقه ، ويعطى كل وصف
قسطه . وهذا سويد ابن أبي كاهل اليشكري ، جعل قصيدته العينية
صحيفة لتاريخه ، وشرحاً لأغراضه ، حتى ليحسب القارئ أن ليس
في استطاعة شاعر غيره ، أن يبسط القول في مسألة واحدة بسطه فيها
ولا أن يبلغ غرضه من شيء ما بلغ منه . فلو أن شاعراً شاء أن يصف
عدوّاً حسنَ الظاهر سيئ الباطن ، لما زاد على قوله

رُبَّ مَنْ أَنْضَجَتْ غِيظًا قَابَهُ قَدْ تَمَنَّى لِي شَرًّا لَمْ يُطْعَمْ
وِيرَانِي كَالشَّجَا فِي حَلْقِهِ عَسِرًا مَخْرَجَهُ مَا يُنْتَزَعُ

مُزَبَّدٌ يَخْطِرُ مَا لَمْ يَرْنِي فَإِذَا أَسْمَعْتَهُ صَوْتِي انْقَمَعَ ^(١)
 قَدْ كَفَانِي اللَّهُ مَا فِي نَفْسِهِ وَمَتَى مَا يَكْفُ شَيْئًا لَا يَضِيعُ
 بَشْمًا يَجْمَعُ أَنْ يَغْتَابَنِي مَطْعَمٌ وَخَمٌ وَدَاءٌ يُدَّرِعُ ^(٢)
 لَمْ يَضِرْنِي غَيْرَ أَنْ يَحْسَدَنِي فَهُوَ يَزْقُو مِثْلَ مَا يَزْقُو الضُّوْعُ ^(٣)
 مُسْتَسِرُّ الشَّنَاءِ لَوْ يَفْقَدُنِي لَبَدَا مِنْهُ ذُبَابٌ فَنَبَعَ ^(٤)
 صَاحِبُ الْمِثْرَةِ لَا يَسْأَمُهَا يُوقِدُ النَّارَ إِذَا الشَّرُّ سَطَعَ ^(٥)
 ذَرَعَ الدَّاءَ وَلَمْ يُدْرِكْ بِهِ تِرَةً فَاتَتْ وَلَا وَهْيًا رَقَعَ ^(٦)

وهذا من النعمت الشامل ، والوصف السابغ ، وهو جزء من
 قصيدة كثرت أغراضها ، وتشعبت فنونها . ولو كان بي أيها السادة أن
 أشرح لكم طريقة العرب في الوصف وسبيلهم في البيان ، لكان لي
 مضطرب واسع ، وميدان فسيح ، وليكني أريد الآن أن أفهمكم فقط :
 أن ابن أبي ربيعة ليس أول شاعر بسط القول ، وهلhel الشعر . فليست
 أبياته التي يقول فيها

(١) مراد بخطر : سله بالمجل الهائج . يقال : أريد الفجل إذا هدر . وخطر بدبه
 ضرب به نميا وشمالا (٢) طعام وخم ووخيم : عبر موافق — وإدراع الداء كناية
 عن الابتلاء . (٣) يرقو : يصيح — والضوع كصرد وعيب ذكر اليوم . وأوطائر
 أسود كالعراب (٤) السوء . العصى — والدياب في هذا البيت الشر (٥) المثرة : هي
 العداوة والممه (٦) الترة : النار

- خليليَّ بعضَ اللوم لا ترحلا به رفيقك كما حتى تقولاً على علم^(١)
 خليليَّ من يكلفَ بآخر كالذي كلفت به يدملُ فؤاداً على سُقم^(٢)
 خليليَّ ما كانت تصاب مقاتلي ولا غرتني حتى وقعت على نغم^(٣)
 خليلي حتى لفَّ حبلى بخادع موقني اذا يرمي صيوداً يرمى^(٤)
 خليليَّ لو يرقى خليلٌ من الهوى رُقيتُ بما يدني النّوار من العضم^(٥)
 خليلي ان باعدتُ لانت وان اُنْ تباعدُ فلم اُنْبُلْ بحرب ولا سلم^(٦)

ليست هذه الأبيات — وهي التي أنشدها ذككم المؤلف في إثبات
 الحجة — بشيء في جانب مقالته جليلة بنت مرة ، وقد اعتدى أخوها
 جساس على زوجها كليب فقتله فمَنَعَهَا أخت كليب من الدخول في مآتمه .
 فأخذت تبين لها بشائق القول ، وساحر البيان ، مصيبتها في زوجها ،
 وهمّها على أخيها ، وأنها أولى منها بالحزن ، وأجدر بالشجى . وذلك قولها

يا ابنة الأقوام ان لم تـ فلا تعجلي باللوم حتى تسألى
 فاذا انتِ تبينّت التي عندها اللوم فأومى واعذلى

(١) لا ترحلا رفيقك باللوم : لا يؤدياه باسماءه ايابه . (٢) يدمل فؤاده على
 السقم : يطويه عليه . (٣) اشارة إلى أنه فتن بها لأول نظرة (٤) لف الحل هنا
 كساده عن الوقوع في الشرك . (٥) النوار : البافرة من الظباء — والعضم جمع
 اعضم وعصماء ، وهي التي في أدرعها ناص (٦) لم أنبل : لم أصب أو لم أحسن الرمي

إن تكن أخت امرئٍ لِمِتْ على شَفَقٍ منها عليه فافعلِ
 فِعْلُ جَسَّاسٍ على وجدى بهِ قاصمٌ ظهري ومُذْنُ أجلى
 لو بعينٍ غير عيني انْفَقَات عينيَ البنى إذا لم أحفلِ
 جلَّ عندي فعل جَسَّاس فيا حَسَرْتِي عما انجلت أو تنجلي
 ياقتيلاً خَرَّبَ الدهر بهِ سَقَفَ بيتيَّ جميعاً من علَّ
 هدم البيت الذى استعَدَّتهُ وبدا فى هدم بيتي الاول
 ورماني قتله من كَشَبِ رَمِيَةَ الْمُصْمَى بهِ المستأصلِ^(١)
 يانسأى دونكن اليوم قد خَصَّنِي الدهر بأمرٍ مُعْضِلِ
 خَصَّنِي قتل كليب بلظى من ورائي ولظى مستقبلي
 ليس من يبكى ليوميه كمن إنما يبكى ليوم بَجَلِ^(٢)
 دَرَكُ الثائر شافيه وفي دَرَكُ الثائر قتلٌ مشكلى
 انى قاتلةٌ مقتولةٌ ولعل الله أن يرتاح لى^(٣)

وذلك نفسه هو القصد للحاجة : الذى جعلوه من مبتدعات ابن أبى
 ربيعة ممثلين بقوله :

(١) من كَسَبَ : من قرب - والمصمى هو من قوهم : أصمى الصيد إذا رماد فقتله
 مكانه - والمستأصل من قوهم : استأصل الله شأقتهم إذا قطع دابرهم (٢) بجل بمعنى فقط
 (٣) ارتاح له الله : أدقده من اليه

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان
هي شاميةٌ إذا ما استقلت وسهيلٌ إذا استقلَّ يمان

*
* *

والأحظ أيضاً أيها السادة أن أكثر تلك الصفات من الأمور العامة : التي لا تحدّد معنى ولا ترسم طريقة . فما الذي اراده بسهولة الشعر ، وشدة الأسر ؟ وما الذي قصده من حسن الوصف ؟ وما الذي عنده بفتح الغزل ؟ ولقد تأملت الأمثلة التي ذكرها لتلك الصفات فإذا هي أكثر منها غموضاً : فقد مثل لحسن الوصف بقوله

لها من الريم عيناه ولفتته وغرة السابق المختال إذ صهلا

فما وجه الحسن هنا ؟ إن كان في أحرار الصفات المختلفة للموصوفات المختلفة ، فليس بالشيء الجديد . فلقد قال امرؤ القيس في وصف حصانه له أيتلا ظبي وساقا نعامةٍ وإرخاء سرحان وتقريب تتفل^(١) وإن كان لروعته وبهائه ، فما هو أيضاً بالمبتدع ، وخير منه قول الشنفرى :

(١) الأبطل : الحاصرة — والسرحان : الدئب — والتقل : ولد النعلب

فدقت وجلت واسبكرت^١ وأكملت

فلوجن^٢ إنسان^٣ من الحسن جنت^(١)

ومثل لفتح الغزل بقوله

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى

فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

وهو معنى مشهور ، لا يصح أن يجعل دليلاً على نبوغ شاعر ،

على أنه ينسب للاحوص . وكذلك رأينا فيما ذكره : من تسهيله وتقويته ،

واختصاره الخبر ، ودقة معناه وصواب مصدره ، الى غير ذلك من

الأوصاف العامة والنعوت التي لم تُحدد . فلم يبق إلا أن ننظر في

الصفات التي يظن أنه ابتدع ما أفصحته عنه ، وابتكر مادلت عليه .



وانى قبل ذلك ألفت نظركم الى أن تلك الصفات يرجع بعضها الى

المعنى ، وبعضها الى اللفظ ، وشئ منها الى الأسلوب . وأريد بالمعنى هنا

الفكرة الأساسية ، التي يعد الشاعر مبدعاً لها اذا سبق بها ، كما يقولون .

(١) دقت وحات : برمدان حسنها دقيق في الموطن الذي يسميها فيه الدقة . وجلد

في الموضع الذي يسميها فيه الصخامة — واسكرت : طاب واعمدت

أول من طرد الخيال طرفة بن العبد في قوله

فقل خيال الخنظلية ينقَابُ اليها فاني واصلٌ حبل من وصلٍ
وأريد باللفظ الكلمة المستعملة أول مرة في التعبير عن معنى
معروف ، كما يقولون : أول من قيد الأوابد ، وأرو القيس في قوله
وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجردٍ قيد الاوابد هيكل^(١)

يريدون أنه أول من عبر عن السرعة بهذا التعبير

فاما الاسلوب — وهو الطريقة المثلى في الأداء — فاني لا أريد
مناقشة المؤلف فيما يتعلق به ، فقد كان للعرب قبل ابن أبي ربيعة بأجيال
أسلوب سامٍ بديع ، مازال الناس يقتفون فيه أثرهم ، ويترسمون خطاهم .
على أن أكثر ما يتعلق بذلك من تلك الصفات منتهقد مزيف . وقد
أشرنا الى شيء منه في الملاحظات السالفة ، فليتنامله الراغب في الفهم ،
والجائح للبيان .

فمن الصفات المعنوية عفة المقال التي مثل لها بقوله

طال ليلى واعتادنى اليوم سُقْمُ وأصابت مقاتلَ القلب نُعْمُ
حرّةُ الوجه والشمالك والجو هر تكليمها لمن نال غنم

(١) الوكبات جمع وكبه وهى عس الطائر — والمبحرد القصير الشعر — والاوابد:

الوحوش — والهيكل: الفرس الطويل

وحديث بمثله تُنزلُ العُصَى — هم رخيـم يشوب ذلك حلم
هكذا وصفُ مابدالى منها ليس لى بالذى تغيبُ علمُ
إن تجودى أو تبخلى فبحمدٍ لستُ يانعمُ فيهما من يذمُ
وكان ذلك من خير ما يوصف به الشعر فى الحب ، وتنعت به أحاديث
الصباية ؛ لولا اننا لانعده حسنة للشاعر ولا منقبة للمحب ، مالم يكن
من خواصه ، ومما لا يعدل عنه ، فكيف وابن أبى ربيعة متهتك فى شعره ،
متطرف فى نسيبه ؟

على أن هذا الشعر وان دل على عفة الحب فانه لا يدل على إغراب
المحبوب فى الصيانة ، وإيمانه فى التمتع ، وخير منه قول الشنفرى فى
ظبية تسكن الى أمها ، وتنفر من محبها

لقد اعجبتنى لاسقوطاً قناعها اذا ما مسّت ولا بذات تلفتِ
تحلُّ بمنجاة من اللّوم بيتها اذا ما يئوتُ بالملامة حُاتِ
كأن لها فى الارض نسيماً تقصه على امها وان تكلمك تبلى (١)
وما زال العرب يفتخرون بالعفة ، ويتمدّحون بالصيانة ، فكيف
يكون ابن أبى ربيعة مبتدعا للعفة فى المقال ، وقد عرفت من قبله
فى الفعل ؟

(١) النسي بالكسر ويفتح مانسى وما نلقه المرأة من خرق اعتلالها. وببب وتذلت
تقطع . والمعنى انها تسكن إلى أمها فتطيل الكلام فادا كلمها رجل عليها الحياء فسكنت

ومما ابتدعه أيضاً في زعمهم عطف المساءة على العذال في قوله
 لاتلمنى عتيق حسبي الذى بى إن بى ياعتيق ماقد كفانى
 لاتلمنى وأنت زينتها لى أنت مثلُ الشيطان للانسان
 وهو خطأ في الفهم ، فان هذا معنى أوجده حادثة خاصة ، وليس
 كل عاذل بقواد ، حتى يكون المعنى شاملاً لكل لأنم وعاذراً لكل ملوم ،
 وقد وُجد في كتاب الله من قبل ، فلا سبيل لعه من المبتكرات ،
 ولا لجعل صاحبه من المبدعين



ثم قال : ومن إقدامه عن خبرة ولم يعتذر بغيره قوله
 صرمت وواصلت حتى عرف - ت أين المصادر والمورد
 وجربت من ذاك حتى عرف - ت ما أتوقى وما أعمد
 على أن وصل الغانيات ، والحظوة لديهن ، قد لا يحتاج إلى قسط
 أوفر من الدهاء ، ونصيب أكبر من السياسة ، حتى يفخر الشاعر
 بالفوز فيه والظفر به ، إنما يكبر المرء في عين النساء بفحولته ، وبشبابه
 النضير ، وغصنه الرطيب ، وما منجته الطبيعة من ديباجة مشرقة ومحيا

وسيم . فأما اللوام والعذال والوشاة ، فهم أهون الناس عليه ، وأصغرهم
لديه ، إن نال من حبه الكرامة ، وحل في قلبه الشفيق

ولعل البها زهير قلّده في هذا المعنى : إذ جعل القواد المخنثين
أشباهاً لسفراء الدول حين يقول :

فيا رسولى إلى من لا أبوح به إن المهمات فيها يُعرف الرجلُ
والمعنى أصله للناطقة في مدح بنى غسان ، وقد وضعه في موضعه
وأقره في نصابه ، وذلك قوله (١)

ولا يحسبون الخير لاشر بعده ولا يحسبون الشرّ ضربة لازبٍ
إذ كانوا لا يغفلون عن حراسة الخير ، ولا يفترون في
مدافعة الشر

ثم قال : ومن تحذيره قوله

لقد أرسلت جاريتى	وقلت لها خذى حذركُ
وقولى فى ملاطفةٍ	لزينب نوى عمرك
فان داويت ذا سقمٍ	فأخزى الله من كفركُ
فهزّت رأسها عجباً	وقالت من بدا أمرك
أهذا سحرك النسوا	ن قد خبرنى خبرك

وقلن إذا قضى وطراً وأدرك حاجة هجرك
ولست أرى في هذا الشعر ما ينبئ عن ابتداء ، أو يدل على
اختراع ، فإن تحذير الرسول من الامور الفطرية التي تخطر ببال أحدث
الناس عهداً بالحب ، وأقلهم علماً بما يجنى الوشاة

على أن ذلك قد يكون من عيوب تلك القوادذ التي كان ينبغي
أن لا تحتاج إلى تحذير ، فما يصح أن تكون جارية ابن أبي ربيعة غرة
بلهاء ، يدرك الناس ما تسعى له ، فيعرفون من تمشى إليه ، أو تخطىء
فهم ما أرسات به ، فتخفق فيما سعت له

فأين كانت ، لاعفا الله عنها ، تلك العجوز الشمطاء ، والداهية
الشعواء ، التي كان يرساها ابن أبي ربيعة إلى الظباء النوافر ،
والحسان الغرائر ، فتسمعن من حلو الحديث ومُره ، وصعب
الكلام وسهله ، ما يجعلهن إلى الفسق أميل ، ومن الفحش أقرب :
فيصبحن خليعات فاجرات ، بعد أن كنَّ عفيفات طاهرات !

أين كانت — لا كانت — تلك التي يقول فيها

وَأَتَهَا طَبَّةٌ عَالِمَةٌ تَمْزِجُ الْجِدَّ مَرَاراً بِاللَّيْلِ^(١)

تُغَاطِظُ القول إذا لانت لها
وتُراخى عند سَوَرَاتِ الغضب
لم تزل تصرفها عن رأيها وتأنّاها برفق وأدب^(١)
تلك التي ودّ الناس لو أتاحت لهم الأقدار خليفةً في عقلها ، أو
أميراً في رأيها ، والتي طلب الوليد من حمّاد أن يسعفه بمثلها ، ويدركه
بشبهها ، حتى تعطف سامي عليه ، وتردّها اليه
ذلك ما أجاد ابن أبي ربيعة في وصف الرسل . فاما (التحذير) الذي
عناه المؤلف ، فهو ضرب من الخطأ ، أو نوع من الفضول



ثم قال : ومن قناعاته بالرجاء من الوفاء قوله
فَعِدَى نَائِلًا وَإِنْ لَمْ تُنْجِلِي أَنَّهُ يَنْفَعُ الْمَحَبَّ الرَّجَاءُ
وقد علمت مما أسلفناه أن ابن أبي ربيعة لم يكن ممن يرضى في
حبه باليسير من الوصل ، والقليل من القرب ، حتى تعدّ من ميزاته
القناعة ، ومن خصائصه العفاف
وأين هذا البيت في حسنه من قول جميل :

(١) تأنّاها بجذوف إحدى تاءيه : تتمهل عليها

وإني لراض من بثينة بالذى لو أبصره الواشى لقرت بلا به
 بلا وبأن لا أستطيع وبالمى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
 وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى

أواخره لا نلتقى وأوائله

ولا تحسبوا أيها السادة أن هناك فرقاً بين الشعريين فى المعنى
 حتى تستبعدوا المقارنة . فان المؤلف — فيما أظن — لم يشأ إلا
 التمويه بقناعة الشاعر ، والتغنى بعفاهه ، بدليل قوله بعد ذاك : هذا
 أحسن من قول كثير :

ولست براض من خليل بنائل قليل ولا أرضى له بقليل
 وقد شاء أن يخطئ فى الآخرة والأولى : فان ابن أبى ربيعة
 يتكلم عن محبوبه ، وكثير يتكلم عن خليله ، وقد يرضى المرء بظلم حبيبته
 ولا يرضى بجور صديقه ، فقد يصدف الحبيب دلالة ، ويعرض
 الصديق ملالة ، والصب عن حبه صفوح ، وربما نوقش الصديق

فأما ما أسدل ابن أبى ربيعة من الحُلل الجديدة الفاخرة ، على
 المعاني القديمة الباهرة ، وما تندّر به من التراكيب الطريفة المخترعة ،
 والتعابير الحديثة المبتدعة ، فانا نرحم الأدب من أن يُعجب بها كاتب
 فيزيّن بها نثره ، أو يخدع بها شاعر فيجمل بها شعره ، إذ كانت

فى جماتها من الاستعارات الفاسدة ، والمجازات المردودة . مما ينبو عنه
الطبع ، ويمجه الذوق السليم . فما حسن إنكاح النوم فى قوله :
حتى إذا ما الليلُ جنَّ ظلامهُ ونظرت غفلة كاشح أن يعقلا
واستنكح النومُ الذين نخافهم وسقى الكرى بوابهم فاستثقل
خرجت تأطر فى الثياب كأنها أيمٌ يسىب على كثيب أهىلا^(١)
وعلى أى وجه تجرى هذه الاستعارة ، ومن أى سبيل يجوز
هذا المجاز ؟ إن هذا إلا اختلاق

ولست أدرى لِمَ لَمْ يفتن الكاتب أيضا بما أبدع ابن أبى ربيعة :
من تشبيه الحسماء وهى تتثنى ، بالحية وهى تتلوى ، فهو أيضا
تعبير مخترع ، وتشبيه مبتدع ، لا يقل عن إنكاح النوم فى السماجة ،
ولا ينقص فى الفضول ؟

وانهم ليعجبون أيضا بقوله :

فى خلاء من الأنىس وأمنٍ فشفينا غليلنا واشتفينا
وضربنا الحديث ظهراً لبطن وأأتينا من أمرنا ما اشتهينا
فمكثنا بذاك عشر ليالٍ فقضينا ديوننا واقتضينا

(١) تأطر أصله تتأطر حدوف احدى تاءيه . والتأطر : التنى - والايىم : الايمى .

ويسيب : يمشى - والكثيب الاهيل : الرمل المنهال

وذلك أنهم يزعمون أنه أول من ضرب الحديث ظهراً لبطن
من غير أن يبينوا ما يُراد بذلك البدع الجديد !
ويستجيدون أيضاً قوله

حبكم يا آل ليلى قاتلى ظهر الحبُّ بجسمى وبطنُ
ليس حبٌّ فوق ما أحببتكم غير أن أقتل نفسى أو أجنُ
وهو من الخطأ فى التعبير ، فإن الحب حين تبدو علامته من الأرق
والسهاد ، والنحول والذبول ، لا يقال عنه بطن وظهر ، إنما يقال : ظهر
منه ما كان خفياً ، وبدا ما كان مستوراً . وقد يستبعدون أن يكون
الأسى الظاهر ، تمثالا للجوى الباطن ، كأن ما يبدو بالجسم من سُحوب
وبالوجه من لُغوب ، إنما هو شَرَرٌ تطاير من لهيب القلب ، وسعير الفؤاد
وإن تعجب فعجبٌ قوله

ليس حبٌّ فوق ما أحببتكم غير أن أقتل نفسى أو أجنُ
كأن لم يقتل الحب من أحد ، ولم يُصرع به إنسان !

* * *

وإني أيها السادة — على ما أغربت فى تقد ذلكم المؤلف — أرى
من الانصاف أن أعزز رأيه فى كلمة اختارها فى طلاوة الاعتذار ،
وأخرى فى تجميع ماء الشباب ، وثالثة فى صدق الصفاء

فأما الأولى فهي قوله

عاود القلبَ بعضُ ما قد شجَاهُ من حبيب أُمسى هوانا هواهُ
أرسلت إذ رأتَ بعادىَ أَلَا يقبلنَ بى محرّشا إن أتاه ^(١)
دون أن يسمع المقالة منا وليطعنى فإن عندى رضا
لا تطع بى فدتك نفسى عدواً لحديثٍ على هواه افتراه
لا تطع بى من لو رآنى وإيا لك أسيرى ضرورة ما عنَاه
ما ضرارى نفسى بهجران من ليد س مسيئاً ولا بعيداً ثراه ^(٢)
واجتنابى بيت الحبيب وما الخ لد بأشهى إلىَّ من أن أراه
والحق أقول : : إن إعجابى بهذه الأبيات ، ليس لما فيها من طلاوة
الاعتذار — كما ذكر ذلك المؤلف — بل لما فيها من الجرأة فى الخروج
على الوشاة . ومن ذا الذى يقرأ قوله

لا تطع بى من لو رآنى وإيا لك أسيرى ضرورة ما عنَاه
ثم لا يعطى العدو أذناً غير واعية ، وفؤاداً غير أوّاب ؟
أم من ذا الذى يسمع قوله

ما ضرارى نفسى بهجران من ليد س مسيئاً ولا بعيداً ثراه
واجتنابى بيت الحبيب وما الخ لد بأشهى إلىَّ من أن أراه

ثم لا يطير إلى حبيبه ، لينعم بجماله ، ويظفر بوصاله ؟

وأما الكلمة الثانية فهي قوله

أبرزوها مثل المهاة تهادى بين خمس كواب أتراب

وهي مكنونة تحير منها في أديم الخدين ماء الشباب

ثم قالوا تحبها ؟ قلت بهرا عدد الرمل والحصا والتراب

ووجه الحسن في تحيير ماء الشباب ، أنك تنظر إلى الحدود الموردة

فترأها كالشفق تنقل من تحته الشمس ، أو كالمشكاة يتموج في قلبها

المصباح .

في سبيل الحب تلك النظرة ! يوم رأيته وقد أبل من ثمى

أضرعته ، فرأيت ماء الشباب يدب في تلك الحدود وهي صفراء

كالورس ، فيعيدها حمراء كالورد ، وإذا بالأنس يتمشى في فؤادي

لشفائه ، تمشى البرء في أعضائه ^(١)

وأما الثالثة فهي قوله

أحبك لحبك من لم يكن صفيًا لنفسى ولا صاحبا

وأبذل مالى لمرضاتكم وأعتب من جاءكم عاتبا

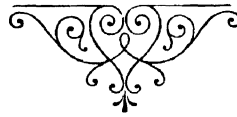
وأرغب عن ود من لم أكن إلى ودٍ قبلكم راغبا

(١) تتصل هذه الفقرة إلى هذا الحديث بسبب ضعف ، وذكرها هنا صلال مين

ولو سلك الناس في جانب من الأرض واعتزلت جانباً
ليَمَّتْ طيتها إني أرى قربها العجب العاجباً^(١)

*
* *

وجملة القول : أن ما نسب إلى ابن أبي ربيعة من المعاني المبتكرة
والألفاظ المبتدعة ، على ما فيه من وهن ، وما به من دخل ، لا يفصح
عن منهج في الشعر غير مألوف ، أو سبيل غير معروف
فما طريقه الجديد ، أو منهجه الحديث ؟



المحاضرة الثالثة

أيها السادة

إن الشعر أثرٌ من آثار النفس ، ولونٌ من ألوان الفؤاد .
وكما تختلف النفوس في نزعاتها ، والقلوب في خطراتها ، يختلف الشعر
في أغراضه ، ويتنوع في مناحيه

نعم تتنوع مناحي الشعر ، وتعدد مذاهبه ، بيد أنه لا يكفي
أن يقال : إن شعر اليأس غير شعر الرجاء ، وشعر الحزن غير
شعر الفرح ، فإن ذلك وإن فرق بين عاطفة وعاطفة ، وحالة وأخرى ،
فانه لا يرضى الأديب الفيلسوف ، الذي يعرف لعاطفة الحب ألواناً
مختلفة ، ولثائرة الحزن أشكالاً متباينة ، فيرى الحزن على الحبيب
الراحل ، غير الحزن على الحبيب المفقود ، ويرى الشعر في بكاء الأبناء ،
غير الشعر في رثاء الآباء . حتى ليؤمن بالفرق بين الشعارين :
يدعوان إلى نحلة واحدة ، بلهجة واحدة ، إذ كانت خطوات
السائرين في سبيل واحد إلى غرض واحد تختلف قوة وضعفاً ،

ونشاطاً وفتوراً ، باختلاف فهمهم للغاية التي يقصدونها ، والغرض الذى يرمون اليه

وكذلك يختلف الشعراء والكتاب : فلن يكون ابن الرومى فى 'بؤسه وذله' ، بالشاعر الذى ينحو منحى ابن المعتز فى عزه وغناه ، ولن تكون افكار جان جاك روسو الذى كان يفترش الأرض ويلتحف السماء ، بسالكة سبيل أفكار ميشيل مونتيني الذى كان يعبد أبوه : فلا يوقظه من نومه إلا بأنغام الموسيقى ، وألحان الغناء ^(١)



إذاً فمن ابن أبى ربيعة من بين المحبين ؟ وما شعره من بين أنواع النسيب ؟

ابن أبى ربيعة ، أليس هو ذلك الرجل الذى ألحظه فى أعطاف الماضى ، وأنظره فى ثنايا الزمن ، فأرى فيه التيه والدّل ، والفخر والأبهة ؟ أليس هو هذا الذى يبدو على قدم العهد : وكأنه الزهرة الناضرة ، أو الابتسامة الحائرة ؟ مالى أراه هكذا مفتوناً بشبابه ، مغروراً بجماله ؟ وما بال النساء يُشرقن من حوله ، ويطعن عليه ، فما يملك قلبه ، ولا يأسرن فؤاده ؟

(١) يجد القارىء بمصطلح هدد النظرية فى المحب الثالث من كتاب « المواربة بين الشعراء »

بلى انه رجل خليع ، وفاتن المنظر أخاذ : فلا بد أن يكون
شعره كذلك فاتناً أخاذاً ، وضاحك الثغر بسّام فيجب أن يكون
شعره كذلك ضاحكاً بساماً . فإنما الشعر صورة النفس ، وتمثل الفؤاد
ألا فليخل شعره من التوجّع ، وايسلم نسيبه من الجزع ، وليترك
الهم لقوم سواه ، فما كان بالمحزون ولا المهموم !

علام يصف الليل : فيشكو كواكبه البطيئة ، ونجومه المشكولة ،
وفجره المفقود ، وما كان الرجل في التفاف النساء حوله ،
واقبالهنّ عليه ، بالذى يضحّ منه السرير ابعد الأنيس ، أو تسأم
منه الحجرات لفقد السмир : فلقد كانت تعدد المرأة بالزيارة في جنح
الليل ، فلا تكاد تصل إلى منزله ، حتى تجد غيرها قد سبقتها اليه ،
فتعود آسفةً حزينة

علام يشكو البين ، وما روّعه نذيرٌ بالفراق إلاّ بشّرّه بشير
بالتلاق ؟ أم كيف يبكيه الوداع ، وهو الذى ما شيّع حبيباً ، إلا
استقبل حبيباً ، ولا غابت عنه شمس ، إلا أشرقت عليه شمس
ألا فليذكر الليل الطويل جميل ، وليحزن من البين المشت
كثير ، ثم ليتركوا ابن أبى ربيعة بين الشموس السواطع ، والبدور
الطوالع ، وإنه من بينهم لسعيد .

لم يكن ابن أبي ربيعة ممن إذا غاب عنه حبيب ، أخذ
 في الحنين إليه ، والبكاء عليه . تلك سبيل الشعراء المفجّعين : الذين
 كانت قلوبهم أعواناً للدهر عليهم ، وكانت نفوسهم أخصاماً لهم .
 أولئك هم المعوزون في عالم المحبة ، والمحرومون في دولة الصباية ، أولئك
 الذين يرون الجمال ظلاً ظليلاً ، ثم لا يستطيعون أن يتفَيَّسوا ماله من
 وارف الظلال ، أولئك الذين يحسدون الغلائل على الأعطاف ، والعقود
 في النحور . وكيف يكون ابن أبي ربيعة مثاهم مسكيناً في شعرد ،
 وما كان مسكيناً في حبه ؟ أم كيف يصف البكاء والمدامع ، وما
 أَلَمَتْ نفسه ، ولا دمعت عينه ؟

بعداً للذلة حتى في الحب ! وتباً للمسكنة حتى في الغرام !
 ولكن عذرناكم جماعة المؤلفين الذين يوجبون الذل في النسيب :
 عذرناكم لأن المحبين جميعاً أذلاء ؛ ولأن أمثال ابن أبي ربيعة في الحب
 قليل . عذرناكم لأننا لانجد مفراً من هذه الذلة ، ولا محيصاً عن هذه
 المسكنة ، ولأن الله في رحمته لم يشأ أن يجعلها ذلة خالصة ، بل
 شابهها بنوع من الحرية ، وقسط من الاختيار ، يتمثل في إقبالنا على
 الحسن ، إقبال السارى على القمر ، والصادى على النهر
 نعم عذرنا المؤلفين في تلك القيود التي وضعوها في النسيب :

لأنهم ظنوا أن الناس جميعاً يعرفون منه ما يعرفون ، ويفهمونه كما يفهمون . ولكن فلنرحم أنفسنا من اتباعهم والسير في آثارهم . ولنجر على سنن الكون وطبائع الحياة ، فيما تصدر من الأحكام ، وما نبدى من الآراء

ألسنا نخطئ من يزعم أن الورد فى عام من الأعوام ، ضعفت شجراته ، وقامت زهراته ، لأن آفة ألت بحديقة من حدائقه ، وطافت بجنة من جناته ؟ بلى إنا نخطئه فى زعمه . لأن ذلك قد يلم بالشجرتين ، فى مغرس واحد ، فتنجو إحداها وتعطب الأخرى . فكيف نقبل إذاً أن نحكم على الشعر قبل أن يوجد الشعراء ، وعلى التشبيب قبل أن يخلق المشببون ؟ ألا إن الحكم الأدبى لا يغنى فيه غير الاستقراء ، وهيهات أن ينفع الاستقراء حيث يكثر الشذوذ . وما دام الأدب من آثار النفوس ، وما دامت النفوس قلما تتشا كل ، فلن يصح إلحاق الأواخر بالأوائل ، ولا الحكم على الأحفاد باتباع الأجداد

ولقد كان يصعب التمييز بين شعراء العرب لو اتبعوا نقادهم فيما يأمرؤن به من توحيد المعانى ، وتحديث القدماء . ولكن يظهر أن النفوس العربية الوثابة ، التى ألقت الحرية ، واعتادت الخروج ، حتى على الملوك والأمراء ، لم تشأ أن تخضع فى جوانح الشعراء لتلك النظم

المشوشة التي وضعها العلماء . وكذلك نهض الأدب مع ارتباك النقد :
فكان الشعراء في واد ، والنقاد في واد .

إذاً فلنترك تلك السبيل ، ولنحكم على الشاعر بما يصح أن يكون من
ناحية ما اختص به ، من لون نفسه ، ووجهة خاطره ، غير ناظرين إلى
تلك الأنواع العامة ، التي اتبعها صاحب الأغاني وغيره ، تلك التي
لا تميز شاعراً عن شاعر ، ولا كاتباً عن كاتب ، ولنجرب ذلك في الحكم
على ابن أبي ربيعة المخزومي . ثم لننزل عند حكم الطبع ، ولننتبع رائد
التفكير .

* *

علمتم أيها السادة أن ابن أبي ربيعة كان شاباً محسوداً للشباب ، وأنه
كان الأمل الحلو ، الذي تتغنى به كل حسناء أوت إلى فراشها ، أو
هبت من منامها ، والأمنية العذبة ، التي تترقق في قلوب العذارى
صاعدةً هابطة : بين اليأس والأمل ، والرجاء والقنوط ، والحديث
المعسول ، تفضي به البنت إلى أمها ، والأخت إلى اختها ، بل كان زهرة
الرجس ، تلك الزهرة المقدسة ، التي كان يرى العرب أن لا بد لمن يرغب
في الحياة أن يشمها مرة كل شهر ، أو مرة كل سنة ، فإن لم يستطع ففي
العمر مرة . وكان ابن أبي ربيعة يعلم ذلك ، ويعلم أنه حديث الفتیان

فى الأندىة السامرة ، والفتىات فى المغانى الزاهرة . نعم كان يعلم من ذلك ما أورثه العزة فى نفسه ، والتهى فى حبه ، فرغب عن قرب الملوك ، وترك زيارة الأمراء ، علماً منه بأن له ملكاً أعظم من ما يملكهم ، وعزاً أروع من عزهم ، إذ كان أمير الحسن فى عصره ، ومليك الحب فى دهره ، فطالما قدمت إليه الحلل الفاخرة ، والطيب النادر العرف ، حباً فى شعره الذى تنبؤه به الغوانى ، وتنفق به الأوانس . إذ كان من دلائل الحسن الذى يعتز به النساء ، ويتيه به الكواعب : أن يسير بيت لابن أبى ربيعة فى وصف امرأة والتشبيب بفتاة .

علم ذلك ابن أبى ربيعة ، وعلم أنه البدر الطالع فى سماء الحسن ، والزهرة الشائقة فى جنة المحبة ، فرأى من الحكمة أن يعمل على ما يزيد حبه رسوخاً ، وشعره نباهة ، فاحتال لذلك بحيل ثلاث



الحيلة الأولى — إبداءه فى وصف النساء : ذاك الوصف الذى ما سمعته امرأة إلا ودّت أن تكون الغرض منه ، والسبب فيه ، والذى ما ذكر فيه اسم امرأة إلا كانت أمل الآمل وأمنية المتمنى ، والذى طالما تسابق النساء إليه ، وتباغضن من جرائه . فكم كان يحسد

المرأة جاراتها ، ويغبطها أترابها ، إذا نوّه بها ابن أبي ربيعة في شعره ،
أو خصها بالنسيب

ويرى الدكتور ضيف أن ابن أبي ربيعة لم يُعرف إلا بالقصص : فلم
يكن من الوصّافين للنساء ، والناعتين المحاسن ، أما أنا فقد رأيت
من حوادث النساء ما يدل على أنه كان لوصفه منزلة عندهن ، وحديث
بينهن ، فقد ذكروا أن عائشة بنت طلحة سهرت ليلة لهم ألمّ بها ،
فقلت : إن ابن أبي ربيعة لجاهل بايلتي هذه حيث يقول :

وأعجبها من عيشها ظل غرفةٍ وريّان ملتف الحقائق أخضرُ
ووالٍ كفأها كل شيء يهملها فليست لشيء آخر الليل تسهرُ
ولقد أشار إلى ذلك بقوله :

ولقد قالت لجاتٍ لها ذات يوم وتعرّت تبتردُ
أكما ينفعتني تبصرني عمرَ كن الله أم لا يقتصد ؟
فتضا حكنَ وقد قلن لها حسنٌ في كل عين من تودّ
حسدًا مُحامنه من أجابها وقديماً كان في الناس الحسد

ورأيت من نظرائه من نوّه بذلك : فقد قال نصيب : ابن أبي ربيعة
أوصفنا لربات الحجال ؛ إلا أنه ينبغي أن نلاحظ أنه لم يكن يصف
النساء إلا بما يزيدهنّ غروراً بشبابهن ، وفتوناً بجمالهن . وبما يشتهين

أن يُعرفن به : من ثَقَلَ الأُرداف ، ورقة الاطراف ، وبياض الترائب
وسواد الذوائب ، إلى غير ذلك مما لو خلا النساء إلى شياطينهنَّ ،
وسكننَّ إلى أمثالهنَّ ، ما خضن في غيره ، ولا تحدثن في سواء
إن المرأة تود كثيراً أن تكون كما قال :

نعم شِعَار الفتى إذا برد اللية - لُ سُحيراً وَقَفَقَف الصَّرْدُ^(١)
كما يود الرجل - لو تغنى الودادة - أن يتناوم في أحضان
امرأة فضفاضة الصدر ، رجراجة الردف

تشفى الضجيع ببارد ذى رونق لو كان فى غَلَسِ الظلام أنارا
ويفوز من هى فى الشتاء شعاره أكرم بها دون الاحاف شعارا
نعم وتود المرأة أن توصف بأنها ضعيفة المشى ، قصيرة الخطو ،
لا لضعف فى جسمها ، بل لثقل فى ردفها ، يحول بينها وبين زيارة
جاراتها . كما قال ابن أبى ربيعة

واتموء تصرعها عجيزتها مشى الضعيف يؤوده البهر^(٢)

حتى لتمتعها أُرْدافها عن أداء الفريضة ، كما قال

تكاد من ثَقَلَ الأُرداف ان نهضت

إلى الصلاة على الأنماط تنبهر

(١) قفقف : ارتعد من البرد - والصرد : من لا يحتمل البرد (٢) البهر : انقطاع

وليت شعري ماهي صلاة تلك الفينانة المكسالة !

واني لأرحم التي يقول فيها

وظلت تهادي ثم تمشي تأوُّداً وتشكو مراراً من قوائها فترا

ثم أكاد... إذا قرأت قوله

إذا ما دعت بالمرط كيما تلفه على الخصر أبدت من روادفها خرا

عفا الله عنك يا ابن أبي ربيعة ، فقد جعلتنا نفرط في القول ،

ونسرف في الحديث ، حتى لنخشى على أنفسنا أن تتمثل بقولك

ولولا أن تعنّفي قريش وقول الناصح الأدنى الشفيق

لقلت إذا التقينا قبليني ولو كنا على ظهر الطريق

وانك لكما قال عبد الملك : أطول قريش صبوة ، وأبطؤها توبة !

وأقول بعد ذلك أيها السادة : إن الرجل كان يختصر أحيانا

في الوصف ، إلا انه كان مع ذلك يصيب الصميم من المعنى المراد .

فأى حسن فاته في قوله

أبت الروادف والثدي لقمصها مس البطون وأن تمس ظهورا

وإذا الرياح مع العشي تناوحت نبهن حاسدة وهجن غيورا

وأى غرض لم يصبه بقوله

ذات حُسنٍ إن تغب شمس الضحى فلنا من وجهها عنها خلف

أجمع الناس على تفضيلها وهواهم في سوى هذا اختلف
 أما تلمحون جماعة المسلمين إذ ذاك ، وهم أحزاب وشيع ،
 يفضل بعضهم علياً ، ويرفع آخرون عمر ، حتى إذا ذكرت هذه
 الغانية ، اتفقوا على حسنها ، وأجمعوا على تفضيلها ؟

فأما إذا عمد إلى الإطناب : فانه الواصف القدير ، الذي يضع
 الكلام في مواضعه ، ويقر المعنى في نصابه ، فيصف المرأة بما تود أن
 توصف به ، وبما يعلم أنه الشَّرْك ينصبه النساء ليصدن به الرجال .
 فيقول مثلاً

خَوْذْ تَضِيءُ ظِلَامَ الْبَيْتِ سَوْرَتَهَا

كما يضيء ظلامَ الحِنْدِسِ الْقَمَرُ^(١)

مَجْدُولَةُ الْخَلْقِ لَمْ تَوْضِعْ مِنْهَا كِبَهَا مِلءُ الْعَنَاقِ أَلُوفٌ جِيْبُهَا عَطِرُ^(٢)

مَمْكُورَةُ السَّافِ مَقْصُومٌ خَلَاخُهَا فَمُشَبَّعٌ نَشَبٌ مِنْهَا وَمُنْكَسِرُ^(٣)

هَيْفَاءُ لَفَاءٌ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا تَكَادُ مِنْ ثِقَلِ الْأَرَادِفِ تَنْبَتِرُ^(٤)

(١) الخود : السانه أو الناعمة - والحمدس بالكسر الليل المظلم

(٢) مجدولة الخلق : محكمة التكوين - والمناك جمع مسكب وهو مجمع رأس

الكشف والعصد (٣) الممكورة هي المدحمة الخلق والمسديرة الساقين

(٤) هيفاء : صامرة البطن رقيقة الخصر - والفاء هي الصمغمة الفخذين

تفترُّ عن واضح الأناب متَّسق عذب المقبل مصقول له أثر^(١)
 كالمسك شيب بذوب النحل يخلطه تلج بصهباء مما عتقت جدر^(٢)
 تلك التي سلبتني العقل وامتنعت والغانيات وإن واصلنا غدر
 قد كنت في معزل عنها فقيضني لالحين حين دعاني للشقا النظر^(٣)
 وله في الأوصاف الظاهرة شعر كثير ، يمتاز عن شعر أسلافه
 برقة الحاشية ، وقرب المأخذ ، وأنه يأتي الى النساء من الناحية
 التي يرضيها ، ويدخل اليهن من الباب الذي يهوينه . وأى امرأة
 لا يطر بها قوله

يا طيب طعم ثناياها وريقتها اذا استقل وعمود الصبح فاعتدلا
 مجاجة المسك لا تقل شائلها تزداد عندي اذا ما حل محلا^(٤)
 لو كان يخبل طيب النشمر ذا كلف لكنت من طيب رباها الذي خبلا^(٥)

* *

تلكم هي الحيلة الاولى : حيلة الوصف السابل ، والنعت الشامل .
 فأما الحيلة الثانية : فهي تلطفه في مخاطبة الغواني ، وتودده اليهن بحسن

(١) الاثر : البحر الذي يكون في الاسنان (٢) شيب : مزح . وجدر امم بلده بن
 حمص وسلمه (٣) الحب بالفتح هو الهلاك (٤) الماحل : من المحل وهو المكر والكبد
 (٥) النشمر : الریح الطيبة أو ريح فم المرأة وأعطافها بعد اليوم - والربا : الرائحة

الحديث . والنساء ضعيفات القلوب ، رقيقات الالكباد ، يسكنن الى
الحديث الممتع ، ويصغين الى الحوار اللطيف . وآكد ما يكون ذلك
اذا شُعِشِع الحديث بشيء من الصبابة ، أو مزج بقسط من الاستعطاف .
وكذلك كانت طريقته في مخاطبة الحسان ، ومحاوره الغواني . من ذلك قوله
يفرح القلب إن رآك وتستعبر عيني إذا أردت ارتحالا
ولئن كان ينفع القرب ما أزعجني فيما أراك إلا خبالا
غير أنني مادم جالسة عندى سألتهو ما لم تريد زبالا
فاذا ما انصرفت لم أزل للعبد ش التذاذا ولا شيء جمالا
أنت عيشى نعم ورؤيتك الخلد وكنت الحديث والأشغالا
حلت دون الفؤاد واختارك القلب وب خللى لك النساء الوصالا
وتخلقت لى خلائق أعطت لك قيادى فما ملكت احتمالا
أيها العاذلى أقل عتابى لم أطع فى وصلها العذالا
ان ماقلت والذى عبت منها لم يزد لها فى العين إلا جلالا
لا تعبها فلن أطيعك فيها لم أجد للوشاة فيها مقالا
فيم بالله تقتلين محباً لك بالوصل مخلصاً بذالا
ولعمرى أنى هممت يقتلى لهما قد قتلت قبلى الرجالا
حدثنى عن هجركم ووصالى أحرماً ترينه أم حالالا
كم تمنيت انى لك بعل آه بل ليتنى بخدك خالا

ومثل هذا الشعر جدير^١ بأن يفتن النساء ، ويخلب الحسان ، وابن
أبى ربيعة يجيد هذا النوع من السحر ، ويحسن هذا الضرب من الحوار .
وأى استدراك أبدع من قوله

سُقِيتُ بوجهك كل أرض جئتُها وبمثل وجهك نَسْتَقِي الأمطارا
وأرى جمالك فوق كل جميلةٍ وجمالُ وجهك يخطف الابصارا
انى رأيتك عادةً مُخصّانةً ريبًا الروادف عَذْبَةً مِبدِشارا^(١)
محطوطة المتنين أكل خلقها مثل السبيكة بضّة معطارا^(٢)
كالشمس تُعجب من رأى ويزينها حَسَبٌ أغر إذا تريد نخارا
ويفوز من هى فى الشتاء شعاره اكرم بها دون اللّحاف شعارا
ويدخل فى هذا الباب ما كان يرسله أحيانا الى الثريا من مثل قوله :

كُتِبَتِ اليكِ من بلدى كتاب موله كِهْدِ
كُتِبَ واكف العيني ن بالحسرات مُنفردِ
يؤرّقه لهيب الشو ق بين السّحر والكبدِ

(١) العادة : المرأة الباعمة اللينة - والمخصّانة : الصامرة البطن - والمبدِشار : الحسنة
الخلق واللون (٢) محطوطة المنيب : ملساء . وفي الأساس : جاريه محطوطة
المتنين كأنما حطّا بالخط وهو ما يحط به الاديم أى يدلك ويصقل . قال الباعة :
محطوطة المتنين غير مفاضة ريبا الروادف بعصه المتجرد

فيمسك قلبه بيده ويمسح عينه بيده
وقد خدعت الثريا بهذه الأبيات فبكت عند قراءتها وأنشدت
بنفسى من لا يستقل بنفسه ومن هو إن لم يحفظ الله ضائع
وانه لعجيب أن يملا الدنيا خفراً باقبال النساء عليه ، وتوددهن
ليه ، ثم يقول بعد ذلك :

لست أرى ذاك ودكم فأودُّه وأكرم إن لاقيت يوماً لكم كلباً
رى أم عبد الله صدت كائننى بما فعل الواشى جنيت لها ذنباً
فلا تسمى من قول من ودَّ أننى وإياك يمسى ما نحل به جدباً
نعم وعجيب أن تقرأ له

سلام عليها ما أحبت سلامنا فان كرهته فالسلام على الأخرى
ثم تراه يتشبه بالعشاق المبعدين فى قوله

فلن تغير ما عهدت وأصبحت صدفت فلا بذل ولا ميسور
لما تساعف باللقاء ولبها فرح بقرب مزارنا مسرور
إذ لا يغيرها الوشاة فودنا صاف نراسل مرةً وزور
لا تأمنن الدهر أنى بعدها إنى لآمن غدرهن نذير
بعد التى أعطتك من أيمانها ما لا يطيق من العهود ثبير

فاذا وذلك كان ظلّ سحابةٍ نفحت به في المعصرات دُبور^(١)
ولكن لا عجب ، فانما يلعب بقلوب النساء ، فان أجدى التيه
والصف ، وإلا فهو جدير بأن يتكلف الحزن ، ويتصنع الخشوع

*
* *

أما الحيلة الثالثة — وهي أدهى الحيل ، وأشدّهن خطراً على عفة
النساء — فهي وصفه لأوقات التلاقى ، وساعات التّدانى . فقد كان
يُغْرِبُ في ذلك إغراباً لم يُسبق به ، ويتهتك تهتكاً لم يعرفه الناس من
قبل ، اللهم إلا شذرات قلائل في شعر امرئ القيس وأمثاله
من الخلفاء

ولولا بعض الرأى فيما ذكرت من الحيلتين السالفتين ، لقلت إن
هذه الحيلة هي كل ما لابن أبي ربيعة من إبداع ، وأشعره من ميزة .
فقد باغ من ذلك مبلغاً عظيماً ، وأثر أثراً غير قليل ، وراه الناس ضاراً
بالأخلاق والآداب ، ومحرضاً على الفسق والفجور ، فحرم أهل الورع
منهم روايته على فتيانهم وفتياتهم لئلا ينكبوا على الفسق انكباباً ،
ولقد مرت ظبية مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب على عبد الله بن مصعب
ومعها دقتر ، فناداهما هذا معك يا ظبية ؟ فقالت شعر ابن أبي ربيعة

يا سيدى . فقال : ويحك تدخلين على النساء بشعر ابن أبى ربيعة ! إن لشعره لموقعا من القلوب ، ومدخلا لطيفا إلى النفوس ، ولو كان شعر يسحر لكان هو . فارجمى به ! وكان ابن جريج يقول : ما دخل على العواتق فى حجالهن ^(١) شئ أضر عليهن من شعر ابن أبى ربيعة . وقال هشام بن عروة : لاترووا فتياتكم شعر عمر ، لايتورطن فى الزنا تورطا !



أقول ذلك أيتها السادة ، لأننى أرى الصفة الغالبة فى شعره إنما هى ذلك القصص الجميل ، والحديث المذب المعسول ، الذى يصف به لياليه البيض الحسان ، مع أحبابه البيض الحسان ، ولأننى رأيت الناس فى عصره ، قد ملئوا دهشة واستغرابا ، من تلك الأحاديث الغادرة الطريفة ، وهاتيك القصص الممتعة الشائقة : فكان من ذلك أن لقيه رجل فى الطواف فقبض على يده وقال : أكل ما قلته فى شعرك فعلته ؟ فقال إليك عنى ! فقال أسألك بالله . فقال نعم وأستغفر الله ! بل وكان

(١) الحجال حيلة بالحر بك وهى القبة وموضع يربى بالنياب والصور للعروس .
والعواتق جمع عاتق وهى الفتاة التى لم تتزوج أو التى بن الادراك والتعيس والتعيس
أن يطول مكث الفتاة فى اهلها بعد ادراكها حتى نخرح من عداد الاسكار

من ذلك أن فُتِنَ الناس بمذهبه في القصص ، وأسلوبه في الحديث ،
فقال الزبير بن بكار : لقد أدركت مشيخةً من قریش لا يزنون بعمر ابن
أبي ربيعة شاعراً من أهل دهره في النسيب ، ويستحسنون منه ما كانوا
يستقبحونه من غيره ، من مدح نفسه ، والتحلّي بمودته

نعم فُتِنَ الناس بمذهبه حتى الشعراء منهم ، فلقد حدثوا أن
الفرزدق قدم المدينة وبها رجلان وُصفا له يقال لأحدهما صُرَيم وللآخر
ابن أسماء ، فقصدهما وكان عندهما قيان ، ثم قال لهما بعد أن سلم عليهما :
من أنتما ؟ فقال أحدهما : أنا فرعون ، وقال الآخر : أنا هامان ، فقال :
فأين منزلكما في النار حتى أقصداكما ؟ فقالا : نحن جيران الفرزدق
الشاعر ! فضحك ونزل ، فسلم عليهما وساماً عليه وتعاشروا مدة ،
ثم سألهما أن يجعلا بينه وبين عمر ابن ربيعة ففعلا ، فلما التقى الشاعران
تحادثا وتناشدا إلى أن أنشد عمر قصيدته التي يقول فيها

فأما التقينا واطمأنت بنا النوى

وغيب عنا من نخاف ونُشفقُ

أخذت بكفى كفها فوضعها على كبدٍ من خشية البين تخفقُ

فلما بلغ قوله

فقمن لىكى يُخليننا فترقرقتُ مدامع عينها وظلت تدفق^(١)
 وقالت أما ترحمنى ! لا تدعننى لَدَى غزلِ جَمِّ الصبابة يخرق^(٢)
 فقلن اسكتى عنا فغير مطاعةٍ نخلُّك منا فاعلمى بك أرفق
 فقالت فلا تبرحن ذا السترِ إئننى

أخاف وربَّ الناس منه وأفرقُ

صاح الفرزدق قائلاً : انت والله يا أبا الخطاب أغزل الناس ! لا يحسن
 الشعراء والله أن يقولوا مثل هذا الشعر ولا أن يرقوا مثل هذه الرقية
 وكذلك فتن جميل بشعر ابن أبى ربيعة فقد تناشدا الشعر ، فانشد
 جميل قصيدته التى يقول فيها

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلى

بثينةُ أو أبدتُ لنا جانب البخل

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلايها لما فات من عقلى
 يقولون مهلاً يا جميلُ وإئننى لأقسم مالى عن بثينة من مهل
 أصبراً وقبل اليوم كان أوانه ؟

أم أخشى وقبل اليوم هددت بالقتل

(١) يخليننا : يجملسا في خلوة (٢) يخرق من الحرق بالصم وهو الحق

أيتُ مع الهلاك ضيفاً لأهلها

وأهلى قريبٌ مُوسِمون ذوو فضل^(١)

فياويح نفسى حسبُ نفسى الذى بها

وياويح أهلى ما أصيب به أهلى !

خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

ثم أنشد ابن أبي ربيعة قوله من قصيدة

جرى ناصحٌ بالود بينى وبينها فقرَ بنى يوم الحصاب الى قتلى^(٢)

فطارت بحد من فؤادى وقارنت قرينتها حبل الصفاء الى حبل

فما أنسَ ملاً شياءَ لأنس موقفى وموقفها يوماً بقارعة النخل

فلما تواقفنا عرفت الذى بها كمثل الذى بى حذوك للفعل بالنعل

ويقتصر أكثر الرواة على البيت الاخير شاهداً على إعجاب جميل

به حين قال : هيهات يا أبا الخطاب ! لا أقول مثل هذا سجيىس اللىالى ،

والله ما خاطب النساء مخاطبتك أحد ! وأرى ان هذا ليس بيت القصيد،

ولا هذا المعنى بالذى يستفز شاعراً كجميل . بل هو معنى عادى سبقه

الشعراء به ، فقد قال بعض الجاهليين :

(١) الهلاك : الصعالك الذين يعيسون من معروف الموسرين

(٢) الحصاب كالخصب : موضع رمى الحمار

ولما أن رأيت بنى حِيٍّ عرفت شِنَاءتى فيهم ووِترى
وأرى أن الذى لفت نظر جميل ، وجعله يحسد ابن أبى ربيعة على
شعره ، انما هو قصصه الشائق ، وحديثه العذب . وذلك قوله :

فماجت بأمثال الظباء نواعمٍ الى موقف بين الحجون الى النخل
فقلت لأتراب لها شبه الدُمى أظن التمنى والوقوف على شغلى
وقالت لهن ارجعن شيئاً لعائنا نعاب هذا أو يراجع فى وصل
فقلن لها هذا عِشائى واهلنا قريب أئماً تسأى مركب البغل ؟
فقلت فما شئتُنَّ قان لها انزلى فلأرض خير من وقوف على رَحَلٍ
نجومٌ درارىٌّ تَكْنَفُن صورة من البدر وافت غير هُوجٍ ولا عجلٍ
وقن اليها كالدُمى فاكتنفنها وكلٌّ يفدى بالمودة والأهل
فسامت واستأنست خيفة أن يرى عدوٌّ مُقامى أو يرى كالشحٍ فعلى
فقلت وأرُخت جانب الستر انما معى فتحدثت غير ذى رِقبةٍ أهلى
فقلت لها مابى لهم من ترُقُبٍ ولكن سرى ليس يحمله مثلى^(١)
ثم يقول عن أترابها .

فلما اقتصرنا دونهن حديثنا وهن طبيباتٌ بحاجة ذى الشكل^(٢)

(١) كان القدماء يرون هذا اليب أجمل ما قيل فى حفظ السر ونحسبه كذلك

(٢) الشكل بالكسر العزل

عرفن الذى تهوى فقلن لها ائذني نطفُ ساعةً فى برْد ليلٍ وفى سهل
فقلت فلا تلبثنَ قلن تحدّثي أتيناكِ وانسبن انسياب مها الرَّمَل
وقن وقد أفهمن ذا اللب انما أتين الذى يأتين من ذاك من أجلى
وباتت تمجُّ المسك فى فى غادة^١ بعيدة مهوى القرط صامئة الحجل^(١)
تقلب عَيْنِي ظبيةً ترتعي الخلا

وتحنو على رخص الشوى أغيد طفل^(٢)
وتفتر عن كالأقحوان بروضةٍ جاته الصبا والمستهل من الوبل^(٣)
أهيم بها فى كل مُسَى ومُصبح وأكثردعواها اذا خدرت رجلى
وهنا قال جميل : هيهات يا أبا الخطاب : لا أقول والله مثل هذا
سجيس الليالى . والله ما خاطب النساء مخاطبتك أحد

* * *

ذكرت ما تقدم أيها السادة : تمهيداً للحكم على شعر ابن أبى ربيعة ،
وبياناً لا بداعه الذى عُرف به . فإني رأيت الادباء السالفين انما ينسبون
اليه هذه البدعة ، ويسندون اليه هذا الجرم : وهو تزوين الفسق وتلطيفه ،

(١) بعد مهوى القرط كمانه عن طول العنق ، والقرط بالصم حله يعاقى الاذن
وتسمى السف وسمون الحجل كمانه عن بخاصه الساق والحجل الحلال

(٢) رخص السوى : لبس الاطراف (٣) الوبل : المطر

وتسهيّله لدى النفوس الأبية ، وتقريبه الى القلوب العَصِيَّة . ولقد ذُكر
شعره مع شعر الحارث بن خالد في مجلس ابن أبي عتيق ففضل بعض
الحاضرين شعر الحارث فقال ابن أبي عتيق : بعضَ قولك يا أخى ! فانه
مأعصى الله عز وجل بشعر أكثر مما عصى بشعر ابن أبي ربيعة . يريد
انه أبصر بمواقع الاهواء ، ومواطن التأثير

وإذ كان المؤلفون في الأدب لم يشرحوا طريقة ابن أبي ربيعة
في القصص ، وكان منهجه فيه جديراً بالبيان والإيضاح ؛ فقد
أردت أن أبين وجه الفتنة فيه ، وموضع الحسن منه ، حتى يتبين
لكم ما ذهبت اليه : من أنه في شعره محتمل ، وأنه بالنسب صائد .
وحسبكم هذا المثال . قال :

راح سحبي ولم أحيّ النّوّارا وقليلٌ لو عرّجوا أن تُزارا
ثم إمّا يَسُرون من آخر الّلي ل وإما يعجلون ابتكارا
هنا يتمثل لكم : وهو خافت الصوت ، خافق القلب ،

لا يدرى — وهو بين اليأس والأمل ، والرجاء والقنوط —
أيلتمس الحيلة إلى لقاءها ، ويبتغى الوسيلة إلى وصالها ، أم ينصرف
وهو شحبيّ ، ويرتمل وهو حزين

ثم بين ماتم له بقوله :

ولقد قلت ليلة البين إذ جدّ
خليل يهوى هوانا مواتٍ
يا خليل اربعنْ على وعينا
ههنا فاحبس البعيرين واحذر
اننى زائرٌ قُريبة قد يه
فما كان جوابه ؟

قال فافعل لا يمنعك مكانى
والتمس ناصحاً قريباً من الورى
فكان ماذا ؟

فبعثنا مجرباً ساكن الرية
فما الذى صنع ؟

فأتاها فقال ميعادك السرّ
وكيف وصلت ؟

فكمنّا حتى إذا فقد الصو
قلت لما بدت لصحبي انى
ت دجى المظلم البهيم فخارا
أرتجى عندها لدينى يسارا

ثم أقبلت رافع الذيل أخفى الـ وطء أخشى العيون والنظارا
فما الذى كان ؟

فالتقينا فرحبت حين ساء
ثم قالت عند العتاب رأينا
قلت كلا لاه ابن عمك بل خف
فجعلنا الصدود لما خشيننا
وركبنا حالا لتكذب عنا
واقصرت الحديث دون الذى قد
ليس كالعهد إذ عهدت ولكن
فلذاك الاعراض عنك وما آ
ما أبالى إذا النوى قربتكم
والليالى إذا نأيت طوال
فعرفت القبول منها لعذرى
إذ رأيتنى منها أريد اعتذارا

(١) مار الدمع : جرى وسال (٢) الارورار : الاعراض (٣) لاه ابن عمك :
أى لله ابن عمك ، والاعمار جمع عمر بضم العين وفتحها مع سكون الميم وهو العر
الجاهل الذى لم يجرب الامور (٤) ليس كالعهد إذ عهدت : يريد أن سلام الهوى
تقضت أنامه فعصفت به الوشايات والنائم

ثم ماذا؟

ثم لانت وساحت بعد منع
فتناولتها فمالت كغصن
وأذاقت بعد العلاج لذيذاً
ثم ماذا يا خبيث؟

ثم كانت دون اللحاف لمشفو
واشتكت شدة الازار من البه
حبذا رجعها إليها يديها
ف معى بها مشوق شعارا
ر وألقت عنها لدى الحمارا^(٢)
في يدى درعها تحل الازارا
قاتلك الله!! ثم ماذا؟

ثم قالت وبان ضوء من الصب
يا ابن عمى فدتك نفسى إلى
فأى فتاة تسمع هذا القصص، ثم لا تبحث عن واضعه، وهو كما
ترون يرد شرّة الشباب جذعة؟

ومن عساها تسمع قوله:

واشتكت شدة الازار من البه
ر وألقت عنها لدى الحمارا

(١) المراد بالعلاج هنا ما كان من المحاولة في سبيل الايناس

(٢) البهر بصم الباء انقطاع النفس من الاعياء

حَبِّذَا رَجَعُهَا إِلَيْهَا يَدِيهَا فِي يَدَيِ دَرْعِهَا تَحُلُّ الْأَزَارَا
ثُمَّ لَا تَنْبَهِرُ مِنْهَا الْأَنْفَاسُ ، وَتَنْفُكُ مِنْهَا الْأَزْرَارُ ؟ !

هذه إحدى قصائد القصصية ، وعلى نخطها طبع أغلب شعراء ،
وهي كما ترون من موجبات الفتنة ، وموقظات الشهوات !

وكذلك كان الناس يفهمون في شخص ابن أبي ربيعة محرضاً على
الفسق مزيناً للفجور ، عاقاً للفضيلة ، باراً بالذيلة ، وكذلك كان شعره
عفا الله عنه . وأى امرأه لا تفتنها تلك الأحاديث الفاتنة ، وهاتيك
القصص الخالبة ؟

أليس هو الذي يقول ؟

وَنَاهِدَةُ الشُّدَّيْنِ قُلْتُ لَهَا أَتَكْبِي عَلَى الرَّمْلِ مِنْ جَبَانَةٍ لَمْ تَوْسَدِ^(١)
فَقَالَتْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ أَمْرُكَ طَاعَةٌ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ كَلَّفْتُ مَا لَمْ أُعَوِّدِ

فَلَمَّا دَنَا الْإِصْبَاحُ قَالَتْ فَضَحَّتْنِي

فَقُمُ غَيْرَ مَطْرُودٍ وَإِنْ شِئْتُ فَازْدِدِ

فَمَا أزددت منها غير مصٍّ لثاتها وتقبيل فيها والحديث المردّد
تزدت منها واتّشحت بمرطها وقلت لعيني أسفحاً الدمع من غد
فقامت تُعْفَى بالرداء مكانها وتطلب شذراً من جمان مبدّد

(١) الجبانه : الصحراء ، وتسمى المقابر جبانه لأنها أكثر ما تكون في الغلاء

ومهما يكن من شيء فإن الرجل لم يشأ أن تُختم حياته بالمجون ، فما
كاد يتجاوز الأربعين من عمره حتى أقبل على نفسه بحاسبها وعلى ربه
يستغفره : فهجر الشعر على حبه ، وألف الناسك على بغضه ، لولا تلك
الذكرى الموجهة التي كانت تعاوده من حين إلى حين ، وذلك الشوق
الدخيل الذي كان يهيج في الفينة بعد الفينة ، فقد كان يحنُّ إلى شبابه
حنيناً موحجاً ، ويتطأع إلى ماضيه تطأع اليأس المتلهف ، فيمدُّ يديه
علاه يرجع الدهر ، ويافت الزمن ، ولكن هيهات هيهات ، فقد خانه
الأمَل ، وخلاه الشباب ، وأخذ الشيب في هدد تلك القوى ، وهدم
ذلك الصرح ، وأخذ النساء يتراجعن ضاحكاتٍ منه ، ساخرات به ،
وبدأ الدهر يبني دولة جديدة للحب ، ويشيد حصناً ثانياً للغرام ،
فأنشأ فتياناً غير الفتیان ، وعذارى غير العذارى ، وأصبح ابن أبي ربيعة
غريباً والمشيب غربة ، وقصياً والشيب شبه النوى ، وعاد الناس
يقولون : هذا هو ابن أبي ربيعة الذي كانت تمعضه النساء وهو بالبيت
يطوف ، وهذه هي الثريا التي كانت تحسدها الازهار في الرياض
والنجوم في السماء ، وهذه معالم ابن أبي ربيعة ومعاهد شبابه ، قد
عادت صمماً خوالد ما يبين كلامها

أقول أيها السادة ان ابن أبي ربيعة أخذ يحنُّ إلى أيامه الخوالي ،

وليليه السوالف ، ويتشوّق إلى الشباب الراحل ، والنعيم الزاهب
 ويزيده كلفاً وأسفاً أن يرى الشباب في صعود نحو المستقبل المشرق ،
 ويرى نفسه في هبوط إلى الماضي المظلم . فالقى فتى جميلاً أو شاباً وسيماً
 إلا أرسل بصره إليه يتأمل شكله ، ويمجّتل حسنه ، ثم يمد يده إلى
 شعره فيعبت به ، وإلى ذؤابته فيرسلها ، ثم ينتحب ويقول :
 واشباباه ! واشباباه !

حتى لقد مرّ به فتیان وهو بالحجر یصلی فلم یکد یفرغ من
 صلاته حتى لحق بهما فعرّفهما ثم قال : یا ابني أخی ! لقد کنت موکلاً
 بالجمال أتبعه ، وإنی رأیتكما فراقنی حسنكما وجمالكما ، فاستمتعا
 بشبابكما قبل أن تندما علیه ! !

نعم أفلح ابن أبي ربيعة عن غيّه وأصبح يستقبح من الفتیان
 وهو شیخ ما لم یکن یستقبحه من نفسه وهو فتی . فما طاف بالبيت
 إلا تأمل علّه یجد فتی یحدث فتاة فیمنّها ، أو امرأة تتبع رجلاً
 فیردعها ! ولقد کان من أمره أن نظر إلى رجل یکلم امرأه فی
 الطواف فعاب ذلك علیه وأنکره فقال له : انها ابنة عمی ، فقال
 ذلك أشنع ! فقال إنی خطبتها إلى عمی فأبی علیّ إلا بصدّاق
 لا أطيعه ، ثم شکا إليه من حبه لها وکلفه بها ما جعله یسير معه إلى

عمه يسترضيه . فقال له إنه ممملق وليس له ما يصلح به أمره
فقال له عمر : وم الذى تريده منه ؟ فقال له أربعمائة دينار .
فقال له : هي على فزوجه . ففعل

قالوا وكان عمر حاف لا يقول بيتاً من الشعر إلا أعتق رقبة
فانصرف يومئذ وهو حزين ، فجملت جارية له تكلمه فلا
يرد عليها جواباً ، فقالت له : إن لك لأمرأ ، وتريد أن تقول
شعراً ، فقال

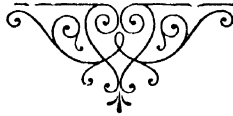
تقول وليدتي لما رأني
طربتُ وكنت قد أقصرت حيناً
أراك اليومَ قد أحدثت شوقاً
وهاج لك الهوى داءً دفيناً
وكنت زعمت أنك ذو عزاء
إذا ما شئت فارقت القرينا
بربك هل أذاك لها رسولٌ
فشافك أم لقيت لها خدينا
فقلت شكا إلى أخٍ محبٍّ كبعض زماننا إذ تعلمينا

وقصّ عليّ ما يلقى بهندٍ فذكرَ بعض ما كنا نسينا
و ذو الشوق القديم وإن تعزّى

مشوقٌ حين يلقى العاشقينا
وكم من مُخلة أعرضت عنها لغيرِ قلبي وكنتم بها ضنينا
أردت بعادها فصددت عنها وإن جنّ الفؤاد بها جنونا
ثم دعا تسعة من رقيقه فاعتقهم ، لكل بيت واحد

* * *

فسلام عليه يوم قال الشعر ! وسلام عليه يوم ودّعه ! وعفا
الله عن من فتن بشعره فأجاب داعي الشباب ! !



أخبار الملاح

== تمهيد ==

أيها القارئ !

قد رأيت كيف كان عمر ابن أبي ربيعة يحب ، وكيف كان يسلك مذاهب النسب ، فانظر الآن كيف كان يتصيد النساء ، وكيف كانت تعيش معشوقاته في ذلك الزمان

وإني لأرى من الخير أن أبين لك قبل كل شيء ، كيف فكرت في كتابة هذه الفصول ، فقد أخشى أن ترميني بالاسراف في التغنى بالحب ، والتحدث عن الجمال ، واني بذلك لمتهم ظنين !

ألا فلتعلم أن الناس يكثرون في هذا العصر من التجنى على الآداب العربية ، ويتهمونها بالفقر ، والعقم ، والجفاف ، والعجز عن مواتاة الغرائز ، والشهوات ، والعقول . وساعدهم على ترديد هذه النغمة المنكرة ما تقدمه الاداب الأجنبية كل يوم من الأدلة

والبراهين على صلاحيتها لتغذية المشاعر ، والعواطف ، والأحاسيس
 وإن قليلاً من الانصاف لكافٍ للاقتناع بأن أدلة الاتهام
 قوية ، وأن الآداب العربية تبدو ضعيفة ضئيلةً بجانب ذلك الدوى
 الهائل الذى تدمغنا به الآداب الغربية فى كل يوم . فهذه كتب
 المختارات والمحفوظات والدرس التى يتناولها طلبة المدارس الابتدائية
 والثانوية وبعض المدارس العالية تُعدُّ من الكتب الجافة المقفرة التى
 تخاطب على الأغلب ناحية واحدة من نواحي الطبع والادراك .

والطائفة المستنيرة من مقتضى اللغة العربية وأساتذتها تعلم
 ذلك حق العلم ، ولكنها تكتفى بالألم الصامت ترسله فى خفية
 واستحياء ، كلما رأت انصراف الطلبة عن آداب لغتهم وفناءهم فى آداب
 الفرنسيين والانجليز . وفى الحق أن المادة التى تقدم لطلبة المدارس
 فى اللغة والأدب لا تُمتع القلب ، ولا توقظُ الحس ، ولا تثير الوجدان ،
 فهى فى الأكثر طائفة من العظات والأوصاف تتحدث عن معانٍ
 موضعية طوتها الأيام ، وأتت على رسومها الليالى ، يدرسها جماعة
 يعيشون فى ظلمات القرون الأولى غير شاعرين بما أبدع العقل فى هذا

الجيل ، إن لم يكونوا أمساخاً خلفها عصر ما قبل التاريخ
 ولقد نارت فى الصيف الماضى ضجة عن تقدُّم النثر وتحالف الشعر

وكان من رأى أستاذنا الدكتور طه حسين أن النثر تقدم لأن الكتاب يحيون حياة عقلية ، وأن الشعر تأخر لأن الشعراء كسالى مُتبلِّدون . وعندى أن النثر والشعر فى التأخر سواء ، ولا عبرة بهذه الثروة التى يطالعنا بها الكتاب فى كل صباح ، فهى على وفرتها تكريرٌ وترديدٌ لأفكار الفرنسيين والانجليز والألمان ، وليس فيها شخصية ولا ذاتية تحدث القارئ عن حياة أولئك الكتاب . وإن شعراءنا لأدُلُّ من كتبنا على أنفسهم ، فانهم حين غفلوا عن أشعار الأمم الأجنبية فرغوا لعواطفهم فصاغوها خالصة من المحاكاة والتقليد .

بغض النظر عن متابعتهم لشعراء العرب فى المرمى والأسلوب

ولننتهز هذه الفرصة لنعلن أنه لا حياة للآداب العربية مادام كتابها وشعراؤها وخطباؤها لا يرون المرأة فى حرية وصراحة ، ولا يتأثرون بجبروتها فى ميدان الحياة

وما دام شباننا يسمعون عن المرأة كما يسمعون عن الغول والعنقاء ولا يرونها حين يرونها إلا قَدرةً دنسة فى بيوت الرِّجس والبغاء ، فهيهات أن تتفتح أذهانهم ، أو تزهر قرائحهم ، أو تظهر على آثارهم الأدبية مَسحة التيقظ والتفكير . وتلك الرؤوس التى تتولى هداية الشرق فى هذا العصر لا تدرى مع الأسف الشديد أن الصلة وثيقة بين

الأدب وبين الحياة ، إن لم يكن الأدب روح الحياة ، وأنه لا أمل
 فى أن نرى لكاتب قصة جيدة مادام الكاتب بعيدين كل البعد عن
 المرأة التى تلون الوجود بشتى الألوان : فتُحييه تارةً جحيماً يرمى بالفزع
 والهول ، ثم تعيده حين تشاء جنّة وارفة الظلال . وكيف تكون لنا
 آداب قوية تمثل فضائلنا ورذائلنا ، وحلمنا وجهاننا ، وطيشنا ورزانتنا ،
 وعقلنا وجنوننا ، ونحن نحصر على الطيبة والاستقامة فى غير فهم ولا
 تبصّر . أسوةً بغُلف القلوب من سماسة الأديان وأدعياء الأخلاق !!
 إنه لأحياة الآداب إلا إذا شغلتنا بأنفسنا ، وحدثتنا عن
 مطامعنا ، وأهوائنا ، وعيوبنا ، ومظانّ الخير فينا ، وأرتنا كيف نُحب
 وكيف نُبغض ، ومتى نُقدّم ، ومتى نُحجّم ، وعلمتنا كيف نجدّ ،
 وكيف نلهو ، ومتى نقسو ، ومتى نلين . أما الأدب الذى يصدر عن
 رجل مشعوذ معتوه ، كلُّ إحساس فى رأيه إثم ، وكل إدراكٍ عنده
 فسوق ، فهو أدب ميت سخيّف لا يقوى به عقل ، ولا يسمو به خيال
 وإبنى لأخشى إن استمر أساتذة الأدب على الاكتفاء بلون
 واحد يقدمونه إلى الطلبة فى كل يوم : أخشى إن استمروا على ذلك
 أن يصارحهم الطلبة بالقطيعة والفراق !

وبعدُ فهل يسمح القارئ بأن نتجنب تلك الخطئة العوجاء ،
ونقبل على الأدب نتذوق أطايبه ، ونعرف مُحلوه ومُرده ، وحُزونه
وسُهوله ، كما كان يفعل القدماء من رجال اللغة العربية ، وكما يفعل أهل
الغرب في أدبهم الحديث ؟

إذا سمح القارئ بذلك شرعنا في بيان تلك الناحية الطريفة من
حياة عمر بن أبي ربيعة : وهي تصيُّده للنساء ، وأخبار من كان يعرف
من الملاح . ومعاذ الله أن نريد بهذا البحث أن تشيع الفاحشة ، أو تحلو
في أعين الناس مذاهب الفجور

إنما نريد أن نُقبل عامدين على الجوانب المرححة التي تزخر بها
الآداب العربية حتى لا يسهُل رميُّها بالفقر والجفاف ، كلما حات هذه
الفرية لخصومها الجاهلين

نريد أن يكون لنا في دراسة الشعراء العشاق نصيبٌ ضئيلٌ
من الحرية التي ينعم بها الكتاب الفرنسيون وهم يدرسون ميسيه ،
والكتاب الانجليز وهم يدرسون بيرون ، والكتاب الألمان وهم
يدرسون جوت .

وإننا لمكتفون في الحديث عن معشوقات عمر بن أبي ربيعة بما
استباحه المؤلفون القدماء أمثال صاحب الأغاني ، وصاحب الامالي ،

وصاحب زهر الآداب ، ومن إليهم ممن ترجموا هذا الشاعر الغزل ،
وتحدثوا عن كانيهوى من ربات الحجال ^(١)

ولن يكون ذلك من اللهو الصّرف ، فهو على طرافته رّجّد في
جد ، إذ يكشف لنا عن نفسية ذلك الشاعر ، ويُرينا الفتن التي
أرهفت إحساسه ، وألهبت روحه ، حتى أغرم بالحسن ، وحبس شعره
على الحسان .

وإن كان من موجبات الحزن أن انصرف كُتّاب العرب عن تدوين
الحوادث اليومية كما يفعل أصحاب المذكرات في الغرب ، ولم يعد في
الإمكان تصوير معشوقات عمر بن أبي ربيعة كما صوّرت مثلاً خليلات
ألفريد دي ميسه ، فانا نحمد الله على أن وفق أبا الفرج الاصبهاني إلى
الإفاضة في أخبار تلك الحور العين ، إفاضة شائقة ممتعة ، لا ينقصها غير
الترتيب والتبويب ، إذ ذكرها في أغانيه مبدّدة مبعثرة في أثناء الحديث
عن كبار المغنين وفحول الشعراء



(١) أهم مرجع لترجمه عمر بن أبي ربيعة وبرجمه معسوفاته هو كتاب الأغانى . وعليه
عولنا في جمع أحارده مع أولئك الملاح . وكسراً ما سكتى عبارته حين نراها وافيه بما
نريد ، فلنسجل ذلك ها اعتراها بفصل ذلك المؤلف الذى قل بطرده من القدماء
والمحدثين . ولينا نطهر بكاتب مثله يدون أخبار الكُتّاب والشعراء في العصر الحديث

وقد يكون من الحزم أن نلفت نظر القارئ إلى أننا لانضمن صحة كل ما نقل عن ابن أبي ربيعة ومعشوقاته من مختلف الاخبار، فتلك شخصيات جذابة محبوبة، لا يبعد أن يكون الرواة أضافوا اليها ما شاءت أهواء السامرين من طريف الاحاديث .

فلنقبل ما نُقل إلينا في جملة، مكتفين بهذه الملاحظة التي لم يكن منها بُدّ ، ولنترك للقارئ الحرية في أن يناقش ما شاء من تلك الاقاصيص ، ثم لنمض في الكلام عن أولئك الحسان ، راضين بما حكاه الواقع ، أو حاكه الخيال !



أيام الطواف

لا يدهشك أيها القارئ أن نضع لعبث ابن أبي ربيعة هذا
العنوان الغريب ، فقد كان يتخذ أيام الحج موسماً للهو والمجون ،
وإنه ليقول

أيها الراح المجدُّ ابتكاراً قد قضى من تهامة الأوطاراً

من يكن قلبه صحيحاً سليماً ففؤادى بالخيف أمسى مُمَاراً

ليت ذا الدهر كان حتماً علينا كلَّ يومين حجةً واعتماراً^(١)

وقد أنشد ابن أبي عتيق هذا الشعر فقال له : الله أرحم بعباده أن

يجعل عليهم ما سألناه ليتَّمَّ لك فسقك ! وأنشده عبد الله بن عمر فقال :

يا ابن أخى ! أما اتقيت الله حيث تقول :

ليت ذا الدهر كان حتماً علينا كلَّ يومين حجةً واعتماراً

فقال له عمر : بأبي أنت وأُمى ! إني وضعت ليتا حيث لا تغنى .

بيد أنه لا يصح لنا أن ننسى أنه لم يكن يفوز في كل مرة بما ينبغي

(١) قال عمر هذا الشعر في أم عمرو بنت مروان وكانت بعث الله بألف دينار

ورحته أن لا يدكرها في شعره ، فقلها واشترى بها طيباً فأهداه إليها فردته . وقال

إذاً والله أهله الناس . فكون مسهوراً ، فقلته

شيطانه من زيارة تلك المناسك والتعرض لكرائم النساء . فقد روى أن امرأة جميلة قدمت مكة ، فنظر اليها وهو يطوف فوقعت في قلبه ، فدنا منها فكلّمها فلم تلتفت إليه . فلما كان في الليلة الثانية جعل يطلبها حتى أصابها ، فقالت له : اليك عنى يا هذا فانك في حرم الله وفي أيام عظيمة الحرمة ! فألحّ عليها يكلّمها حتى خافت أن يشهرّها . فلما كانت الليلة الاخرى قالت لأخيها : أخرج معى فأرني المناسك فاني لست أعرفها ، فأقبلت وهو معها ، فلما رآها عمر أراد أن يعرض لها ، فنظر إلى أخيها معها فعدل عنها ، فتمثّلت المرأة بقول النابغة .

تعدو الذئاب على من لا كلاب له * وتتقى صولة المستأسد الحامى
وقد قال المنصور حين حدث بهذا الخبر : ودِدْتُ أنه لم تبق فتاة من قریش في خدرها إلا سمعت بهذا الحديث



وقد وقع له مثل هذا مع أبى الاسود الدؤلى إذ حجّ ومعه امرأته ، وكانت جميلة ، فبينما هى تطوف بالبیت إذ عرض لها ، فأتت أبا الاسود فأخبرته ، فأتاه أبو الاسود فعاتبه . فقال له عمر : ما فعلت شيئا . فلما عادت إلى المسجد عاد فكلّمها . فأخبرت أبا الاسود فأتاه فى المسجد وهو مع قوم جالس فقال له :

وإني لثنييني عن الجهل والخنأ وعن شتم أقوام خلأئقُ أربعُ
 حياء وإسلامٌ وبُقيا وأنى كريمٌ ومثلى قد يضمر وينفع^(١)
 فشتان ما بينى وبينك اننى على كل حال أستقيم وتظلم^(٢)
 فقال له عمر : لست أعود يا عم لكلامها بعد هذا اليوم . ثم عاود
 فكلامها ، فأتت أبا الاسود فأخبرته ، فجاء اليه فقال له :

أنت الفتى وابن الفتى وأخو الفتى وسيدنا لولا خلأئقُ أربعُ
 نكولٌ عن الجأى وقرب من الخنا

وبخلٌ عن الجدوى وأنتك تُبّع^(٣)

ثم خرجت وخرج معها أبو الاسود مشتملا على سيف . فلما
 رأها عمر أعرض عنها ، فتمثل أبو الاسود

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى صولة المستأسد الحامى
 وإن له لحوادث أشنع من هاتين فى الضياع ، فقد رأى امرأة من
 العراق وهو يطوف فأعجبه جمالها ، فمشى معها حتى عرف موضعها ، ثم
 أتأها فحادثها وناشدها وناشدته ، وخطبها فقالت : ان هذا لا يصلح
 ها هنا . ولكن إن جئتني إلى بلدى وخطبتني إلى أهلى تزوجتك . فلما

(١) القما : هى الرحمة والاشفاق (٢) الظلع : العرح والعمرى فى المشى

(٣) التبّع والتبّع هو الذى يجدد فى طلب النساء

ارتحلوا جاء إلى صديق له من بني سهم وقال له : إن لي اليك حاجة أريد أن تساعدني عليها . فقال له : نعم ، فأخذ بيده ولم يذكر له ما هي . ثم أتى منزله فركب نجيباً له وأركبه نجيباً آخر ، وأخذ معه ما يصلحه ، وسارا لايشك السهمي في أنه يريد سفر يوم أو يومين ، فما زال يسرع حتى لحق بالرفقة ، ثم سار بسيرهم يحدث المرأة طول طريقه ويسايرها ، وينزل عندها إذا نزلت حتى ورد العراق . فاقام أياماً ثم راسلها يتنجزها وعدها ، فأعلمته أنها كانت متزوجة ابن عم لها وولدت منه أولاداً ثم مات وأوصى بهم وبماله اليها ما لم تتزوج ، وأنها تخاف فرقة أولادها وزوال النعمة ، وبعثت اليه بخمسة آلاف درهم واعتذرت ، فردها عليها ورحل إلى مكة ، وقال في ذلك :

نام صبحي ولم أنم من خيال بنا ألم
طاف بالرَّكب مَوْهِنًا بين خاخٍ إلى إضَمٍّ (١)
ثم نهت صاحبًا طيّب الخيم والشيَم (٢)
أريحياً مُساعدًا غير نكس ولا بَرَم (٣)

(١) حاح : موضع بين الحرمين - واصم : واد بجبل تهامة . وهو الوادي الذي فيه المديه (٢) الخيم بالكسر السجية - والسيم جمع شيمة وهي الطيبة (٣) النكس بالكسر الضعيف - والبرم بفتح الهمزة والياء لا يفتح فيه

قات يا عمرُ وشفّنى لاعجُ الحب والألم
إيتِ هنداً فقل لها ليلة الخيف ذى السّأم^(١)



ويظهر أن الخيبة التي رمتها بها تلك السيدة العراقية جعلته يتردد في متابعة الملاح إلى العراق . فقد تشبّهت فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية أن يتبعها ليتزوجها هناك ، ولم نعلم أنه هسّ لتلبية ذلك النداء . ومن قصته معها أنها حجت فراسلها ووعدّها أن يتلقاها مساء الغد ، وجعل الآية بينه وبينها أن تسمع ناشداً ينشد بغلته في زقاق الحاج ، ان لم يمكنه أن يرسل رسولا ، يُعلمها بمصيره إلى المكان الذي وعدّها .

فلما تلاقيا وتحادثا خطبها فقالت : أما هاهنا فلا سبيل إلى ذلك ، ولكن إن قدمت إلى بلدى خاطبا تزوجتك . وقد قال في وصف ما كان بينهما من التراسل والتواعد والتّلاق :
تشط غداً دار جيراننا ولدارُ بعد غدٍ أبعدُ

إذا سلكت غمر ذى كنفه^(١) مع الركب قصد لها الفرق^(١)
 عراقية^٢ وتهامى الهوى يغور بمكة أو ينجد^(٢)
 وحث الحداة بها غيرها سراعاً إذا ما وئت تطرد^(٣)
 هنالك إماماً تعزى الفؤاد وإما على إثرها تكمد^٤
 وليست ببدع إذا دارها نأت والعزاء إذا أجلد^٥
 صرمت وواسلت حتى علمت أين المصادر والمورد^٦
 وجربت من ذاك حتى عرف رءى ما أتوقى وما أعمد^٧
 دعانى من بعد شيب القذا لرءى له عنق أغيد^(٨)
 وعين تصابى وتدعو الفتى لما تركه للفتى أرشد^٩
 فتلك التى شيعتها الفتاة إلى الحدر قابى بها مقصد^{١٠}
 تقول وقد جد من بينها غداة غدٍ عاجل مؤفد^{١١}
 ألسنت مشيعنا ليلة نقضى اللبانة أو نعهد^{١٢}
 فقات بلى قل عندى لكم كلال المطى إذا تجهد^{١٣}

(١) غمر ذى كنفه : موضع وراء وحررة ناله ومن مكة مسيرد يومئذ - الفرق
 بجمان فى السماء من نجوم الدب الأصغر وهى فى الشمال . وقال لها الفرق بالافراد
 والفرقدان بالنسبة . ومعنى أن الفرق قصد لها أنها دجته له . لأن العراوى فى الشمال الشرقي
 من مكة (٢) يغور : بأنى العور وهو المظمش من الارض - وسجد : بأنى السجد
 وهو ما غلط من الارض واربع (٣) الحداة : سافرة الليل الذين يسعون لها
 ليلسطة فى السبر - وتطرد : يساق (٤) الفدال كسحاب حمام مؤخر الرأس

فعودى إليها فنولى لها مساءً غدٍ لكم موعد
 وآية ذاك أن تسمى إذا جئتم ناشداً ينشد
 فرحنا سراعاً وراح الهوى إليها دليلاً بنا يقصد
 فلما دنونا لجرس النبا ح والضوء والحي لم يرقدوا^(١)
 نأينا عن الحى حتى إذا تودّع من نارها الموقد^(٢)
 وناموا بعثنا لها ناشداً وفى الحى بغية من ينشد
 أتننا تهادى على رقبة من الخوف أحشاؤها ترعد^(٣)
 تقول وتظهر وجداً لنا ووجدى وإن أظهرت أوجد
 لما شقائى تعلقتكم وقد كان لى عنكم مقعد^(٤)
 وكفّت سوابق من عبدة على الخلد جال بها الأئمة^(٥)
 فان التى شيعتنا الغداة مع الفجر قلبى بها مقصد^(٦)
 وقد جاء فى خبره مع فاطمة هذه انه لما جاءها أرسلت بينها وبينه

(١) الحرس بالفتح الصوت (٢) يودع الموقد: خب ناراه وانطفأ
 (٣) تهادى: تمايل فى خفة ولى - والرقبة: الحذر والحواف (٤) كان لى مقعد
 عنكم: كان لى عنكم غنى (٥) الأئمة: حجر الكحل (٦) مقصد: مقتول.
 من قولهم: رماه فأقصده اذا قله مكانه.

قال أبو حنيفة النيرى :

رمى فأقصد القلوب ولم نجد دماً مائراً الا حرى فى الحيارم

سترا رقيقاً تراه من ورائه ولا يراها ، فجعل يحدّثها حتى استنشده ،
فأنشدها هذه القصيدة ، فاستخفّها الشعر فرفعت السّجف ، فرأى
وجهها حسناً في جسم ناضج ، فخطبها ، وأرسل إلى أمها وكانت معها
بخمسمائة دينار ، فأبت وحجبتها ، وقالت للرسول : لا تعد إلينا . فغمّ
ذلك الفتاة ، فقالت لها أمها : قد قتلك الوجد به ، فزوجيه !

قالت : لا والله ، لا يتحدث أهل العراق عني اني جئت ابن
أبي ربيعة أخطبه . ولكن ان أتاني إلى العراق تزوجته .

ويقال انها راسلته وأوعده أن تزوره فأجر بيته وأعطى المبرر
مائة دينار . فأتته وواعدته إذا صدر الناس أن يشيّعها ، وجعلت
علامة ما بينهما أن يأتيها رسوله ينشدها ناقة له ذات . فلما صدر
الناس فعل . وقد قال في وصف ذلك

قال الخليل غداً تصدّعنا أو بعده أفلا تشيّعنا ^(١)

أما الرحيل فدون بعد غدٍ فتي تقول الدار تجمعنا ^(٢)

لتشوقنا هندٌ وقد علمت علماً بأن البين يفزعنا

(١) الخليل : الحيرة الاعراء الذين يخلطهم الحب بمسه - والتصدع : التفرق

(٢) يقول : معها بطل في هذا اليب

عجباً لموقفنا وموقفها وبسمع ترّيبها تراجعنا^(١)
ومقالها سرّ ليلة معنا نعهد فان البين فاجعنا^(٢)
قلت العيون كثيرة معكم وأظن أن السير مانعنا
لا بل زوركُم بأرضكم فيطاع قائلكم وشافعنا
قلت أشيء أنت فاعله هذا لعمرك أم تخادعنا
بالله حدث ما تؤمله واصلق فان الصدق واسعنا
اضرب لنا أجلا نعدّ له إخلاف موعده تقاطعنا^(٣)

* *

وإنا لنعجب حين نرى الرجال يقدرّون مصير الحسان من
بناتهم فيهجرون مكة فراراً من ذلك الشاعر الخاليع : فقد وُلِدَ
لرحل من بني مُجَمِّج جارية لم يولد مثلاً بالحجاز حسناً . فقال : كأني
بها وقد كبرت فشبب بها عمر بن أبي ربيعة وفضحها ونوّه باسمها
كما فعل بنساء قريش ، والله لا أقمت بمكة ! فباع ضيعة له بالطائف

(١) ربناها مثنى رب بالكسر وهي الحدة - وبارب الحاربه الحاربه حادتها . قال كثر :

بارب بضاً اذا اسلعت كادم الغطاء برف الكدانا

(٢) نعهد : يأخذ عليك العهد والميثاق أو لا تسبنا بعد الفراق

(٣) بعد له : أي بحسب الأنام لحلوله حتى اذا احلف قاطعناك

ومكة ورحل بابنته إلى البصرة ، فأقام بها ، وابتاع هناك ضيعة ، ونشأت ابنته من أجل نساء زمانها .

ومات أبوها فلم تر أحداً من جُمُحِ حضر جنازته ، ولا وجدت مُسعداً ولا مواسياً ، فقالت لمرضع لها سوداء : من نحن ؟ ومن أى البلاد نحن ؟ فخبرتها . فقالت : لا جرم ، والله لا أقيم في هذا البلد الذى أنا فيه غريبة . فباعت الضيعة والدار وخرجت في أيام الحج ، وكان عمر يقْدَم في ذى الحجة فيعتمر ويحل ، ويلبس ما شاء من اللؤلؤ واللؤلؤ ، ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القُطوع والديباج ويرسل لأمته . ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق مُحَرَّمات ، ويتلقى المدنيات إلى مرّ ، ويتلقى الشاميات إلى الكديد . فخرج يوماً للعراقيات فإذا قبّة مكشوفة فيها جارية كأنها القمر تركب معها جارية سوداء . فقال للسوداء : من أنت ؟ ومن أين أتيت يا خالة ؟ فقالت : لقد أطل الله تعبك إن كنت تسأل هذا العالم : من هم ومن أين هم ؟ قال : فأخبرني عسى أن يكون لذلك شأن . قالت : نحن من العراق ، فأما الأصل والمنشأ فمكة . وقد رجعنا إلى الأصل ورحلنا إلى بلدنا ، فضحك ، فلما نظرت إلى سواد ثنيتيه قالت : قد عرفناك . قال : ومن أنا ؟ قالت : عمر بن أبي ربيعة ! قال : وبهم عرفتني ؟ قالت : بسواد

ثَنَيْتِكَ وَبَهَيْتُكَ الَّتِي لَيْسَتْ إِلَّا لِقْرِيشٍ ^(١) . فَاَنْشَأَ يَقُولُ

أَصْبَحَ الْقَلْبُ فِي الْحَبَالِ رَهِينًا	مُقْصِدًا يَوْمَ فَارَقَ الظَّاعِنِينَ
عَجَلَتْ مُحَمَّةٌ الْفِرَاقَ عَلَيْنَا	بَرْحِيلٌ وَلَمْ نَخَفْ أَنْ تَبْدِينَا ^(٢)
لَمْ يَرَعْنِي إِلَّا الْفَتَاةُ وَإِلَّا	دَمَعُهَا فِي الرَّدَاءِ سَحَابًا سَنِينَا ^(٣)
وَلَقَدْ قَلَّتْ يَوْمَ مَكَّةَ سِرًّا	قَبْلَ وَشْكِ مَنْ يَبْنِيكُمْ نَوَّلِينَا ^(٤)
أَنْتَ أَهْوَى الْعِبَادِ قَرِيبًا وَدَلًّا	أَوْ تَنْيَايِنَ عَاشِقًا مُحْزُونًا
قَادَهُ الطَّرَفُ يَوْمَ مَرٍّ إِلَى الْحِيَةِ	نَ جَهَارًا وَلَمْ يَخْفَ أَنْ يَحِينَا ^(٥)
فَإِذَا نَعْجَةٌ تَرَاغَى نَعَاجًا	وَمَهَا بُهْجُ الْمَنَاطِرِ عَيْنَا ^(٦)
قَالَتْ مَنْ أَنْتُمْ فَصَدَّتْ وَقَالَتْ	أُمِّدُ سَوَالِكَ الْعَالَمِينَا ^(٧)
نَحْنُ مِنْ سَاكِنِي الْعِرَاقِ وَكُنَّا	قَبْلَهُ قَاطِنِينَ مَكَّةَ حِينَا

(١) سواد بني عمرو بن لحي ربيعة لم يكن طبعاً . وإنما عرس له حين صرته الثريا
تظهر كنفها . وكان النساء ادراكاً لبحرهم في أصابعهن العشر . فاصابت الخواصم بنيتيه
العيان فعمستها وكادتا إسقاطاً فقدم النسر فحولها له فبنا واسودنا . فساع حره
وعبره بذلك حصومه من السعراء (٢) حبه الفراق بالصم ما قدر وقضى

(٣) سنن : مدغم (٤) الوشك : الاسراع (٥) الحين بالضم ما قدر وقضى

(٦) العجاج هما نهر الوحش — والعين : الخيل العيون (٧) معنى عجز هذا
البيت كما في الماسن : أُمِّقَسَّ أُنْتُ سَوَالِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَعْزَمَهُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ :
أَنْدَ الْمَالِ وَالْعَطَاءِ إِذَا وَرَفَهُ فِي الْقَوْمِ . وهو معنى قولها له : لقد أطال الله بعك
أن كبرت بسأل هذا العالم : من هم ومن أنس هم .

قد صدقناك إذ سألت فمن أذنت عسى أن يجرَّ شأنُ شؤونا
وزرى أننا عرفناك بالنعمت بظنٍّ وما قتلنا يقينا
بسواد الثنيتين ونعتٍ قد نراه لناظر مستبيننا
ولم يزل بها عمر حتى تزوجها ، وولدت له .

ويقال إنه أنشأ هذه القصيدة في التشبيب برملة بنت عبد الله
الخزاعية ، وإن الثريا بنت عليٍّ لما سمعت بها هجرته ، في حديث سنعود
إليه بعد فصول



ولقد نعلم أن ملاح النساء كنَّ يتحدثن عنه في مناسك الحج في
لهفة وشوق . وكان يقدر له أحيانا أن يسمع ما يلحجن به من ارتقاب
غزله ، وانتظار لقياده ، فيضطرم قلبه ، وتاتهب أحشاؤه ، كلفاً بمن
يتساقين على ذكره كؤوس النجوى والسرار . فقد روى أنه بصُر في
منصرفه من المزدلفة بامرأة جميلة في هودج ، وسمع عجوزاً معها تناديها :
يا نوار استتري ، لا يفضحك ابن أبي ربيعة . فاتبعها وقد شغلت قلبه
حتى نزلت بمني في مضرب قد ضُرب لها ، فنزل إلى جانب المضرب ،
ولم يزل يتلطف حتى جلس معها وحادثها ، وإذا أحسن الناس وجهاً

وأحلام منطقاً ، فزاد ذلك في إعجاب عمر بها ، ثم أراد معاودتها فتعذر ذلك عليه ، وكان آخر عهده ، فقال فيها

علق النوار فؤاده جهلاً وصباً فلم تترك له عقلاً
وتعرضت لي في المسير فما أمسى الفؤاد يرى لها مثلاً
ما ظبية من وحش ذى بقر تغذو بسقط صريمة طفلاً^(١)
بألد منها إذ تقول لنا وأردت كشف قناعها مهلاً
دعنا فانك لا مكارمةً تجزى ولست بواصل حبلاً
وعليك من تبل الفؤاد وإن أمسى لقلبك ذكره شغلاً

* * *

وفي الحق أن ابن أبي ربيعة لم يكن في حاجة إلى تصيّد النساء ، فقد كنّ عليه أحرص ، وإلى تصيّده أحوج ، وسنرى حين نعرض لآخباره مع هند بنت الحارث وسكينة بنت الحسين كيف كانت تشقى الرّسل في البحث عنه كلما حنت معشوقاته الى وجهه المشرق ، وحديثه الطريف ، فلنكتف الآن بالاشارة إلى تلك السيدة الاموية التي قدمت معتمرة قبل أوان الحج ، فمرت عليه وهي تطوف ، وكان في نفر من

(١) دو بقر : واد بن أخيله حمى الرّدة - وسقط الصريمة . منهاها - والصريمة

الرملة المنصرمة من الرمال دان السجر

بنى مخزوم ، يتحدثون وهم جلوس ، وقد فرعهم طولاً ، وجهرهم جمالاً
وبهرهم بياناً ، فالت اليهم ، ونزلت فأطالت معهم الحديث . ولم تنصرف
حتى ظفرت بقباب ذلك الشاعر الجميل . ولم يزل يتردد اليها إلى أن
انقضت أيام الحج فرحات الى الشام . وفيها يقول

تأوَّب ليلى نصب وهمَّ وعادت ذكرى لأُم الحكم^(١)
فبتَّ أراقب ليل التما م ، من نام من عاشق لم أنم
فإِما ترينى على ما عرا ضعيف القيام شديد السقم
كثير الثقل فوق الفرا ش ما إن تُقل قيامى قدم
بأنسة طيب نشرها هضم الحشا عذبة المبتسم^(٢)

وفى هذه الحوادث التى سقناها غنى لمن أراد أن يُقدِّر إلى أى
حد كان ابن أبى ربيعة يتلمس أسباب الهوى ويترقب مواسم الجمال ، وفى
هذه الحياة المرحية ، الحافلة بفرص اللهو ومُتَمِّع الشباب ، قال ذلك الشعر
الحيّ الذى يوقظ غافيات المنى وهاجعات الالهواء . فلننتقل الى الحديث
عن طائفة من معشوقاته بشيء من التفصيل ليتم لنا ما أردنا من عرض
الظروف التى قضت بأن يقف حياته على الحب ، وشعره على النساء^(٣)

(١) الصب بالفتح والصم : الشر - (٢) الشر الرانحه - وهضم الحسا

ضامره البطن (٣) أهم مرجع لهذا الفصل هو الجزء الاول من كتاب الاعانى

عائشة بنت طلحة

أهم قصيدة رُوِيَت لعمر بن أبي ربيعة هي رائيته التي فضّله بها القدماء على جميل ، ومن الواضح ان أولى معشوقاته بالفضل عليه هي تلك الجميلة التي أوحى اليه بتلك القصيدة ، وما كانت تلك الحسنة فيما نظن الا عائشة بنت طلحة التي اجمع أهل عصرها على تفردّها بروعة الجمال . يدلُّ على ذلك ما أشرنا اليه فيما سلف من انها سهرت ليلة لهمّ ألم بها فقالت : إن ابن أبي ربيعة لجاهل بليالي هذه حيث يقول :

وأعجبها من عيشها ظل غرفة وريّان ملتف الحقائق أخضر
ووال كفاهها كل شيء يهملها فليست لشيء آخر الليل تسهر
ولولم يعنها بهذه الإشارة لما رجعتها حين قهرها الحزن في هدأة
الليل . فلنقف قليلا عند ذكرى هذه الفاتنة التي أثارت قلبه ،
وأضرمت إحساسه ، ففتحت له باب الخلود ^(١)



(١) يستعد أستاذنا الدكتور طه حسين أن يكون عمر فال هذه القصيدة في عائشة . ويرى أن استئناسها بسعده لا يرد عن أنه مثل . وحوادث القصيدة

وإنه ليكفى أن نتحدث عن جمالها ، وأخلاقها ، وعقلها ، وجهها ،
وأخبارها مع الحارث بن خالد المخزومي ، وحوادثها مع شاعرنا المحظوظ
جمالها .

أما جمالها فقد كان فتنة لكل من سمع بها أو رآها من أهل ذلك
الزمان . وانهم لينذكرون انها صارمت زوجها وخرجت من دارها غاضبي
فمرت في المسجد وعليها ماحفة تريد عائشة ام المؤمنين فرآها أبو هريرة
فقال : سبحان الله ، كأنها من الحور العين ! ورؤي أنها نازعت زوجها
إليه فوقع خمارها عن وجهها فقال : سبحان الله ! ما أحسن ماغذاك اهلاك ،
لكنما خرجت من الجنة ! وقال لها يوما : مارأيت شيئا أحسن منك
الا معاوية اول يوم خطب على منبر رسول الله . فقالت : والله لأنا
أحسن من النار في الليلة القرة في عين المقرور ! وقد حدثت احدى
الوصائف انها زارتها فرأت عجيزتها من خلفها وهى جالسة كأنها غيرها .
قالت : فوضعت إصبعي عليها لأعلم ماهى . فلما وجدت مسَّ أصبعي

تعد أيضا أن تكون قلها في عائسه . فسبرى القارىء انها كانت عمقه مصوبه .
عبر أنه لا ينبغي أن نسى أنه لم يلزم بصور الواقع في شعره فلا بعد أن يكون هذه
القصيد من وحيا وان لم يكن لها من حوادثها نصيب . وسنعود الى الكلام عن
قلت فيها هذه القصيدة بعد فصول

قالت : ما هذا ؟ قالت : جمعت فداءك لم أدر ما هو فجئت لأنظر !

فضحكت وقالت : ما أكثر من يعجب مما عجبت منه !

قال سالم بن قتيبة : رأيت عائشة بنت طلحة بنتي أو مسجدة الخيف

فسألتني من أنت ؟ قلت : سالم بن قتيبة . قالت رحم الله مصعباً . ثم

ذهبت تقوم ومعها امرأتان تنهضانهما فأعجزتها أليتها من عظمهما فقالت

إني بكما لمُعْنَاة ! فذكرت قول الحارث :

وَتَوْنُهُ تَشْقَلُهَا عَجِزَتُهُمَا نَهَضَ الضَّعِيفُ يَنْوُءُ بِالْوَسْقِ ^(١)

وروى صاحب الأغاني أنه كان بالمدينة امرأة حسناء ، تسمى عزة

الميلاء ، يالفها الاشراف وغيرهم من أهل المروآت ، وكانت من أطرف

الناس وأعلمهم بأمور النساء . فأتاها مصعب بن الزبير وعبد الله ابن

عبد الرحمن بن أبي بكر وسعيد بن العاص فقالوا : إنا خطبنا فانظري

لنا . فقالت لمصعب : يا ابن أبي عبد الله ، ومن خطبت ؟ فقال : عائشة

بنت طلحة . فقالت : وأين أنت يا ابن أبي أحيحة ؟ قال : عائشة

بنت عثمان . قالت : فأنت يا ابن الصديق ؟ قال : أم القاسم بنت زكريا

ابن طلحة . قالت : يا جاريه ! هاني منقلبي تعني خفيها فلبستها

وخرجت ومعها خادم لها ، فاذا هي بجماعة يزحم بعضهم بعضاً ، فقالت يا جارية انظري ما هذا ، فنظرت ثم رجعت . فقالت امرأة أخذت مع رجل ، فقالت داء قديم ! امضى ويلاك ! فبدأت بعائشة بنت طلحة فقالت : فديتك ، كذا في مأذبة أو ماتم لفريش فنذاكروا جمال النساء وخلقهن ، فذكروك فلم أدر كيف أصفك فديتك ، فألقى ثيابك ، ففعلت . فأقبلت ، وأدبرت ، قارتج كل شيء منها ، فقالت لها عزة : خذي ثوبك فديتك ! فقالت عائشة قد قضيت حاجتك وبقيت حاجتي قالت عزة : وما هي بنفسى أنت ؟ قالت : تغنينى صوتاً ، فاندفعت تغنى لهنها في شعر جميل

خليلي عوجاً بالحلة من مجلٍ وأترابها بين الأصفر والجلجـ
نقف بمغانٍ قد محاً رسمها البلى تعاقبها الأيام بالريح والوبل^(١)
فلو درج النمل الصغار بجلدها لأندب أعلى جلدها مدرج النمل^(٢)
وأحسن خلق الله جيداً ومقلّة تشبه في النسوان بالشاردين الطفل
فقامت عائشة فقبلت ما بين عينيها ودعت لها بعشرة أثواب
وبطرائف من أنواع الفضة وغير ذلك ، فدفعته إلى مولاتها فحماته ،
وأنت النسوة على مثل ذلك تقول ذلك لهن حتى أتت القوم في السقيفة

(١) تعاقبها الايام : تختلف عليها (٢) أندب : أبرمه

فقالوا : ما صنعت ؟ فقالت يا ابن أبى عبد الله ، أما عائشة فلا والله إن رأيت مثاها مقبلةً ومُدبرةً ، مخطوطة المتنين ^(١) ، عظيمة العجز ، ممتائة الترائب ، نقية الثغر وصفحة الوجه ، فرعاء الشعر ، لفاء الفخذين ممتائة الصدر ، خميصة البطن ، ذات عُكَن ^(٢) ، ضخمة السُرَد . مَسْرُولة الساق ^(٣) ، يرتج ما بين أعلاها إلى قدميها . وفيها عيبان : أما أحدها فيواريه الحمار ، وأما الآخر فيواريه الخف : عظم القدم ولاذن . وكانت عائسه كذلك — ثم قالت عزه : وأما أنت يا ابن أبى أحيحة فاني والله ما رأيت مثل خلق عائشة بنت عثمان لا مرأى قط ، ليس فيها عيب ، والله لكأنما أُفرغت أفرأغا ^(٤) ، وإلكن في الوجه رده ، وإن استشرتني أشرت عليك بوجه تستأنس به . وما أنت يا ابن الصديق فوالله ما رأيت مثل أم القاسم ، كأنها خوط بانه ، تنشى وكأنها جدل عنان ، أو كأنها خشف ينشئ على رمل . لو شئت أن تعقد أطرافها لفعات . ولكنها شخنة الصدر ^(٥) وأنت عريض الصدر . فإذا كان

(١) مخطوطة المتنين : يرتدأها ناعمة ملساء (٢) جمع عكبة بالضم وهي ما يطوى وتنشئ في لحم البطن (٣) مسرولة : بقاء . ويقولون فرس مسرول إذا حور بياض محجيلة العصبين والفخذين (٤) أفرغت أفرأغا : صارت صافية (٥) السحب : الدق

ذلك كان قبيحا . لا والله حتى يملأ كل شيء مثله !

وقد آثرنا إثبات هذا الحديث لنُرى القارئ صورةً من تلك الحياة الآمنة التي كان يحياها شباب الحجاز ، ولنريه كيف كانت عائشة بنت طلحة في أعين الخبيرات من النساء ، فإن المرأة أعرف بالمرأة ، وأبصر من الرجل بسرائر الحسن الممكنون .

وعلى ذكر مصعب وعزة نقول إن عائشة دعت يوما نسوة من قريش ، فلما جئنها أجاستهن في مجلس قد نضد فيه الريحان والفواكه والطيب المحمّر وخامت على كل منهن خلعة تامة من الوشى والخز ونحوهما ، ودعت عزة الميلاء ففعلت بها مثل ذلك وأضعفت ، ثم قالت لعزة : هاتى يا عزة فغنيننا . فغنتهن في شعر امرئ القيس :

وثرع^(١) أغر^(٢) شبيب النبات لذيد المقبل والمبتسم^(٣)

وما ذفته غير ظن^(٤) به وبالظن يقضى عليك الحكم

وكان مصعب قريبا منهن ومعه اخوان له ، فقام فانتقل حتى دنا منهن والستور مُسبَلة ، فصاح : ياهذه ، إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفت ، فبارك الله فيك يا عزة ! ثم أرسل إلى عائشة : أما أنت فلا سبيل لنا إليك مع من عندك ، وأما عزة فتأذنين لها أن تغنيننا هذا

(١) شبيب : فيه شيب بالتحريك وهو الرقة والبرد والعصاء

الصوت ، ثم تعود اليك ، ففعمات وخرجت عزه إليه ففتمته هذا
الصوت مراراً ، وكاد مصعب أن يذهب عقله فرحاً ، ثم قال لها :
يا عزة ! إنك لتحسنين القول والوصف ^(١)

وكانت عائشة بنت طلحة لا تستر وجهها من أحد ، فعاتبها
مصعب في ذلك . فقالت : ان الله تبارك وتعالى وسمنى تيسم جمال
أحببت أن يراه الناس واعرفوا فضله عليهم . فما كنت لأسترد ،
ووالله ما في وصمه يفدر أن يذكرني بها أحد

وكانت بجملها باغية ظالمة ، تكذف بالكيد لأتراها من
شهرات النساء . فقد ذكروا أن رملته بنت عبد الله قالت لمولاة لعائشة
بنت طلحة : أريني عائشة متجردة ولك ألفا درهم . فأخبرت عائشة
بذلك . قالت : فاني أتجرد فأعلمها ولا تعرف فيها اني أعلم ، فقامت

(١) كانت عزة من أحمل النساء وجهها وأحسن جسمها . وسمعت امرأة
لتعالى في مسجدها . ووقل ان كانت الناس الثلاثة وسنه بالرحل فسميت بذلك .
كما كانت تفعل في عصرنا أم كلثوم حرسها الله . ووقل : ان كانت معرمة بالشراب .
وكانت تقول : حد ملنا واردد فرنا . قال أبو الفرج : والصحيح أنها سميت الملاء ملها
في مسجدها . وقد عتب يوماً عمر بن أبي ربيعة لحا لها في شيء من شعره فسق بسنه وصاح
صحه عظمه صغى معها . فلما أوفى قال له الموم : لعزل الجهل ، أنا الخطاب فقل
إني سمعت والله ما لم أملك معه نفسي ولا عقلي

عائشة كأنها تفتسل ، وأعلمتها ، فأشرفت عايتها مُقبلةً ومُدبرةً ،
فأعطت رملة لمولاتها ألفي درهم . وقالت لوددت أني أعطيتك أربعة
آلاف درهم ولم أرها ! قال صاحب الأغاني : وكانت رملة قد
أسنّت ، وكانت حسنة الجسم ، قبيحة الوجه ، عظيمة الأنف ، وفيها
وفي عائشة يقول الشاعر :

أَنعم بعائش عيشاً غير ذى رَنقٍ وانبذ برملة نبذَ الجوربِ الخلقِ
وكانت عائشة بنت طلحة تنافس بالحسن سُكينة بنت الحسين .
قالت لها يوماً سكينه : أنا أجمل منك . قالت عائشة : بل أنا !
فاختصمتا إلى عمر بن أبي ربيعة . فقال : لأقضيَنَّ بينكما ، أما أنت
ياسكينة فأماح منها ، وأما أنت يا عائشة فأجمل منها . فقالت سكينه :
قضيت لي والله ! ومن هنا نعرف أنهم كانوا يؤثرون الملاحه على الجمال

* * *

أفلاقرها

وأما أخلاقها فكان أظهرها العفة ، والشراسة ، واللؤم ،

وحدة الشهوة

كانت عفيفة فلم يستطع أحد من طغاة الفتيان والأُمراء أن يطعم

منها في كثير من الاثم أو قليل . ولم يجد أترابها مغمزاً ينلها منه حين
يجده الشَّغَبَ ويطول اللّجاج ، وكانت في عفتها وصيانتها خَشِثَةً غَنَجَةً
تُوَاتِي الزوج بأطيب ما تستطيع المرأة العُرُوب من غرائب الدلال
تموت وتحيا بالضجيع وتاتوى بمضطرب المتنين منبتر الخصر
وهي التي تقول وقد لامتها إحدى صواحباتها حين سمعتها تتقتل
تحت عمر بن عبيد الله : إنا نشهّ لهذه الفحول بكل ما حرّكها
وكل ما قدرنا عليه !

وكانت شرسة لا يقدر عليها الزوج إلّا بالتّلاحي والضرب ، ولها
في هذا الباب أخبار تُروى للتفكه والمزاح . فمن ذلك أنها قالت لمصعب
أنت على كظهر أمي ، وقعدت في غرفة وهيأت فيها ما يصلحها ، فجهد
مصعب أن تكلمه فأبت . فبعث إليها ابن قيس الرقيات فسأها كلامه .
فقالت : كيف يميني ؟ فقال هاهنا الشعبي فقيه أهل العراق ، فاستفتيه
فدخل عليها فأخبرته ، فقال : ليس هذا بشيء ، فقالت : أُنحِلْنِي وتخرج
خائباً ، وأمرت له بأربعة آلاف درهم

وغضبت يوماً على مصعب ، وكانت من أحب الناس إليه ، فشكا
ذلك إلى أشعب ، فقال : مالي إن رَضِيتُ ؟ قال : حكمك ! قال :
عشرة آلاف درهم . قال : هي لك . فانطلق حتى أتى عائشة فقال :

جُعِلَتْ فِدَاءُكَ ! قد علمت حبى لك ، وميلى قديماً وحديثاً إليك ، من غير مَنَالَةٍ ولا فائدة ، وهذه حاجة قد عرضت تقضين بها حقى ، وترتهنين بها شكرى .

قالت : وما عنك ؟ قال : قد جعل لى الأمير عشرة آلاف درهم إن رضيت عنه . قالت : ويحك ! لا يمكننى ذلك .

قال : بأبى أنت فارضى عنه حتى يعطينى . ثم عودى إلى ما عودك الله من سوء الخلق ! فضحكت منه ورضيت عن مصعب وروى صاحب الأغاني أن مُصعباً شكها إلى ابن أبى فروة كاتبه ، فقال له : أنا أكفيك هذا إن أذنت لى . قال نعم افعل ما شئت فانها أفضل شئ نلته من الدنيا فأتاها ليلاً ومعه أسودان ، فاستأذن عليها ، فقالت له : أفى مثل هذه الساعة ؟ قال نعم . فأدخلته ، فقال للأسودين احفرا هاهنا بئرا . فقالت له جاريتها : وما تصنع بالبر ؟ قال شؤم مولاتك ! أمرنى هذا الناجر أن أدفنها حيه وهو أسفك خاق الله لدم حرام . فقالت عائشة : فأنظرني أذهب اليه . قال : هيهات لاسبيل إلى ذلك ! وقال للأسودين : احفرا . فلما رأنا الجدمنه بكت . ثم قالت : يا ابن أبى فروة ، انك لقاتلى ما منه بد ؟ قال نعم ، وإنى لا علم أن الله سيجزيه بعدك ، ولكنه قد غضب ، وهو

كافر الغضب ، قالت : وفي أى شيء غضبه ؟ قال : فى امتناعك عنه ،
وقد ظن انك تبغضينه وتتطاعين الى غيره ، فقد جُنَّ . فقالت : أنشدك
الله إلا عاودته ! قال : انى أخاف أن يقتلنى . فبككت وبكى جوارىها .
فقال : قد رقت لك . وحلف أنه يغرر بنفسه . ثم قال لها : فما أقول ؟
قالت : تضمن عنى أن لا أعود أبداً ! قال فمالى عندك ؟ قالت قيام بحقوقك
ماعشت . فال فأعطينى الموائيق . فأعطته . فقال للأسودين : مكانكما
وأنى مصعباً فأخبره ، فقال له : استوثق منها بالآيمان ، فقعات ، وصاحت
بعد ذلك لمصعب بفضل ذلك الدرس البديع !

وكان لها مع هذه الشراسة لحظات تصفو فيها وتطيب . فقد
صارمت مصعباً مرة وطالت مصارمتها له حتى شق ذلك عليها وعليه ،
وكانت لمصعب حرب نخرج إليها ثم عاد وقد ظفر ، فشكت عائشة
مصارمته الى مولاة لها فقالت : الآن يصاح أن تخرجى إليه ،
نخرجت تمسح التراب عن وجهه . فقال لها مصعب : انى أشفق عليك
من رائحة الحديد . فقالت : كهو والله عندى أطيب من ريح
المسك الأذفر !

ومن أظرف اللحظات التى طابت فيها نفس تلك الحسناء
الظلوم ماحدث به ابن سلام إذ قال : حجت عائشة بنت طلحة

جفائها الثريا وأخواتها ونساء أهل مكة القرشيات وغيرهن ، وكان الغريض فيمن جاء ، فدخل النسوة عليها فأمرت لهن بكسوة وألطف كانت قد أعدتها لمن يجيئها ، فجعلت تخرج كل واحدة ومعها جاريتهما ومعها ما أمرت لها به عائشة . والغريض بالباب حتى خرج مولياته مع جواريهن الخلع والألطف ، فقال الغريض : فأين نصيبي من عائشة فقلن له : أغفلناك وذهبت عن قلوبنا فقال : ما أنا ببارح من بابها أو آخذ بحظي منها فانها كريمة بنت كرام ، واندفع يغنى بشعر جميل تذكرت ليلى فلفؤاد عميد وشطت نواها فللزار بعيد فتالت : ويلكم ! هذا مولى العبالات بالباب يذكر بنفسه ^(١) ، هاتود ، فدخل . فلما رآته ضحكت وقالت : لم أعلم بمكانك ، ثم دعت له بأشياء أمرت له بها ، ثم قالت له : إن أنت غنيتني صوتاً في نفسى فلك كذا وكذا ، شيء سمته له ذهب عن ابن سلام ، قال فغناها في شعر كثير

وما زلت من ليلى لدن طر شاربي
إلى اليوم أخفى حبها وأداجن ^(٢)

(١) العبال : نسبة إلى أهم غلبت عند (تراجع لسبهم في الحرة العابر من

الاعلى ص ١٠٣-١٠٤) (٢) أداجن : أداهن

وأحمل في ليلى لقوم ضغينةً وتُحمل في ليلى على الضغائن

فَقَالَتْ لَهُ : مَا عَدَوْتَ مَا فِي نَفْسِي ، وَوَصَالَتَهُ فَأَجْزَات

ولهذين البيتين حديث ذكره الشعبي إذ قال : دخلت المسجد

فاذا أنا بمعصب بن الزبير على سرير جالس والعماس عنده ، فسأمت

ثم ذهبت لأنصرف ، فقال لي : اذن . فدنوت حتى وضعت يدي على

مرفقه ، ثم قال : إذا قت فاتبعني ، فجلس قليلاً ثم نهض ، فتوجه نحو

دار موسى بن طلحة فاتبعته ، ولما طعن في الدار التفت إلى فقال : ادخل

فدخلت معه ومضى نحو حجرته وتبعته ، فالتفت إلى فقال : ادخل .

فدخلت معه فاذا حجلة ، وإنها لأول حجلة رأيتهَا لأُمير^(٣) فقام

ودخل الحجلة ، فسمعت حركة ، ففكرهت الجلوس ، ولم يأمرني

بالانصراف ، فاذا جارية قد خرجت فقالت : يا شعبي إن الأُمير يأمرك

أن تجلس ، فجلست على وسادة ، ورفع سجف الحجلة فاذا أنا بمعصب

ابن الزبير ، ورفع السجف الآخر فاذا أنا بعائشة بنت طلحة . قال :

فلم أر زوجاً قط كان أجمل منهما : مصعب وعائشة . فقال مصعب : يا شعبي

هل تعرف هذه . فقلت نعم أصاح الله الأُمير ، قال : ومن هي ؟ قلت

سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة . قال : لا . ولكن هذه ليلى
الذى يقول فيها الشاعر

وما زلت من ليلى لدن طرّ شاربي

وذكر البيتين ، ثم قال : إذا شئت فقم ، فلما كان العشيّ رحت
وإذا هو جالس على سريره فى المسجد ، فسأمت فلما رآنى قال لى .
اذن . فدنوت حتى وضعت يدى على مرافقه ، فأصغى إلىّ فقال : هل
رأيت مثل ذاك الانسان قط ؟ قات : لا والله ! قال : أفترى لِمَ
أدخلناك ؟ قات : لا ! قال : لتحدث بما رأيت ! ثم التفت إلى عبد الله
ابن أبى فروة فقال : أعطه عشرة آلاف درهم ، وثلاثين ثوباً . قال :
فما انصرف أحد بمثل ما انصرفت به . بعشرة آلاف درهم ، وبمثل كارة
القصاب ثياباً ، وبمنظرة من عائشة بنت طلحة !

وهذه النظرة من عائشة بنت طلحة لها موقعها الخاص ، فسئرى
كيف يقول الغريض مثل هذا أيضاً حين يحمل إليها كتاب الحارث
ابن خالد المخزومى ، وما كان أحرصهم على انتهاب ذاك الوجه المشرق
الفصيح !

وكانت لثيمة تصرّ على العنف ، وتبيّت العدوان ، يؤيد هذا
ما كان بينها وبين زوجها الأول ، إذ مات وهى عنده فلم تفتح فاها عليه

بالرغم من أنه كان ابن خالها ، وأنها تزوجته برأى خالتها عائشة أم المؤمنين
فقد كانت أم عائشة بنت طلحة أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق ،
وزوجها هذا هو عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر . وكان صاحب الفضل
عليها إذ لم تلد من أحد من أزواجها سواد : ولدت له عمران وبه كانت
تكنى ^(١) ، وعبد الرحمن وأبا بكر وطلحة ونفيسة . وكان ابنها طلحة
من أجواد قريش ، وله يقول الحزين الدؤلى

فان تك يا طاح أعطينى عذافرة تستخف العفارا ^(٢)

فما كان نفعمك لى مرة ولا مرتين ولكن مرارا

أبوك الذى صدق المصطفى وسار مع المصطفى حيث سارا

وأماك بيضاء تيمية ^(٣) إذا نسب الناس كانوا أنصارا ^(٤)

وكان ذلك الزوج المنجب يضارها وتضارها ، لولا أنه كان

أطيب منها قلباً وأكرم نجيذة ^(٥) ، قيل له طلقها فقال :

(١) ويهدد الكسه مخاطبها الحارث بن خالد المحرومى اد بقول :

بأم عمران ما رآل وما رحب . يا الصباه حتى مسسا السفى

الفا باق المكم كى بلافكم كما توف الى محابه العرق

نوفك شفا قللا وهى حاتمى كما بمس بطهر الحمه الفرق

(٢) العذافره : العظمه السديده من الابل . واندكر عداقر . وهو ايضا الاسد

(٣) سمه : مسوبه الى بم ، والمرادها بم بن مره رهط أبى بكر الصديق - والنصار

بالصم الخوهر الخالص من المر (٤) النجبرة : الطيعة

يقولون طلقها لأصبح ثاوياً مقيماً علىّ اللهم أحلام نائم
وإن فراقى أهل بيت أحبهم لهم زُلْفَةٌ عندي لأحدى العظام
ومن حديث لؤمها أن مصعباً دخل عليها مرة وهي نائمة فتصبّحه
ومعه ثمان لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار فأنبهها ونثر اللؤلؤ في
حجرها فقالت له : نومتى كانت أحب إلىّ من هذا اللؤلؤ

وتزوجت بعد مصعب عمر بن عبيد الله ، وكان من أشد الناس غيرة
فكانت تسرف في الحديث عن مصعب وعن جماله لتغيظه بذلك .
دخل عاينها يوماً وقد ناله حر شديد وغبار ، فقال لها : انفضى التراب
عنى . فأخذت منديلاً تنفض به عنه التراب ، ثم قالت له : ما رأيت
الغبار على وجه أحد قط كان أحسن منه على وجه مصعب . فبكاد عمر
يموت غيظاً

وكانت تكون لمن يجيء يحدّثها في رقيق الثياب ، فإذا قالوا : قد
جاء الأمير ، ضمت عليها طرفها وقطبت . عناداً ولوئماً ، وكذلك
نساء بنى تميم فيما قيل : هُنَّ أشرس خاق الله وأحظى عند أزواجهن ،
وكانت عند الحسين بن عليّ أم اسحق بنت طلحة فكان يقول : والله
لربما حمت ووضعت وهى مصارمة لى لا تكلمنى

وكانت حادة الشهوة يتقدم إليها خاطبوها تصريحاً وتاميحاً بما

عندهم في ذلك من غناء ، ولها في هذا الباب أخبار لا نرى من خير أن
نبدىء فيها ونُعِيد ، إذ كانت لا تخرج عما هو معروف من شره الطبائع
النسائية ، وحرصها على ما في أصلاب الرجال

وهنا لا نرى بداً من الإشارة إلى ما يبدده المولع بتاريخ ذلك العصر
من فحولة الرجال ، وأنوثة النساء . وذلك عندي هو سرُّ تلك القوة
التي استطاع بها العرب أن يسودوا العالم ، وأن يخضعوه لسلطانهم في زمن
قليل ، وفحولة الرجال ظاهرة غالبه في عهد بني أمية ، والصدر الأول
من عهد بني العباس ، فلا تكاد ترى رجلاً ظاهراً إلا مصحوباً بسيرة
ملؤها الفتك وقوامها الاسراف .

ويكاد يكون عصر بني أمية هو العصر الذي قوى فيه سلطان
المرأة ، وذلك الرجل على بطشه وبأسه لما في ضعفها من القوة والجبروت ،
ويندر أن تجد شاعراً يحس خطر المرأة ويلامسه كما فعل ابن قيس الرقيات
إذ يقول في خطاب عائشة بنت طلحة

عجباً لملك لا يكون لهُ خُرج العراق ومنبر الملكِ

عقلها

كانت عائشة بنت طلحة حاضرة البديهة رائعة الذكوة ، في مكر وخبث . أصاب منها عمر بن عبید الله يوماً طيب نفس فقال : ما مرّ بي مثل يوم أبي فديك^(١) : فقالت له : أعدد أيامك واذكر أفضلها . فعدد يوم سجستان ويوم قطرى بفارس ونحو ذلك . فقالت عائشة قد تركت يوماً لم تكن في أيامك أشجع منك فيه ! قال : وأى يوم ؟ قالت : يوم أرخت عليها وعليك رملة السّتر^(٢) ترميها بقبج الوجه . وروى أنها حجت فوفدت على هشام فقال لها : ما أوفدك ؟ قالت : حبست السماء المطر ، ومنع السلطان الحق ، قال فاني أصل رحمك وأعرف حقك ، ثم بعث إلى مشايخ بني أمية فقال : إن عائشة عندي ، فاسمروا عندي الليلة فحضروا ، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه ، وما طالع نجم ولا غار إلا سمّته ، فقال لها هشام : أما الاول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت أخذتها عن خالتي عائشة ، فأمر لها بمائة ألف درهم ، وردها إلى المدينة



(١) هو عبدالله بن ثور أحد رؤوس الخوارج (٢) كذلك روى الاعلى في الحرة العائري في أخبار عائشة وعبارته في الحرة الاول (يوم اجتلب رمله وأقدم على وجهها وألبها)

مباهاها

وكانت عائشة بنت طلحة في بسطة من المال يحسب حسابها
الأمراء، ونساء الطبقة العالية من قرش . حجت مرة مع سكينه
بنت الحسين ، وكانت عائشة أحسن آله وثقلا ، فقال حاديها :

عائش يا ذات البغال الستين لازلت ماعشت كذا تحجين

فشقّ ذلك على سكينه ونزل حاديها فقال

عائش هذه ضره تشكوك لولا أبوها ما اهتدى أبوك
فأمرت عائشه حاديها أن يكف ، فكف

واستأذنت عائكة بنت يزيد بن معاوية عبد الملك في الحج ، فأذن
لها وقال : ارفعي حوائجك واستظهري فان عائشة بنت طلحة تحج ،
ففعات وجاءت بهيئة جهدت فيها ، فلما كانت بين مكة والمدينة إذا
موكب قد جاء فضغطها وفرّق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشة
بنت طلحة ! فسألت عنها فقالوا : هذه خازنتها . ثم جاء موكب آخر
أعظم من ذلك ، فمالوا : عائشة ! عائشة ! فضغطهم فسألت عنه فقالوا : هذه
ماشطتها ! ثم جاءت مواكب على هذا السنن ، ثم أقبلت كوكبة فيها

ثلثمائة راحلة عليها القباب والهواذج ، فقالت عاتكة : ما عند الله خير وأبقى !!

ومن دلائل جاهها وعقلها ما ذكروا أنها لما تأملت كانت تقيم بمكة سنة ، وبالمدينة سنة ، وتخرج إلى مال لها عظيم بالطائف ، وقصر كان لها هناك ، فتنزه فيه وتجلس بالعشيات ، فيتناضل بين يديها الرماة ، فمر بها النيرى الشاعر فسألت عنه فنسب لها . فقالت ائتوني به ، فأتوها به ، فقالت له أنشدنى مما قال فى زينب ، فامتنع عليها وقال : تلك ابنة عمى وقد صارت عظماً بالية ، قالت : أقسمت عليك بالله إلا فعلت ، فأنشدتها قوله

تضوِّع طيباً بطن نَعْمَانِ إذْ مَشَتْ به زينبٌ فى نسوةٍ عطرانِ ^(١)
فأصبح ما بين الهماء فصاعداً

إلى الجزع جزع الماءذى العشرات ^(٢)

له أرجٌ من مجمر الهند ساطعٌ تَطَلَّعَ رِيَّاهُ من الكفراتِ ^(٣)
أعان الذى فوق السموات عرشه موائس بالبطحاء مؤتجرات ^(٤)

(١) هى زينب بنت يوسف أخ الحجاج (٢) الهماء : اسم موضع - والعشرات جمع عشر كعشر وهو شجر فيه مرارة نحشى به المحاد كما فى القاموس

(٣) المحمر هو الطيب يوضع على الجمر والرياء : الرائحة - والكفرات : الناس

(٤) مؤتجرات : طالبات الاحرار أو متصدقات

مررن بفخٍّ ثم رُحْن عَشِيَّةً يابيين للرحمن معتجرات ^(١)
يُخَبِّئْنَ أطراف البنان من التقى ويقتان بالأحماظ معتذرات
تقسمن لُبِّي يوم نعمان إني رأيت فؤادي عادم النظرات
جلون وجوها لم تأحها سماءُهم حرورهم ولم يُسعفن بالسبرات ^(٢)
فقلت يعافيرُ الظباء تناولت ينما غصون الورد مهتصرات ^(٣)
ولما رأيت ركب النيرى أعرضت وكن من أن يافينه حذرات ^(٤)
دعت نسود شمَّ العرائن بُذلاً نواعم لا شعشعاً ولا غبرات ^(٥)

(١) معجرات: مختبرات بالمتعجر جمع معجر كسر . وهو يوب معجره لم أراد أى
ملف ه - فح: واد مكة. قال زل .

ألا لب شعري هل أنسى أسلة نفح وعمدي إدار حر وحسد

(٢) السماء جمع سموم وهي أريح الحاره يكون عالاً بالهار - والسرات جمع سرة

بالفح وهي العداة المارده (٣) العاوير جمع عقور وهو الطيبي سه لويه التراب

(٤) لما أحضر الخجاج صاحب هذه المقصده لعقابه على التماس أحبه قال له : كم

كسم اد بقول :

ولما رأيت ركب النيرى اعرض

قال : والله ما كتب الا انا وصاحب لى على حماره ريد ' فصحك الخجاج وعقابه

(٥) شم العرائن : مرتعاب الانوف . ودرل جمع بارل وهو العبر بلع سبع سبعين

فتكلم قومه . والمراد وصف هؤلاء النسوة بأنهم ناعن السن الذى سفل فيها القلب من

حال الى حال

فأدنين حتى جاوز الركب دونها حجاباً من القسّى والحبرات ^(١)
فكدت اشتياقاً نحوها وصبابة تقطّع نفسي إثرها حشرات
فراجعت نفسي والحفيظة بعد ما بللت رداء العصب بالعبرات ^(٢)
فقات والله ما قات إلا جميلاً ، ولا ذكرت إلا كرمًا وطيباً ، ولا
وصفت إلا ديناً وتقى ، أعطوه الف درهم . فلما كانت الجمعة الاخرى
تعرض لها ، فقات علىّ به ، فأحضر فقات له : أنشدني من شعرك في
زينب . فقال لها : أو أنشدك من شعر الحارت بن خالد فيك ، فوثب
مواليها اليه ، فقات : دعودفانه أراد أن يستميد لبنت عمه ^(٣) : هات مما
قال الحارثي . فأنشدها قوله

ظعن الأمير بأحسن الخاق وغدوا بابلك مطلع الشرق
وتنوء ثقلها عجيزتها نهض الضعيف ينوء بالوسق ^(٤)
ماصبحت زوجاً بطاعتها إلا غدا بكواكب الطلق
قرشية عبق العبير بها عبق الدهان بجانب الحق
بيضاء من تيم كلفت بها هذا الجنون وليس بالمشق
فقات : والله ما ذكر إلا جميلاً ، ذكر أني إذا صبحت زو .

(١) القسي : نوع من اللباس ينسب الى قريه مصريه من العريش والفرمات سمي القس

(٢) العصب ضرب من البرود (٣) يستمد : يتقدم (٤) سوء : تنهص . يهد ومسقه

والوسق : الحمد .

بوجهى غدا بكواكب الطلق ، وانى غدوت مع أمير تزوجنى إلى
الشرق ، أعطوه ألف درهم ، واكسوه حلتين . ولا تعد لاتيائنا بعد
هذا يانميرى ! ^(١)



أخبارها مع الحارث بن خالد المخزومى

كان الحارث المخزومى — كما قال أبو الفرج الاصبهاني فى الجزء
الثالث من أغانيه — أحد شعراء قريش المعدودين الغزليين . وكان
يذهب مذهب عمر بن أبى ربيعة « رضى الله عنه ! » لا يتجاوز
الغزل إلى المديح ولا الهجاء . وكان يهوى عائشة بنت طاحه ويشبب
بها ^(٢) . ولآه عبد الملك بن مروان مكة ، وكان ذا قدر وخطر ومنظر
فى قريش . وسبب توليه مكة أن قومه بنى مخزوم كانوا كلهم زبيرية
إلا هو فانه كان مروانيا ، فلما ولى عبد الملك الخلافة وفد عليه فى دّين
كان عليه سنة ٧٥ ، وقيل بل حجج عبد الملك فى تلك السنة فلما انصرف

(١) راجع أخبار المرمى فى الجزء السادس من الأعلى وص ١٤٨ ح ١ من زهر الاداب

(٢) فى زهر الاداب ح ١ ص ٢١٩ ان الحارث بن خالد لم تكن معتقد سناً من

ذلك ، وانما كان يقول السب بطرفا وتحلما

رحل معه إلى دمشق ، فظهرت له منه جفوة ، وأقام ببابه شهراً لا يصل إليه فالصرف عنه وقال فيه :

صَحِبْتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غَشَاوَتْهُ فَلَمَّا أَنْجَلْتَ قَطَعْتَ نَفْسِي أَلُومُهَا
وَمَا بِي وَإِنْ أَقْصَيْتَنِي مِنْ ضَرَاعَةٍ وَلَا افْتَقَرْتَ نَفْسِي إِلَى مَنْ يَضِيْعُهَا
عَطَفْتَ عَلَيْكَ النَّفْسَ حَتَّى كَأَنَّمَا بِكَفِيكَ بؤْسِي أَوْ عَلَيْكَ نَعِيمُهَا
وَبَلَغَ عَبْدُ الْمَلِكِ خَبْرَهُ وَأَنْشَدَ الشَّعْرَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مَنْ رَدَّ طَرِيقَهُ .
فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ : حَارٍ ! أَخْبِرْنِي عَنْكَ ، هَلْ رَأَيْتَ عَلَيْكَ فِي الْمَقَامِ
بَيَانِي غَضَاظَةً ، أَوْ فِي قَصْدِي دَنَاءَةً ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !
قَالَ : فَمَا حَمَلَكَ عَلَى مَا قَاتَ وَفَعَلْتَ ؟ قَالَ جَفْوَةٌ ظَهَرَتْ لِي ، كُنْتُ
حَفِيظًا بَغِيرِ هَذَا ! قَالَ : فَاخْتَرِ : فَإِنْ شِئْتَ أُعْطَيْتُكَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ،
أَوْ قَضَيْتَ دِينَكَ . أَوْ أَوَايْتُكَ مَكَّةَ سَنَةً . فَوَلَّاهَا إِيَّاهَا ، فَخَجَّ بِالنَّاسِ
وَحَجَّجَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ طَاهِجَةَ عَامِئُذٍ وَكَانَ يَهْوَاهَا فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ : آخِرُ
الصَّلَاةِ حَتَّى أَفْرَغَ مِنْ طَوَافِي ' فَأَمَرَ الْمُؤَذِّنِينَ فَأَخْرَجُوا الصَّلَاةَ حَتَّى
فَرَّغَتْ مِنْ طَوَافِهَا . ثُمَّ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَصَلَّى بِالنَّاسِ ، وَأَنْكَرَ أَهْلَ
الْمَوْسَمِ ذَلِكَ مِنْ فَعْلِهِ وَأَعْظَمُوهُ . فَعَزَلَهُ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ بِؤْئِبَهُ فِيمَا فَعَلَ .
فَقَالَ : مَا أَهْوَنَ وَاللَّهِ غَضَبُهُ إِذَا رَضِيتَ ! وَاللَّهِ لَوْ لَمْ تَفْرَغْ مِنْ طَوَافِهَا
إِلَى اللَّيْلِ لَأَخَّرْتَ الصَّلَاةَ إِلَى اللَّيْلِ !

فلما قضت حجها أرسل إليها : يا ابنة عمي ! ألمي بنا وعدينا
مجلساً نتحدث فيه . فقالت في غد أفعل ذلك . ثم رحات من ليلتها
ولم تلمّ به ، فقال :

ماضٍ كم لو قاتمٌ سدّداً إن المطايا عاجلٌ غدُها
ولها عاينا نعمةٌ سافتٌ لسنا على الأيام نجحدها
لو تَمَّت أسباب نعمتها تمت بذاك عندنا يدها
إني وإياها كفتن بالنار تحرقه ويعبدها^(١)

وقد حمل الغريز إليها هذه الأبيات في كتاب . فلما قرأته
قالت : ما يدع الحارث باطله ! ثم قالت للغريز : هل أحدثت
شيئاً ؟ قال : نعم ، فاسمعي . ثم اندفع يغني الأبيات ، فقالت عائشة :
والله ما قلنا إلا سداً ، ولا أردنا إلا أن نشترى لسانه . وأتى على الشعر
كله ، فاستحسنته عائشة وأمرت له بخمسة آلاف درهم ، وأثواب .
وقالت : زدني ! فغناها في قول الحارث بن خالد أيضاً

زعموا بأن البين بعد غدٍ فالقلب مما أحدثوا يحفُ
والعين منذ أجدّ بينهم مثل الجمان دموعها تكفُ
ومقالها ودموعها سُجُمُ أقلل حنينك حين تنصرفُ

(١) لم يوجد هذا البيت في أحبار الحارث بن خالد في الأعيان وقد غلباه عن دهر الادب

تشكروونشكوما أشت بنا كل بوشك البين معترف^(١)
 فقالت له عائشة : يا غريض ! بحقى عليك : أهو أمرك أن
 تغننى فى هذا الشعر ؟

فقال : لا ، وحياتك ياسيدي ! فأمرت له بخمسة آلاف درهم .
 ثم قالت له غنى فى شعر غيره . فغنناها بقول عمر بن أبى ربيعة :
 أجمعتُ مُخلَّتى مع الفجر بينا جَلَل الله ذلك الوجه زينا
 أجمعت بينها ولم نك منها لذة العيش والشباب قضينا
 فتولت حمولها واستقلت لم نذل طائلا ولم نقض ديننا^(٢)
 ولقد قلت يوم مكة لما أرسلت تقرأ السلام علينا

(١) كذلك استهدت الأبيات إلى الحارث بن خالد فى الجزء الثالث من الأغانى ص ١٠٤ ولكنها نسبت إلى عمر بن أبى ربيعة شىء من الشعر فى الجزء الأول ص ٢٤٣ وهى كذلك فى ديوانه . ولكنها أطول مما روى الأغانى . ولذكر هده المناسه أن كسرا من شعر الحجار بين أصف إلى ابن أبى ربيعة لعائشه عليهم . بل نقل صاحب الأغانى فى الجزء السابع فى أحبار حملاه أن كسرا من شعر العرجى نسبت إلى شعر عمر بن أبى ربيعة والحارث بن خالد . وكان نأثرها فى مدهاف النسيب . وذكر فى الجزء الثالث عشر فى أحبار حملاه فى الرير أن لهذا شعرا كسرا محل عمر بن أبى ربيعة وعصه ودحل فى شعره . وان كله إلى مطلعها

هل فى اذكاء الخيب من حدرح أم هل لهم الفؤاد من فرح
 من الناس من روهها لعمر بن أبى ربيعة ومنهم من روهها للاحوص . ومنهم من روهها
 للعرجى . وكل ذلك يدعو إلى الاحتياط عند دراسه الأثب القديم
 (٢) المحول . الهوادح . كات فيها لساء أو لم يكن

أَنعَمَ اللهُ بِالرَّسُولِ الَّذِي أُرْسِلَ وَالْمُرْسَلِ الرَّسَالَةَ عَيْنَا
فَضَحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ : وَأَنْتَ يَا غَرِيضُ ، فَأَنعَمَ اللهُ بِكَ عَيْنَا ،
وَأَنعَمَ ابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ عَيْنَا ! لَقَدْ تَلَطَّفْتَ حَتَّى أُدِيتَ رِسَالَتَهُ ، وَإِنْ
وَفَاءُكَ لَهُ لَمَّا زِيدْنَا رَغْبَةً فِيكَ ، وَثِقَّةً بِكَ

وَقَدْ كَانَ عَمْرٌو سَأَلَ الْغَرِيضَ أَنْ يَغْنِيَهَا هَذَا الصَّوْتُ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ
تَرَكَ ذِكْرَهَا لَمَّا غَضِبَتْ بَنُو تَمِيمٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَمْ يَحِبَّ التَّصْرِيحَ بِهَا ،
وَكَرِهَ اغْفَالَ ذِكْرَهَا ، وَقَالَ لَهُ عَمْرٌو : إِنْ أَبَاغَتْهَا هَذِهِ الْأُيُوتُ فِي غَفَاءٍ
فَلَكَ خَمْسَةُ آلَافٍ دِرْهَمٍ ، فَوَفَّى لَهُ بِذَلِكَ وَأَمَرَتْ لَهُ عَائِشَةُ بِخَمْسَةِ
آلَافٍ أُخْرَى

ثُمَّ انصَرَفَ الْغَرِيضُ مِنْ عِنْدِهَا فَلَقِيَ عَاتِكَةَ بِنْتَ يَزِيدَ بْنِ
مَعَاوِيَةَ أَمْرَأَةَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَكَانَتْ قَدْ حَجَّتْ فِي تِلْكَ السَّنَةِ
فَقَالَ لَهَا جَوَارِيهَا : هَذَا الْغَرِيضُ ! فَقَالَتْ لَهْنٌ : عَلَيَّ بِهِ ! فَجِئْتُ بِهِ
إِلَيْهَا . قَالَ الْغَرِيضُ : فَلَمَّا دَخَلْتُ سَلَّمْتُ ، فَرَدَّتْ عَلَيَّ وَسَأَلَتْنِي عَنْ
الْخَبَرِ ، فَقَصَصْتُهُ عَلَيْهَا ، فَقَالَتْ : غَنَى بِمَا غَنَيْتَهَا بِهِ ، فَفَعَلْتُ ، فَلَمْ أُرْهَا
تَهْشُ لَذَلِكَ . فَغَنَيْتَهَا مَعْرُضًا لَهَا وَمَذَكَّرًا بِنَفْسِي فِي شَعْرٍ مُرَّةً بِنِ
مَحْكَانٍ يَخَاطِبُ امْرَأَتَهُ وَقَدْ نَزَلَ بِهِ أَضْيَافٌ :

أقول والضيف مخشئ^١ ذمَامَتُهُ

على الكريم وحق الضيف قد وجبا^(١)

باربة البيت قومي غير صاغرة

ضمي اليك رجال القوم والقربا^(٢)

في ليلة من جمادى ذات أنديّة لا يبصر الكلب في ظلماتها الطنبا^(٣)

لا ينبج الكلب فيها غير واحدٍ حتى يلفّ على خيشومه الدّنيا

فقات وهي مبتسمة : قد وجب حقك يا غريض ، فغنني ،

فغنيتها :

يادهر قد أكثرت فجعتنا بِسَرَاتِنَا ووقرت في العظم

وسلبتنا ما لست مُخْلِفُهُ يادهر ما انصفت في الحكم

لو كان لي قرنٌ أناضله ما طاش عند حفيظةٍ سهمي

لو كان يعطي النصف قلت له أحرزت سهمك فآله عن سهمي

فمالت : نعطيك النصف ، ولا نضيع سهمك عندنا ، ونجزل لك

قسمك ، وأمرت لي بخمسة آلاف درهم وثياب عدنية وغير ذلك من

(١) الدمامة : العهد . يريد أن عهد النصف سعر الرجل بالحسنة من الميراث فيه

(٢) القرب : جمع قربان وهو العمد (٣) الاندية : جمع ندى . ومن معاشه المطر

والليل - والطلب حل طويل بسدده سرادق اليد أو الويد

الأطاف ، وأتيت الحارث بن خالد فأخبرته الخبر ، وقصصت عليه
القصة . فأمر لي بمثل ما أمرتالي به جميعاً ، فأتيت ابن ربيعة فأعلمته بما
جرى فأمر لي بمثل ذلك ، فما انصرف احد من ذلك الموسم بمثل
ما انصرف به : بنظرة من عائشة ، ونظرة من عاتكة ، وهما من أجل
نساء عالمهما ، وبما أمرتالي به ، وبالنزله عند الحارث وابن أبي ربيعة
وما أجازاني به جميعاً من المال

وقدم المدينة فادم من مكة ، فدخل على عائشة بنت طاحه فقالت
له : من أين أقبل الرجل ؟ قال : من مكة . قالت : فما فعل الأعرابي ؟
فلم يفهم ما أرادت ، فلما عاد إلى مكة دخل على الحارث فقال له : من
أين ؟ قال : من المدينة . قال : فهل دخلت على عائشه بنت طلحة ؟ قال :
نعم . قال : فماذا سألتك ؟ قال : قالت لي ما فعل الأعرابي ؟ قال
الحارث : فعُد إليها ولك هذه الراحلة والحلة ونفقتك لطريقك . وادفع
إليها هذه الرقعة . وكتب إليها فيها :

من كان بسأل عنا أين منزلنا فلا أقحوانة منا منزلٌ قنْ
إذ نلبس العيش صفواً ما يكدره طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمن

لبت الهوى لم يقرني إليك ولم

أعرفك إذ كان حظي منكم الحزن

وكان لعائشة بنت طلحة أمة يقال لها بشرة كان يذكرها الحارث في

شعره يكنى بها عن سيدتها ، من ذلك قوله

ياربع بشرة بالجنان تكلم وأبْنُ لنا خبراً ولا تستعْجِمِ
مالي رأيتك بعد أهلك موحشاً خالقاً كحوض الدّارة المتهدّمِ

تسقى الضّجيع إذا النجوم تغوّرت

طوع الضّجيع أُنَيْقة المتوسّمِ

وقوله

لبشرة أسرى الطيف والخبثُ دونها

وما بيننا من حَزْنٍ أرض وبيدها

وقرّت بها عيني وقد كنت قبلها كثيراً بكأى مشفقاً من صدودها
وبشرة خَوْدٌ مثل تمثال بيعةٍ تظلُّ النصارى حولها يوم عيدها

وقوله

ياربع بشرة إن أضرب بك البلى فلقد عهدتكَ أهلاً معموراً
إن يمس حبلك بعد طول تواصل خلقاً ويصبح بيتكم مهجوراً
فلقد أراني والجديد إلى بلى زمناً بوصلك قانعاً مسروراً
جَدِلاً بمالي عندكم لا أبتغي للنفس غيرك خلة وعشيراً

كنت المني وأعزّ من وطىء الحصى

عندي وكنت بذاك منك جديرا

ولمات عمر بن عبید الله عن عائشة بنت طلحة^(١) وكانت قبله عند مصعب بن الزبير قيل للحارث بن خالد : ما يمنعك الآن منها ؟ قال : لا يتحدث والله رجال من قريش أن نسيب بها كان شيء من الباطل^(٢) وما أدرى كيف رأى ذلك الشاعر الفحل أن النسيب لا يكون لاحق إلا إذا خلا من مطامح القلب ، ومطامع النفس ، إن هي إلا كلمة رمى بها ليبرر صدوفه عن تلك الجنة العالية ، حين خبا وجده ، وتقطعت بضلاله الأسباب !!



ما كان بينها وبين عمر

رأى القارىء أن عائشة بنت طلحة كانت رفيقة بابن أبي ربيعة ، وأنها أنست بالغريض لوفائه له ، وحرصه على تبليغ رسالته ، فلم تذكر الآن أن عمر رآها لأول مرة في الطواف ، وهي تريد الركن تستلمه ، فبهت

(١) هذه عبارة الاعلى . وعارة رهر الاداب : فلما قتل عنها مصعب بن الزبير

(٢) عارده رهر الاداب : انى لا كره أن يتوهم الناس على أنى كنت معتقدا

لما رآها، وكانت من أجل من أظلت سماء الحجاز ، فلما علمت أنها وقعت في نفسه بعثت اليه بجارية لها وقالت له . اتق الله ولا تقل هجرا ، فان هذا مقام لا بد فيه مما رأيت . فقال للجارية : أقرئها السلام ، وقولي لها : إن ابن عمك لا يقول إلا خيراً . وقال فيها

لما أشته ابنة التيميّ عندي	رحمى في القلب لا يرعى حماها
يذكرني ابنة التيميّ ظبيّ	يرود بروضة سهل ربّاه
فقلت له وكاد يراع قاي	فلم أر قط كالיום اشتباها
سوى حمش بسافك مستبين	وأن شواك لم يشبه شواها ^(١)
وأنك عاطل عار وليست	بعارية ولا عطل يداها
وأنك غير أفرع وهي تدلى	على المتمين أسجم قد كساها ^(٢)
ولو قعدت ولم تكلف بودّ	سوى ما قد كلفت به كفاها
أظل إذا أكلها كأنني	أكلم حية غابت رقاها
تبیت إلى بعد النوم تسرى	وقد أمسيت لا أخشي سراها

وقال فيها أشعارا كثيرة ، فبلغ ذلك فتيان بنى تميم ، أبلاغهم إياه فتي منهم وقال لهم : يا بني تيم بن مرة ! ليقدفن بنو مخزوم بناتنا بالعظام ، فمشى ولد أبي بكر ، وولد طلحة بن عبيد الله إلى عمر بن

(١) الحمش : دقه السافين -- والسوى : الاطراف (٢) الافرع : طويل شعر الرأس

أبي ربيعة فأعلموه بذلك ، وأخبروه بما بلغهم . فقال لهم . والله
لا أذكرها في شعر أبداً ، ثم أخذ يكتني عن اسمها في قصائده ، ويتألف
في تباينها ما يريد على أعواد المغنين وبأصوات الغناء ، فمن ذاك قصيدته
التي مطلعها

يا أم طلحة إن البين قد أفدا قل النواء لمن كان الرحيل غد^(١)
أمسى العراق لا يدري إذا برزت من ذا تطوَّف بالاركان أو سجدا
ولم يزل ينسب بها أيام الحج ويطوف حولها ويتعرض لها وهي
تكره أن يرى وجهها حتى وافقها وهي ترمي الجمار سافرة فنظر إليها
فقال : أما والله لقد كنت لهذا منك كارهة يا فاسي ! فقال

إني وأول ما كلفت بحبها عجبٌ وهل في الحب من متعجب
نعت النساء ففات لست بمبصر شبيهاً لها أبداً ولا بمقرَّب
فمكثن حيناً ثم قلن توجهت للحج موعدها لقاء الأخشب^(٢)

(١) افد: قرب (٢) الأحسب مفرد الأحسن وهما حلالان يصفان ناره إلى مكة وسيرة
إلى مي وهما واحد أحدهما أبو فيس والآخر دعيةعان . قال مراحم العقيلي
حلى هل من حيله أعلمها قرب من إلى الله أحياها
فان بأعلى الأحسن أراكه عدني عنها الخرب دان طارها
وفي فرغها لو استطاع جأها حتى محسه الخنى لو يسأها
معه في بعض أوقاتها العلى روح علسا كل ووف حياها

أقبلت أنظر ما زعمن وقلن لى والقلب بين مصدق ومكذب
 فلقيتها تمشى بها بغلاتها ترمى الجمار عشيّةً فى موكب
 غراء يُعشى الناظرين بياضها حوراء فى غلواء عيش مُعجب^(١)
 إن النى من أرضها وسمائها جُلبت لحينك ليها لم تجلب
 وروى أن ابن أبى ربيعة لقي عائشة بنت طلحة بمكة وهى تسير
 على بغلة لها فقال : قفى حتى اسمعك ما قات فيك . فنالت أو قد فعلت
 يا فاسق ! قال : نعم ! فوقفت فأنشدها

ياربّة البغلة الشهباء هل السكم أن ترحمي عمرأ لا ترهقي حرأ
 قالت بدائك مُت أو عش تعالجه فما نرى لك فيما عندنا فرأ
 قد كنت حملتنا غيظا نعالجه فان تُقِدْنَا فقد عنيتنا حجأ^(٢)
 حتى لو أسطيع مما قد فعلت بنا أكلت لحمك من غيظ وما نضجا
 فقلت لا والذي حج الحجيح له ما يح حبك فى قلبى ولا نهجا^(٣)
 ولا رأى القلب من شىء يُسرُّ به مذ بان منزلكم منا ولا ثلجا
 ضنت بنائلمها عنه فقد تركت فى غير ذنب أبا الخطاب مُختلجا

ويظهر من هذا الشعر أن الأحسن غير الى بمكة . كما قال ياقوت اد برى
 من مارل العرب الى يخلوها . أهاليهم . وليس الاحساس كذلك . وهما أيضا موضع
 واحد إذ لا ست الارائحة فى موضعين . (١) علواء العيش بضرد وأرعدده

(٢) تقبدينا : لعاقبنا من القود وهو القصاص (٥) مح : لى

فلم تزل تداريه وترفق به خوفاً من أن يتعرض لها حتى قضت
حجها وانصرفت إلى المدينة ، فقال في ذلك :

إن من تهوى مع الفجر ظمن^(١) للهوى والقلب متباع^(٢) الوطن
بانت الشمس وكانت كلما ذكرت للقلب عاودت^(٣) الددن^(١)
نظرت عيني إليها نظرة^(٢) مهبِط^(٣) الحُجاج من بطن يَمَن^(٤)
موهناً تمشي بها بغاتها في عثانين^(٥) من الحج مُكَن^(٦)
قات قد صدت فإذا عندكم أحسن^(٧) الناس لقلب^(٨) مرتهم
ولئن أمست نواها غربة^(٩) لا تواتيني وليست من وطن^(١٠)
فَلَمَقِدْماً قرّبتني نظرتني لعناء^(١١) آخر^(١٢) الدهر مُعَن^(١٣)
ثم قالت : بل لمن أبغضكم شِفوة^(١٤) العيش وتكليف^(١٥) الحزن
سوف آتي زائراً أرضكم^(١٦) ييقين^(١٧) فاعلميه غير ظن^(١٨)
فأجابت : هذه أُمْنِيَّة^(١٩) ليت^(٢٠) أنا نشترها بثمن^(٢١)

(١) الددن : اللهو واللعب والمراد به هنا سوق القلب لأحلام السبات (٢) المتباع : هنا
الزمر والجماعات التي يقدم الركب بسببها لها بعض المطر والرياح ، وانفرد عيون .
والنكاح جمع ثناء وهي الجماعه . وهي كذلك السرب من الحمام (٣) القوى العربيه يفتح
العين المعجمه هي العده

وقال فيها أيضاً هذه القصيدة

مَنْ لِقَابِ أُمِّى رَهِينًا مُعْنَى مُسْتَكِينًا قَدْ شَفَّهَ مَا أَجْنَا
إِثْرَ شَخْصٍ نَفْسِي فَدَتِ ذَاكَ شَخْصًا

نازح الدار بالمدينة عنّا

أَنْ أَرَادَ وَاللَّهِ يَعْلَمُ يَوْمًا مُنْتَهَى رَغْبَتِي وَمَا أَتَمَّنَى
لَيْتَ حَظِّي كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ مِنْهَا وَكَثِيرٌ مِنْهَا الْعَالِيلُ الْمَهْنَى
أَوْ حَدِيثٍ عَلَى خِلَاءٍ يُسَلَّى مَا أَجْنَى الضَّمِيرُ مِنْهَا وَمَنَا
أَنْزَى نِعْمَةً نَرَاهَا عَلَيْنَا مِنْكَ يَوْمًا قَبْلَ الْمَمَاتِ وَمَنَا
خَبْرِنَا بِمَا كَتَبْتَ إِلَيْنَا أَهْوِ الْحَقُّ أَمْ تَهْزَأُتِ مِنَّا
مَا نَرَى رَاكِبًا يَخْبِرُ عَنْكُمْ أَوْ يَرِيدُ الْحِجَازَ إِلَّا حَزَنًا
ثُمَّ مَا نَمْتُ بَعْدَكُمْ مِنْ مَنَامٍ مِنْذُ فَارَقْتُ أَرْضَكُمْ مَطْمَئِنَا
ثُمَّ مَا تُذَكِّرُنِي لِلْقَابِ إِلَّا زِيدَ شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَاسْتُجِنَّا
وَيَرْجِعُ أَنَّهُ قَالَ فِيهَا الْقِطْعَةُ الْآتِيَةُ :

يَا أَبَا الْحَارِثِ قَلْبِي هَائِمٌ فَأَتَمُّ أَمْرٍ رَشِيدٍ مُؤْتَمِنٍ
مُعَلَّقُ الْقَلْبِ غَزَالًا شَادِنًا يَا لِقَوْمٍ لَغْزَالٍ قَدْ شَدْنُ^(١)
أُطْلُبُنِي لِي صَاحٍ وَصَلَا عِنْدَهَا إِنْ خَيْرَ الْوَصْلِ مَا لَيْسَ يَمْنُ

(١) السادر هو الطيبي الذي شدن أى قوى واستعنى عن أمه

إني حبي آل ليلى قاتلي ظهر الحب مجسمى وبطن
ليس حب فوق ما أحبته غير أن أقتل نفسي أو أجن
جعات للقلب مني حبيها شجنا زاد على كل شجن
فاذا ماشحطت هام بها وإذا راعت إلى الدار سكن
ولنلاحظ أن شعر ابن أبي ربيعة في عائشة بنت طلحة لا يُستطاع
تعيينه عند الرجوع إلى ديوانه ، فقد رأينا أنه أرغم على السكوت
عنها ، وأنه اكتفى بالتاميح في أكثر ما أوحى إليه من الشعر البليغ
وعند ما نلاحظ ذلك يصبح لدينا أن كثيرا من الأسماء التي
وردت في شعره لم يكن إلا أدهاست حبه وصرف الناس عن الكيد
لمن يهوى من كرائم الملاح^(١)



(١) راجع مايفرق من أخبار الخارث من خالد المحرومي وأخبار عائشة بنت طلحة
وأخبار عمر بن أبي ربيعة في الأغانى . وماذكر عن هؤلاء في الجزء الأول من زهر الآداب

سكينة بنت الحسين

أشرنا في كتاب « الأخلاق عند الغزالي » عند الكلام عن الباطنية إلى أن أكثر ما يحتل رؤوس المسلمين من الافكار والعقائد ليس إلا أثراً للدعوات المتعددة التي قام بها العباسيون في الشرق ، والفاطيون في الغرب ، وأن الدعاة نجحوا في حشو تلك الرؤوس الجوفاء بالخرافات والوساوس والأضاليل ، وضربنا المثل بالمعبودات الصغيرة التي تسكن سماء القاهرة من عترة سيدنا الحسين !

واليوم نجرد القلم لتصوير السيدة سكينة ، لا لنقتنع من لا يقتنع بأنه لا خير في الطواف حول القبور ، ولا لنجرّح سيده هي منذ أزمان موضع التقديس ، ولا لنكتب قوماً لا همّ لهم إلا أن يتصيدوا لنا المهنات على حساب الدين ، إنما نكتب اليوم ، كما كتبنا من قبل ، متأثرين بفكرة واحدة كانت ولا تزال محور ما نبدي فيه وما نعيد ، وهي أن الانسان مظهر من مظاهر الحياة ، لا مفرّ له من أن يكون مصدراً للخير والشر ، والظلمات والنور ، والهدى والضلال

والحياة تريده كذلك ، فلو قد أَرَادَ أن يَحْوَِرَ ملكاً مسكنه في السماء

أو أن يصير شيطاناً دأبُه البغى والإغواء ، لما استطاع إلى ذلك سبيلاً .
إنما هو أداة لهذه الحياة الغوية ، الرشيدة ، التى تطيب حين تشاء ،
وتخبث حين تريد ، بلا رقيب ولا حسيب !

والسيدة سكينمة كانت بنت الطبيعة قبل أن تكون بنت الحسين
كما كان أبوها غَدِيَّ الفطره ، قبل أن يكون سبط الرسول ، فلا
يغضب قوم إن ذكرنا أنها كانت فى عفافها نزقة طائشة ، تؤثر الخفة
على الوقار ، وتهوى أن يتخاد حسنها فى قصائد الشعراء ، فقد قضت
الطبيعة أن تكون المرأة كذلك ، إلا أن قدر لها المسيح فعادت شُرْطِيًّا^(١)
يلبس أثواب النساء

وهذه محاولة نحتاج إليها فى مصر لنسوِّغ ما نكتبه عن السيدة
سكينمة فى مثل هذا العصر الذى يفيض بأخبار التردد والإشفاق ،
أما صورة تلك السيدة كما رسمها الأولون فهى صورة طبيعية لا غرابة
فيها ولا شذوذ ، ولو كتب عنها فصل فى مجلة فرنسية أو إنجليزية أو
ألمانية لملقاه أهل الغرب بالقبول ، وعدوا حياتها المريحة دليلاً على تأصل
الحضارة فى تلك الأسره التى سادت الشرق زمنًا غير قليل

(١) الصواب فى الشرطى سكون الراء . والتحرير خطأ لأنه سسه الى الشرط الذى
هو جمع . والشرطه فى الأصل السكتيه

ويا ليتنى أعرف متى يتفق الناس على أصول الاخلاق . ففي بعض ما نذكر اليوم صور من الحياة الاجتماعية كانت في العصور الماضية من السائغ المؤلف ، وفي بعض ما نألفه ونرضاه أنماطٌ من العادات والتقاليد كانت مما يكره الأقدمون ، حتى الألفاظ والتعابير يُدليها العرف ، وتُحييها الأوضاع ، وأشدنا حرصاً على الأدب المكشوف يندى وجهه أمام طائفة من السكيات لم يكن يتخرج منها المتجهلون المهذبون في الزمن القديم ، فلا بظنّ ناس أن ما ينكرونه على السيدة سكيئة كان يفاس في عصرها بنفس ما عندهم من المقاييس . وإن كانت عناصر التحرّح والتزمّت غير جديدة في البيئات الاسلامية ، فما أظن هذه السيدة سلمت في صاتها بابن أبي ربيعة من متورّع يرميها على طهرها بالخلاعة والمجون

وأعود فأقول : إني أكتب هذا الفصل وأنا أضمر الحب والاجلال لتلك السيدة النبيلة ، التي قدرت نعمة الله عليها ، فدلّت وتاهت بما وُسِّمت به من الملاحاة والجمال ، وعاشت في رعاية الحسن والحب غير حافلة بأوضاع الاجتماع ، وكان فيها بلا ريب ما ينهى مثلها عن التبذل في مخالطة المغنين وملابسة الشعراء

مبانيها الأدبية

كانت السيدة سكيمة حريصة على أن تعيش عيشة ناهية ملؤها الزهو والاعجاب ، ويظهر مما نقل عنها من شتى الأحاديث أنها كانت سليمة الذوق في اختيار الوصائف ، وكان ينتها لذلك خفيف الظل على الأدباء والشعراء ، وكانت ترعى الحياة الأدبية رعاية لا تخلو من قسوة وعنف ، فتفاضل بين المعاني والأغراض ، وتجنبه من تشاء من الشعراء بلاذع النقد وموجع التجريح ، وكانت تهتم بنوع خاص بالمعاني الوجدانية التي تقال في وصف المرأة وفي الخضوع لما لها من السطوة والجبروت . ولها حديث ممتع في نقد جرير والفرزدق وجميل وكثير ونصيب ، أثبتناه في البحث الاول من كتاب « الموازنة بين الشعراء » وناقشناه هناك ، فلا نعود إليه الآن . ونكتفي بإيراد حديثها مع رواية جرير ورواية كثير ورواية الاحوص ، حين اجتمعوا بالمدينة وافتخر كل رجل منهم بصاحبه ، وذهبوا إليها يحكمونها لما كانوا يعرفون من بصرها بالمعاني الجيدة ، فقد قالت لرواية جرير بعد أن استأذنوا عليها فأذنت لهم وعرفت ما كان من أمرهم : أليس صاحبك الذي يقول

طرتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام

وَأَيُّ سَاعَةٍ أَحْلَى مِنَ الطُّرُوقِ؟ ^(١) قَبِّحَ اللَّهُ صَاحِبَكَ وَقَبِّحَ شَعْرَهُ !

ثُمَّ قَالَتْ لِرَاوِيَةِ الْأَحْوَصِ : أَلَيْسَ صَاحِبَكَ الَّذِي يَقُولُ

يَقْرَأُ بَعَيْنِي مَا يَقْرَأُ بَعَيْنَهَا وَأَحْسَنَ شَيْءٍ مَا بِهِ الْعَيْنُ قَرَّتْ

فَلَيْسَ شَيْءٌ أَقْرَأَ لَعَيْنَهَا مِنَ الْمَسْكَاحِ ، أَفَيَحِبُّ صَاحِبَكَ أَنْ يُنْكَحَ ؟

قَبِّحَ اللَّهُ صَاحِبَكَ وَقَبِّحَ شَعْرَهُ !

ثُمَّ قَالَتْ لِرَاوِيَةِ جَمِيلٍ : أَلَيْسَ صَاحِبَكَ الَّذِي يَقُولُ

فَلَوْ تَرَكْتُ عَقْلِي مَعِيَ مَا طَلَبْتُهَا وَلَكِنْ طَلَبْتُهَا لَمَّا فَاتَ مِنْ عَقْلِي

فَمَا أَرَى بِصَاحِبِكَ مِنْ هَوًى ، إِنَّمَا يَطْلُبُ عَقْلَهُ . قَبِّحَ اللَّهُ صَاحِبَكَ

وَقَبِّحَ شَعْرَهُ !

ثُمَّ قَالَتْ لِرَاوِيَةِ نَصِيبٍ : أَلَيْسَ صَاحِبَكَ الَّذِي يَقُولُ

أَهْمٌ بَدْعُ مَا حَيَّيْتُ فَإِنَّ أُمَّتَ فَوَاحِزَنَا مِنْ ذَا يَهْمٍ بِهَا بَعْدِي

فَمَا أَرَى لَهُ هِمَّةً إِلَّا فِيمَنْ يَتَمَشَّقُهَا بَعْدَهُ . قَبِّحَ اللَّهُ ، وَقَبِّحَ شَعْرَهُ !

أَلَا قَالَ .

أَهْمٌ بَدْعُ مَا حَيَّيْتُ فَإِنَّ أُمَّتَ فَلَا صَلَاحَ دَعْدُ لَذِي خُلَّةٍ بَعْدِي

ثُمَّ قَالَتْ لِرَاوِيَةِ الْأَحْوَصِ : أَلَيْسَ صَاحِبَكَ الَّذِي يَقُولُ

مِنْ عَاشِقِينَ تَرَاوَعُوا وَتَوَاعَدُوا لَيْلًا إِذَا نَجْمُ الثَّرِيَا حَلَّقَا

(١) الطُّرُوقُ : رِيَارَةُ اللَّيْلِ . سَمِيَ كَذَلِكَ لِحَاجَةِ مَنْ يَقْدُمُ لَيْلًا . إِلَى طَرَفِ
الْبَابِ ، أَيْ دَقِهِ

باتا بأنعم ليلة وألذها حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قال نعم . قالت : قبحه الله وقبح شعره . ألا قال : تماثقا

فهي كما يرى القارئ قاسية عنيفة تتلمس الهفوات ، وتعد السيئات ، وتخطب الرواة باهجة خشنة جافية لارفق فيها ولا إيناس ، وما كانوا ليحتملوها لولا جمالها وسيطرتها على ناحية من الحياة الأدبية في ذلك العصر : هي تقدير الشعر إلى قيل خاصة في التشبيب بالنساء . ومن ذا الذي يرضى بأن تظلمه سيدة يلوذ بجمالها الثبل والجاء والجمال ؟ فما كل ظالم بغيض ، ولا كل مظلوم مغبون !

ومن مظاهر عنفها الذي كان يتلقاه الشعراء بالقبول حديثها مع الفرزدق وقد خرج حاجا ، فلما قضى حجه خرج إلى المدينة فدخل مُسلماً ، فقالت له يافرزدق ! من أشعر الناس ؟ قال أنا . قالت : كذبت ! أشعر منك الذي يقول :

بنفسى من تجنبه عزيز على ومن زيارته لمام

ومن أمسى وأصبح لأراه ويطرفنى إذا هجع النيام

قال : والله لئن أذنت لى لأسمعنك أحسن منه . قالت :

لا أحب ! فاخرج عني ! ثم عاد إليها من الغد فدخل عليها .

فقالت . يافرزدق ! من أشعر الناس ؟ قال : أنا ! قالت : كذبت !

صاحبك أشعر منك حيث يقول :

لولا الحياءُ لهاجنى استعمارُ ولزرت قبرك والحبيب يُزارُ
كانت إذا هجر الضجيع فراشها كُتُمَ الحديث وعفَّت الأسرار
لا يابث القرناء أن يتفرقوا ليلٌ يكرُّ عليهمُ ونهار
فقال : والله لئن اذنت لى لأسمعنك أحسن منه ، فأمرت به
فأخرج ، ثم عاد إليها فى اليوم الثالث وحولها مؤلِّدات كأنهن التماثيل
فنظر الفرزدق إلى واحدة منهن فأعجب بها ، فقالت : يافرزدق !
من أشعر الناس ؟ فقال : أنا ، فقالت : كذبت ! صاحبك أشعر منك
حيث يقول .

إن العيون التى فى طرفها حورٌ قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراكَ به وهنَّ أضعف خاق الله أركانا
أتبعنهم مقلةً أنسانها غرق هل ما ترى تارك للعين إنسانا
فقال : يابنت رسول الله ! إن لى عليك حفا عظيما . ضربت
إليك من مكة إرادته السلام عليك . فكان جزأى منك تكذيبى
ومنعى من أن أسمعك . وبى ماقد عيل معه صبرى ، وهذه المنايا
تغدو وتروح ، ولعلى لا أفارق المدينة حتى أموت . فإن أنا مت
فأمرى أن أدرج فى كفى وأدفن فى حرِّ تلك الجارية . يعنى الجارية

التي أعجبت به ، فضحكت سكينته وأمرت له بالجارية فخرج بها آخذاً
بريظتها . وأمرت الجوارى ان يضربن الدفوف تهنئةً لهما . ثم قالت :
يا فرزدق ! أحسن صحبتها فاني آثرتك بها على نفسي

فلو صحت هذه القصة لكانت دليلاً على تسامح تلك السيدة
وغفرها تهافت الشعراء على ما كانت تملك من المولدات الحسان ،
والشاعر لم يُخلَى إلا ليشقى بالحسن ويعذب بالجمال ، وبقدر إحساس
السيدة سكينته لمحنة الشعراء المسرفين وعلمها بما كتب عليهم من سفه
المى وطيش الأحلام ، كانت ترق وتلين كلما شهدت إخلاصهم لما
خلعوا له من عبادة الطرف الساحر والقدر الشيق . ويمكن الحكم
بأن في توفرها على نقد النواحي الغزلية دليلاً على انها كانت تحيا
حياة وجدانية معقدة وكانت تجدى في تفقد الصلات بين أرواح الشعراء
وقلوب النساء مفرّجاً من لوعة الوجد المكتوم ، ووقدة الحزن الدفين



عنايتها بالغناء

وكانت سكينته تعنى بنقد الغناء عنايتها بنقد الشعر ، وكان المغنون
يقصدونها لذلك . فمقد ذكر صاحب الاغانى أنها حجت فدخل اليها ابن سريج

والغريض ، وقد استعار ابن سريج حلة لامرأة من قریش فلبسها فقال لها ابن سريج : يا سيدتي ! انى كنت صنعت صوتا وحسنته ، وتنوقت فيه ، وخبأته لك فى حريرة فى درج مملوء مسكا فنازعنيہ هذا الفاسق ، يعنى الغريض ، فأردنا أن نتحاكم اليك فيه ، فأينا قدمته فيه تقدم ، قالت . هاته ! فغناها :

عوجى علينا ربة الهودج انك إلا تفعلى تحرجى ^(١)
انى أتيت لى يمانية ^٢ احدى بنى الحارث من مذحج
نلبث حولا كاملا كله ^٣ لانلتقى الا على منهج ^(٢)
فى الحج ان حجت وماذا منى ^٤ وغيره ان هى لم تحجج
فقال سكينه : ما أشبهكما إلا بالاولؤ والياقوت فى أعناق الجوارى
الحسان لا يدرى أيهما أحسن

وكان بيتها مأثما للمغنين ، وكانت تؤثر ترفيه الناس بما تستطيع تقديمه اليهم من متع الغناء . حدث عبيد بن حنين الحيرى قال : كان المغنون فى عصر جدى اربعة نفر : ثلاثة بالحجاز ، وهو وحده بالعراق ، والذين بالحجاز ابن سريج والغريض ومعبد ، فكان يبلغهم ان جدى حنيننا قد غنى فى هذا الشعر :

(١) من الخرج وهو الاثم (٢) المنهاج الطريق ، ومثله المنهج والمنهاج

هَلَا بِكَيْتَ عَلَى الشَّبَابِ الذَّاهِبِ وَكَفَفْتَ عَنْ ذِمِّ الْمَشِيبِ الْآيِبِ
هَذَا وَرُبَّ مَسُوفِينَ سَقَيْتَهُمْ مِنْ خَمْرٍ بَابِلَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِ
بَكُرُوا عَلَى بَشُورَةٍ فَصَبَّحَتْهُمْ

مِنْ ذَاتِ كَرْنِيبٍ كَقَعْبِ الْحَالِبِ^(١)

بِزِجَاجَةٍ مِلءِ الْيَدَيْنِ كَأَنَّهَا قَنْدِيلٌ صَبَحَ فِي كَنِيسَةٍ رَاهِبٍ
فَاجْتَمَعُوا فَتَذَاكَرُوا أَمْرَ جَدِي وَقَالُوا : مَا فِي الدُّنْيَا أَهْلُ صِنَاعَةٍ
شَرِّ مَنَا . لَنَا أَخٌ بِالْعِرَاقِ وَنَحْنُ بِالْحِجَازِ لَا نَزُورُهُ وَلَا نَسْتَزِيرُهُ ، فَكُتِبُوا
إِلَيْهِ ، وَوَجَّهُوا لَهُ نَفَقَهُ ، وَكُتِبُوا يَقُولُونَ : نَحْنُ ثَلَاثَةٌ وَأَنْتَ وَحْدُكَ
فَأَنْتَ أَوْلَى بِزِيَارَتِنَا ، فَشَخَّصَ إِلَيْهِمْ ، فَأَمَّا كَانَ عَلَى مَرَحَلَةٍ مِنَ الْمَدِينَةِ
بَلَّغَهُمْ خَبْرَهُ ، فَخَرَجُوا يَتَلَقَّوْنَهُ ، فَلَمْ يُرْ يَوْمَ كَانَ أَكْثَرُ حَشَرًا وَلَا جَمْعًا
مِنْ يَوْمٍ مِثْلِهِ . وَدَخَلُوا فَلَمَّا صَارُوا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ لَهُمْ مَعْبُدُ : صَيِّرُوا
إِلَيَّ . فَقَالَ لَهُ ابْنُ سَرِيحَ : إِنْ كَانَ لَكَ مِنَ الشَّرَفِ وَالْمُرُوءَةِ مِثْلُ مَالْمُولَاتِيِّ
سَكِينَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ عَظَفْنَا إِلَيْكَ . فَقَالَ : مَا لِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ . وَعَدَلُوا
إِلَى مَنْزِلِ سَكِينَةَ ، فَلَمَّا دَخَلُوا إِلَيْهَا أَذْنَتْ لِلنَّاسِ إِذَا مَا فَفَصَّتِ الدَّارَ

(١) الْكَرْنِيبُ وَاسْمُهُ أَيْضًا الْحَمِيعُ يَفْتَحُ الْمِيمَ تَمْرٌ يَعْجُزُ بِلَبْسٍ وَلَبْسٌ يَشْرَبُ عَلَى
النَّمْرِ . وَالْقَعْبُ بِالْفَتْحِ الْقَدْحُ الصَّخْمُ . وَفِي الْبَيْتِ شَيْءٌ مِنَ الْعَمُوصِ

بهم وصعدوا فوق السطح ، وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها ، ثم انهم
سألوا جدى حينئذ ان يغنيهم صوته الذى اوله

هلا بكيت على الشباب الذهاب وكففت عن ذم المشيب الآيب
فغنناهم اياه بعد أن قال لهم : ابدؤوا أنتم . فقالوا : ما كنا لنتقدمك ،
ولا لنغنى قبلك حتى نسمع هذا الصوت . فغنناهم اياه ، وكان من أحسن
الناس صوتا ، فازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوا ، فسقط
الرواق على من تحته ، فساموا جميعا وأخرجوا أصحاء ، ومات حنين تحت
الهدم . فقالت سكينته : لقد كدر علينا حنين سرورا . انتظرنا مدة
طويلة : كأننا والله كما نسوقه الى منيته^(١)

ولها مع ابن سريج أخبار رأينا أن نضرب عنها صفحا لما فى مقدماتها
من ما آثم تقف عندها حدود الأدب المكشوف



ازواجها

تزوجت السيدة سكينته عدة أزواج ، أشهرهم مصعب بن الزبير
وقد رأينا أن نكتب عنه هنا كلمة وجيزة لأمرين : الأول أنه جمع يد

(١) راجع أحبار حبي في الجزء الثانى من الاعلى

وبين عائشة بنت طاحه ، فهو وثيق الصلة بما عنيما به من ترجمة هاتين المليحتين ، الثاني انه يمثل الفتوة العربية أصدق تمثيل . ولا أعرف شيئا أحب إلى النفس من الحديث عن أوائك الفتيان الغطاريف ، الذين ماؤوا الدنيا بأخبار البأس والجود

ويكفي في الاشارة بذكر ذلك الفتى ان يعرف القارىء انه أعيا عبد الملك بن مروان وعنّاه ، وان عبد الملك كان يوجه اليه جيشا بعد جيش فيهمز مون ، فلما طال ذلك عليه واشتد غمه أمر الناس فمسكروا ، ودعا بسلاحه فابسه ، فلما اراد الركوب قامت اليه أم يزيد ابنه وهي عاتكة بنت يزيد بن معاوية فقالت : يا أمة المؤمنين لو أقت وبعثت اليه لكان الرأي . فقال : ما إلى ذلك من سبيل ! فلم تزل تمشى معه وتكلمه حتى قرب من الباب . فلما علا الصوت رجع اليها عبد الملك فقال : وانت ممن يبكي ! قاتل الله كثيرا . كأنه كان يرى يومنا هذا حيث يقول :

إذا ما أراد الغزو لم تكن همهُ حصانٌ عليها نظمٌ دُرٌّ يزينُها

نهته فلما لم تر النهى عاقه بكت فبكي مما شجاها قطينها

ثم عزم عليها بالسكوت وخرج ^(١)

وقال عبد الملك يوما جلسائه : من أشجع الناس ؟ فأكثرُوا في هذا

المعنى . فقال : أشجع الناس مصعب بن الزبير ، جمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وابنة الحميد بنت عبد الله بن عباس ، وولى العراقين ، ثم زحف الى الحرب فبذلت له الأمان والحِباء والولاية والعفو عما خاص في يده فأبى قبول ذلك ، واطرح كل ما كان مشغوفاً به من ماله وأهله وراء ظهره ، وأقبل بسيفه قرماً يقاتل ، ما بقي معه الا سبعة نفر ، حتى قُتل كريماً^(١)

وكانت سكينة تخفى ما في قلبها من مصعب ، وتكاته وجدها به ، وعطفها عليه . دخل اليها في حربه مع عبد الملك وقد نزع عنه ثيابه ، ولبس غلالة ، وتوشح بثوب ، وأخذ سيفه ، فعلمت أنه لا يريد أن يرجع ، فصاحت من خلفه : واحزناء عليك يا مصعب ! فالتفت اليها وقال : أوكل هذا الى في قلبك ؟ فقالت : إي والله ! وما كنت أخفى أكثر ! فقال : لو كنت أعلم ان هذا كله لي عندك لكانت لي ولك حال . ثم خرج ولم يرجع

ولما دخلت سكينة الكوفة بعد قتل مصعب خطبها عبد الملك فقالت : والله لا يتزوجني بعده قاتله أبداً !

وفى رثاء مصعب يقول رجل من بنى أسد بن عبد العزى
 لعمر ك إن الموت منا لمولعٌ بكل فتى رحب الذراع أريب
 فان يك أمسى مصعب نال حتفه لقد كان صاب العود غير هيب
 جميل المحيا يوهن القرن غربه وإن عضه دهر فقير رهوب
 أتاد حمام الموت وسط جنوده فطاروا سلالاً واستقى بذنوب^(١)
 ولو صبروا نالوا حباً وكرامة ولكنهم ولّوا بغير قلوب
 وقات سكيمة ترثيه

فان تقتلوه تقتلوا الماجد الذى يرى الموت إلا بالسيوف حراما
 وقبلك ما خاض الحسين منية إلى القوم حتى أوردوه حماما



بجمالها

كانت السيدة سكيمة إحدى نواذر الجمال فى العصر الذى ظهرت
 فيه ، وكانت تنافس عائشة بنت طلحة معبودة العيون والقلوب فى ذلك
 الحين ، وكانت حريصة مُسرفة فى الحرص على جمالها ، حتى ليزكر

(١) الذنوب بفتح الدال المعجمة الدلو

صاحب الاغانى أنه خرجت بها سلعة^(١) في أسفل عينا حتى كبرت ، ثم أخذت وجهها وعينا ، وكان درافيس منقطعاً إليها وفي خدمتها ، فقالت له : ألا ترى ما قد وقعت فيه ؟ فقال لها : أتصبرين على ما يمسك من الألم حتى أعالجك ؟ قالت : نعم ! فأضجعها وشق جلد وجهها أجمع ، وسلخ اللحم من تحتها ، حتى ظهرت عروقها ، وكان منها شيء تحت الحدقة فرفع الحدقة عنها حتى جعلها ناحية ، ثم سلّ عروق السلعة من تحتها فأخرجها أجمع ، وردّ العين إلى موضعها وسكينة مضطجعة لا تتحرك ولا تن ، حتى فرغ مما أراد ، وزال ذلك عنها وبرئت منه ، وبقي أثر تلك الحزارة في مؤخر عينا فكان أحسن شيء في وجهها من كل حلى وزينة ، ولم يؤثر ذلك في نظرها ولا في عينا

وكانت تحدث عن نفسها فتقول : أدخات على مصعب وأنا أحسن من النار الموقدة ، وكانت ابنتها من مصعب جدّ جميلة فكانت تثقلها بالحلى والؤلؤ وتقول : ما ألبستها إياه إلا لتفضحه

وكانت سكينة أحسن الناس شعراً ، وكانت تصفّ جمتها تصفيفاً لم يُرَ أحسن منه ، حتى عُرف ذلك ، وكانت تلك الجملة تسمى « السكينية » وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلاً يصف جمة السكينية جلده

(١) السلعة : زيادة في البدن كالعدة

وحلقه . وفي هذا دليل على أنها صاحبة بدعة Mode في تصفيف الشعر وتنسيقه ، وكان تقليدها في تلك البدعة مما يقدح في أخلاق الرجال ، ولولا تخرج المسلمين الاولين من التصوير لرأينا كيف كانت الفتنة في ذلك التصفيف ، ولعرفنا بُعد ما بين تلك البدعة وبدعة الشعر المقصوص في هذا الجيل



أخبرها

كانت السيدة سكيمة تميل إلى الفكاهة والمزاح ، تخاطب الأجلة من قريش ، ويجتمع اليها الشعراء ، فتمزج الجد بالهزل ، وتخاطب الوفار بالجون ، ولها في الدعابة أحاديث طريفة . لسعتها يوماً دُبْرَة ^(١) فقالت لها أمها : مالك يا سيدتي ؟ فضحكت وقالت : لسعتني دُبيرة ، مثل الأُبيرة ، أوجعتني قُطيرة ! وبعثت مرة إلى صاحب الشرطة : إنه دخل علينا شامي ، فابعث إلينا بالشرط . فلما أتى إلى الباب أمرت ففتّح له . وأمرت جارية من جواريتها فاخرجت إليه برغوئاً . ثم قالت : هذا الشامي الذي شكوناه !

وقيل لها يوماً : أمك فاطمة ياسكيمة وأنت تمزحين كثيراً

(١) الدبرة : هي الحلة أو الرسور

وأختك لا تمزح ! فقالت : لأنكم سميتموها باسم جدتها المؤمنة — تعنى فاطمة — وسميتمونى باسم جدتى التى لم تدرك الاسلام — تعنى آمنة بنت وهب أم الرسول . وكانت سكينه نسمى آمنة ، وسكينه لقب

وكانت مع ميلها المفرط إلى الدعابة عفيفةً نقيّة العرض ، لا يؤخذ عليها غير العبث البريء ، واللهو المباح

وكانت لا تخلو من الخيلاء : فقد رآها سفيان بن حرب ترمي الجمار ، فسقطت من يدها الحصاة السابعة فرمت بخاتمها . وكانت فيما يظهر ضيقة الصدر فى معاملة الأزواج . ويرجع ذلك إلى غيرتها الشديدة وعنفها فى مراقبة العشير : فقد روى أبو الفرج الاصبهاني ان زيد بن عمرو بن عثمان خرج إلى مال له مغاضباً لسكينه ، وعمر بن عبد العزيز يومئذ والى المدينة . فأقام سبعة أشهر ، فاستعدته سكينه على زيد وذكر غيبته مع ولأئده سبعة أشهر ، وانها شرطت عليه انه إن مس امرأة ، أو حال بينها وبين شىء من ماله ، أو منعها مخرجاً تريده ، فهي خلية . فبعث إليه عمر فأحضره ، وأمر ابن حزم ان ينظر بينهما ، فجاءت سكينه وزيد جالس عند ابن حزم وفاطمة امرأة ابن حزم جالسة فى الحجلة . فقال ابن حزم : أدخلوا سكينه وحدها . فقالت :

والله لا أدخل إلا ومعي ولائدي: فأدخلن معها. فلما دخلت قالت :
يا جارية ! اني لى هذه الوسادة ، ففعلت ، وجلست عليها . ولصق زيد
بالسرير حتى كاد يدخل في جوفه خوفاً منها . فقال لها ابن حزم : يا ابنة
الحسين ! إن الله يحب القصد فى كل شىء . فقالت له : وما أنكرت
منى ؟ انى والله واياك كالذى يرى الشعر فى عين صاحبه ولا يرى الخشبة
فى عينه ! فقال لها : أما والله لو كنت رجلا لسطوت بك ! فقالت له :
يا ابن فرتنى ! لا تزال تتوعدنى ، وشتمته وشتمها . فلما بلغا ذلك قال
ابن أبى الجهم العدوى : ما بهذا أمرنا . فأمر الحكم ولا أشاتم .
فقالت لمولادها : من هذا ؟ قالت : أبو بكر بن عبد الله بن أبى الجهم
فقالت : لا أراك ههنا وأنا أشتم بحضرتك . ثم هتفت برجال
قريش فغضب ابن أبى الجهم . وقالت : أما والله لو كان أصحابى
فى الحيرة أحياء لكفوا والله العبد اليهودى عند شتمه إياى . عدوا لله !
تشتمنى وأبوك الخارج مع يهود ضنائة بدينهم لما أخرجهم رسول الله
الى أريحاء ! — فلما كلمها زيد وخضع لها قالت . ما أعرفنى بك يا زيد !
والله لا ترانى أبداً ! أتركك مع جواريك سبعة أشهر ثم أعود
إليك ! والله لا ترانى بعد الليلة أبداً !

وأظرف ما كان يجرى بينها وبين زوجها هذا تكليفها أشعب

بمراقبته وترسّم خطاه لتعلم ما كان يجترح من وصل الولائد الملاح

* *

صلتها بابن أبي ربيعة

ذكر صاحب الأغاني^(١) أنه اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه وحسن حديثه فتشوقن إليه وتمنينه ، فقالت سكينه بنت الحسين : أنا لكنّ به ! فأرسلت إليه رسولا وواعده الصّورين وسمّيت له الليلة والوقت ، وواعدت صواحباتها ، فوافاهن عمر على راحلته ، فخذهن حتى أضاء الفجر وحنّ انصرافهن . فقال لهن : والله إنى لاحتاج إلى زيارة قبر رسول الله والصلاة في مسجده . ولكن لا أخاطب بزيارتكن شيئا . ثم انصرف إلى مكة وقال :

قالت سكينه والدموع ذوارف منها على الخدين والجباب
ليت المغيرى الذى لم أجزه فيما أطال تصيّدى وطلاّبى
كانت ترد أنا المنى أيامنا إذ لا نلام على هوى وتصابى
خبّرت ما قالت فبتّ كأنما يرمي الحشا بنوافذ النشاب^(٢)

(١) في آخر عمر في الجزء الاول (٢) النشاب . البذل

أُسْكِنَ ما ماء الفرات وطيبه
بألذَّ منك وان نأيت وقاما
ان تبذلى لى نائلاً أشفى به
وعصيت فيك أقاربى وتقطعت
فتركيتنى لا بالوصال مُمتعاً
فعمدت كالبريق فضلة مائه
وقال فيها :

أحب لحبك من لم يكن
وأبذل نفسى لمرضاتكم
وأرغب فى ود من لم أكن
ولو سلك الناس فى جانب
ليمت طيتها إنى
فما ظبية من ظباء الأرا
بأحسن منها غداة الغميم
غداة تقول على رقة
فقال لها فيم هذا الكلام

صفيّاً لنفسى ولا صاحبا
وأعتب من جاءكم عاتبا
إلى وده قبلكم راغبا
من الأرض واعتزلت جانبا
أرى قربها العجب العاجبا^(١)
لك تفرو دميث الربى عاشبا^(٢)
وقد أبدت اخذ والحاجبا
لخادمها : يا احبسى الزاكبا
وأبدت لها عابساً قاطبا

(١) الطية : الناحية (٢) تفرو : تنزع - ودميثة الربى : سهلها ولينها

فقال كريم أتى زائراً يمرّ بكم هكذا جانباً
 شريف أتى ربنا زائراً فأكره رجعتة خائباً
 وذكر صاحب الأغاني في قصة أولئك النسوة مع عمر بصورة
 أخرى في أخبار الغريض فحدثنا أنه وافاهن على رواحله والغريض
 معه وانه قال عند انصرافه إلى مكة

ألم بزینب إن البین قد أفدا قل الثواء لمن كان الرحيل غدا
 فلما كان بمكة قال : يا غريض ! انى أريد أن أخبرك بشيء
 يتعجل لك نفعه ، ويبقى لك ذكره ، فهل لك فيه ؟ قال : افعل من
 ذلك ما شئت وما أنت أهله . قال إنى قلت فى هذه الليلة التى كنا
 فيها شعرا فامض به إلى النسوة فأنشدن ذلك وأخبرهن أنى وجهت
 بك فيه قاصداً . قال نعم : فحمل الغريض الشعر ورجع إلى المدينة
 فقصد سكينه وقال لها : جعلت فداك ياسيدتى ومولاتى ! إن
 أبا الخطاب أبقاه الله وجهنى إليك قاصدا . قالت : أو ليس فى خير
 وسرور تركته ؟ قال : نعم ! قالت : وفيم وجهك أبو الخطاب حفظه
 الله ؟ قال : جعلت فداك ! ان ابن أبى ربيعة حملنى شعراً وأمرنى أن
 أنشدك إياه . قالت فهاته . فأنشدها :

ألم بزینب إن البین قد أفدا قل الثواء لمن كان الرحيل غدا

قد حلفت ليلة الصّورين جاهدةً وما على الحر إلا الصبر مجتهدا
 لئلا يتربها ولا أخرى من مناصفها لقد وجدت به فوق الذي وجدا
 لو تُجمّع الناس ثم اختير صفوتهم شخصاً من الناس لم أعدل به أحداً
 فقالت سكينه : يا ويحه ! فما كان عليه أن لا يرحل في غده !
 ووجهت إلى النسوة لجمعتهن وأنشدتهن الشعر ، وقالت للغريض :
 هل عملت فيه شيئاً ؟ قال : قد غنيت به ابن أبي ربيعة . قالت فهاته ، فغنا
 الغريض فقالت سكينه : أحسنت والله وأحسن ابن أبي ربيعة ! لولا
 أنك سبقت فغنيت به عمر قبائلاً أحسننا جائزتك . يا بنانة ! أعطه بكل بيت
 ألف درهم ، فأخرجت إليه بنانة أربعة آلاف درهم فدفعتها إليه .
 وقالت سكينه : لو زادنا عمر لزدناك

هذا وأحب أن لا ينسى القارئ أننا اعتمدنا في هذه الأخبار على
 الأغاني والأمالى وزهر الآداب . وقد لاحظنا من قبل أنه لا يبعد أن
 يكون بعض هذه الأخبار غير صحيح . فقد ذكر صاحب الأغاني في
 موطن آخر ^(١) أن البيت :

« قالت سكينه » روى « قالت سعيدة »

وأن المراد سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف . وإنما غيره المغنون

فجعلوا سكينه مكان سعيدة . وأن إسحق الموصلي غنى الرشيد يوماً
« قالت سكينه والدموع ذوارف »

فوضع القدح من يده وغضب غضباً شديداً وقال : لعن الله الفاسق
ولعنك معه ! فسقط في يد إسحق فعرف الرشيد ما به فسكن ثم قال :
ويحك ! أتغنيني بأحاديث الفاسق ابن أبي ربيعة في بنت عمي وبنت رسول
الله ! ألا تتحفظ في غنائك وتدرى ما يخرج من رأسك ! عد إلى غنائك
الآن وانظر بين يديك ! قال إسحق : فتركت هذا الصوت حتى
نسيته ، فما سمعه مني أحد بعده ^(١) .

وفيما ذكرناه عن السيدة سكينه غنية لمن يريد أن يعرف كيف
تمثلها الأدباء الأقدمون . أما صورتها في رؤوس الصوفية فهي صورة
القديسة التي تسيطر على الأرض والسماء . وكل حزب بما لديهم
فرحون ! .

(١) هذا الكلام نفسه يدل على أنه كان متهوماً إذ دال أن هذا السر قيل في سكينه

الثريا بنت علي

شغل صاحب الاغانى بتحقيق نسب هذه الثريا . فإرجع اليه من شاء ، ولنض نحن فى الحديث عن فننتها لعمر ابن أبى ربيعة ، وذكر ما أوحى اليه من الشعر الجيد البليغ

كانت الثريا أعجوبة من أعاجيب الجمال . وقد وصفها معاصروها بمثل ما وصفوا به عائشة بنت طلحة فذكروا أنها كانت خصبة الجسم ، وثيرة الردف . قال بعض المكيين : كانت الثريا تصب عليها جرة ماء وهى قائمة فلا يصيب ظاهر فخذيها منه شئ من عظم عجيزتها . وقال مسامة ابن ابراهيم : قلت لايوب بن مسامة : أكانت الثريا كما يصف عمر ابن أبى ربيعة ؟ فقال : وفوق الصفة ! كانت والله كما قال عبد الله ابن قيس :

حبذا الحبيج والثريا ومن بال خيف من أجلها وملقى الرحال^(١)
يا سلمات إن تلاق الثريا تلق عيش الخلود قبل الهلال
درة من عفاف البحر بكرم لم تنلها مثاقب اللال^(٢)

(١) الحمد ، ما انحدر من عطف الخلد وارفع عن مسيل الماء ومنه سعى مسجد الحيف من
منى كما قال لقوت ٢١ ، اللال : مثاقب اللؤلؤ

وكانت تصيف بالطائف ، وكان عمر يغدو عليها كل غداة اذا كانت بالطائف على فرسه ، فيسائل الركبان الذين يحملون الفاكهة من الطائف عن الأخبار قبلهم ، فاقى يوماً بعضهم فسأله عن أخبارهم ، فقال : ما استطرفنا خبراً ، الا اننى سمعت عند رحيلنا صوتاً وصياحاً عالياً على امرأة من قریش اسمها اسم نجم السماء ، وقد ذهب عنى اسمه . فقال عمر : الثريا ؛ قال : نعم . وقد بلغ عمر قبل ذلك انها عليلة ، فوجه فرسه على وجهه الى الطائف يركضه ملء فُروجهِ وسلك طريق كدء ، وهى أخشن الطرق وأقربها ، حتى انتهى الى الثريا وقد توقعته وهى تتشوف له فوجدتها سائمة ومعهما أختها رُضيّاً وأم عثمان . فأخبرها الخبر فضحكت وقالت : انا والله امرتهم لأختبر مائى عندك . فقال عمر فى ذاك :

تَشَكَّى الكُمَيْتُ الجَرى لما جَهِدَتْهُ

وَبَيْنَ لَوِيسْطِيعِ أَنْ يَتَكَلَّمَ ^(١)

فَقُلْتُ لَهُ إِنْ أَلْقَ لِلْعَيْنِ قُرَّةً

فَهَانَ عَلَى أَنْ تَكَلَّمَ وَتَسَامَا

لِذَلِكَ أَدْنَى دُونَ خَيْلى رَباطُهُ وَأَوْصى بِهِ أَنْ لَا يُهَانَ وَيَكْرَمَا

عَدِمَتْ إِذَا وَفَرَى وَفَارَقَتْ هَجَتِي
فَمَا رَاعَهَا إِلَّا الْأَغْرُ كَأَنَّهُ
فَقُلْتُ لَهُمْ كَيْفَ الثَّرِيَا هَبِائِمُ
هَنَالِكَ فَاَنْزِلْ فَاسْتَرْحْ فَاذَا بَدَتْ
يُورِدُنْ اِحْتِيَازَ السَّرْمَنِكَ فَلَا تَبْخُ
وَكَانَتْ الثَّرِيَا تَغَارُ عَلَى عَمْرِ غَيْرَةٍ شَدِيدَةٍ ، وَتَسْكَادُ تَجْنُ حِينَ تَقِفُ
عَلَى بَعْضِ اَخْبَارِهِ مَعَ ضُرَافِ النِّسَاءِ . بَلَغَتْهَا أُمُّ نَوْفَلٍ أَنَّهُ قَالَ فِي رَمْلَةٍ
بَنَتْ عَبْدُ اللَّهِ

أصبح القاب في الجبال رهينا مُقصدًا يوم فارق الظاعنين
فمالت : انه لو قاح مُصنعٌ باسانه ^(٣) وائِن سَامت له لأردن من
شأوه ^(٤) ولأثنين من عنانه . ولأعرفنه نفسه : فلما بلغت الى قوله :
قلت من أنتم فصدت وقالت أمبذئ سؤالك العالمينا
قلت : انه لسأل ملح ، قبحاً له ! ولقد أجابته ان وف . فلما بلغت
الى قوله :

(١) لئلا لم أفد: من القلولة بمعنى الاقامة - وقرن : حبل عرفت يقال له قرن انمارل ، وهو مقاب أهل اليمن والطائف . قال ابن أن ربيعة من كلمه أخرى
 ألم بسأل الربع ان سطقا بقرن انمارل قد أحلقا
 (٢) الجمجمة: عدم الامانة (٣) الوقاح قليل الحياء. والصع : الحادو والمؤث صناع
 يقال رجل صعب اليدس وامراه صناع اليدس (٤) السأو . الزمام

نحن من ساكني العراق وكنا قباة قاطمين مكة حينما
 قالت : غمزته الجهممة ^(١) فلما بلغت الى قوله :

قد صدقناك اذ سألت فن اذ ت عسى ان يجر شأن شئوننا
 قالت : رمته الورهاء باخر ماعندها في مقام واحد ^(٢)
 وروى ان الثريا لما سمعت قول ابن أبي ربيعة في رملة :

وجلا بُردُها وقد حسرتُهُ نور بدرٍ يضيءُ للمناظرينا
 قالت : أفٍّ له ما كذبه ! أو ترتفع حسناء بصفته لها بعد رملة ^(٣)
 ثم هجرته

ظرف ابن أبي عنيق

لما هجرت الثريا عمر قال فيها :

قال لي صاحبي ليعلم مابي اتحب القَتُول اخت الرباب
 قلت وجدى بها كوجدك بالعذ ب اذا ما مُنعت برد الشراب
 من رسولى الى الثريا فاني ضقتُ ذرعاً بهجرها والكتاب

(١) عمره: أشارت اليه. والجهممة: العاجرة الصعفة (٢) الورهاء: الحمقاء (٣) كانت رملة حسنة الجسم فسحة الوجه عظمه الالف وكاتب حين اسب عند عمر بن عبد الله تختبه في أيام أقرائها ثم بعثت لترية أنها تحيص. فقال في ذلك بعض الشعراء جعل الله كل قطرة حيص قطرت ملك في حاليق عيني

غَصَبْتَنِي مَجَابَّةَ الْمَسْكِ عَقْلِي فَسَلَوْهَا مَاذَا أَحَلَّ اغْتِصَابِي
أُبْرَزُوهَا مِثْلَ الْمَهَامَةِ تَهَادِي بَيْنَ خُمْسِ كَوَاعِبِ أَتْرَابِ
وَهِيَ مَكْنُونَةٌ تَحْيَّرُ مِنْهَا فِي أَدِيمِ الْخَدَيْنِ مَاءُ الشَّبَابِ
ثُمَّ قَالُوا تَحْبِبُهَا ؟ قَاتِ بِهِرًا عِدَدَ الرَّمْلِ وَالْحَصَا وَالتَّرَابِ
قَالَ بِلَالٌ مَوْلَى ابْنِ أَبِي عَتِيقٍ : أَتَشُدُّ ابْنَ أَبِي عَتِيقٍ قَوْلَ عَمْرِو :

مَنْ رَسُولِي إِلَى الثَّرِيَا فَانِي خَنَقْتُ ذُرْعَاهُ جِرْهًا وَالْكِتَابِ
فَقَالَ إِيَّايَ أَرَادَ ، وَبِي نَوَّدَ ! لَا جَرَمَ ، وَاللَّهِ لَا أَذُوقُ أَكْمَلًا حَتَّى
أَشْخَصَ فَأَصَاحَ بَيْنَهُمَا ، وَنَهَضَ وَنَهَضَتْ مَعَهُ ، جَاءَ إِلَى قَوْمٍ مِنْ بَنِي
الدَّيْلِ بْنِ بَكْرٍ لَمْ تَكُنْ تَفَارِقُهُمْ نَجَائِبُ لَهُمْ فُرْدَةٌ يُكْرَوْنَهَا ، فَكَتَرَى
مِنْهُمْ رَاحِلَتَيْنِ وَأَعْلَى لَهُمْ ، فَقُلْتُ لَهُ : اسْتَوْضِعْنِي ، أَوْ دَعْنِي أَمَّا كَسْهُمُ
فَقَدْ اشْتَطَوْا عَلَيْكَ . فَقَالَ : وَيْحَكَ ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْمِكَّاسَ لَيْسَ مِنْ
أَخْلَاقِ الْكِرَامِ ! ثُمَّ رَكِبَ أَحَدَاهَا وَرَكِبْتُ الْآخَرَى فَسَارَ سَيْرًا شَدِيدًا .
فَقُلْتُ : أَتَبْقَى عَلَى نَفْسِكَ ! فَإِنْ مَا تَرِيدُ لَيْسَ يَفُوتُكَ . فَقَالَ : وَيْحَكَ !

أُبَادِرُ حَبِلَ الْوَدِّ أَنْ يَتَّقَضِبَا ^(١)

وَمَا حَلَاوَةُ الدُّنْيَا إِنْ تَمَّ الصَّدْعُ بَيْنَ عَمْرِو وَالثَّرِيَا ، فَقَدِمْنَا مَكَّةَ لَيْلًا
غَيْرَ مُحْرَمِينَ ، فَدَقَّ عَلَى عَمْرِو بَابَهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَنْزِلْ عَنْ رَاحِلَتِهِ .

فقال له : اركب أصلح بينك وبين الثريا فأنا رسولك الذي سألت عنه .
 فركب معنا وقدمنا الطائف ، وقد كان عمر أرضى أم نوفل فكانت
 تطالب له الحيل لاصلاحها فلا يمكنها . فقال ابن أبي عتيق للثريا : هذا
 عمر قد جشمنى السفر من المدينة اليك ، جئتك به معترفاً لك بذنب لم
 يجزه ، معتذراً اليك من إساءته اليك . فدعيني من التعداد والترداد ،
 فانه من الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون ، فصالحته أحسن صاح وأتمه
 وأجمله ، وكرّرنا إلى مكة فلم ينزلها ابن أبي عتيق حتى رحل . وزاد
 عمر في أبياته .

أزهقت أم نوفل إذ دعتها مهجتي ، مالمقاتلي من متاب^(١)
 حين قالت لها أجيبي فقالت من دعائي ؟ قالت أبو الخطاب^(٢)
 فاستجابت عند الدعاء كما لبّي رجال يرجون حسن الثواب^(٣)



(١) أزهقت مهجتي : أدهتها . يريد أن أم نوفل ذهب بعقله حين سمع في عطف
 الثريا فلم تفلح (٢) كسب الألف أن الكتاب المنقذ من لاهتمون بوضع الماء لارتبط به
 عبارات القول . وكسب أرى في ذلك تخميفاً . والان الألف أن الشعراء أنفسهم كانوا
 يسلكون هذا المسلك كما نرى في شعر عمر مما يدل على أن هدام الأساليب العربية المقبولة
 (٣) يريد أنها كررت في التلثة كما يفعل المحرم فقالت : ليليك ليليك !

الثريا وسهيل

كان مسعدة بن عمرو أخرَجَ عمر بن أبي ربيعة إلى اليمن في أمر
عرض له ، وتزوجت الثريا وهو غائب ، تزوجها سهيل بن عبد العزيز
فبأخه تزويجها وخروجها إلى مصر فقال :

أبها المنكحُ الثريا سُهيلاً عمرُك الله كيف يلتقيان ؟
هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقلَّ يمانى^(١)
ثم حمله الشوق على أن سار إلى المدينة فكتب إليها :

كتبت إليك من بلدى كتاب موله كمد
كئيب واكف العينة ين بالحسرات منفرد
يؤرقه لهيب الشوق ق بين السَّحر والكبد
فيمسك قلبه بيدٍ ويمسح عينه بيد
فلما وصلتها هذه الأبيات وقرأتها بكت بكاء شديداً ،
ثم تمثلت :

بنفسى من لا يستقلُّ بنفسه ومن هو إن لم يحفظ الله ضائعُ

(١) استقل : ارفع . وفي المقابلة بين الثريا وسهيل تورية لطيفة ، لعدم ما بين هذين الجمين
وبعد ما بين الثريا وكات معروفة بالحسن وبين سهيل وكان مشهوراً بالقبح . وكذلك
نظف عجب الساعر إذ يقول : عمرُك الله كيف يلتقيان

وروى صاحب الاغانى من طريق آخر^(١) أن سهيل بن عبد العزيز لما تزوج الثريا نقلها إلى الشام ، وأن عمر بن أبي ربيعة لما بلغه الخبر أتى المنزل الذى كانت الثريا تنزله فوجدها قد رحلت منه يومئذ . فخرج فى أثرها فلحقها على مرحلتين ، وكانت قبل ذلك مهاجرة له لأنها أنكرته عليه فلما أدركهم نزل عن فرسه ودفعه إلى غلامه ومشى متنكراً حتى مرّ بالخيمة ، فعرفته الثريا وأثبتت حركته ومشيته ، فقالت لحاضنتها^(٢) كليمه . فسألت عليه وسألته عن حاله وعانبتة على ما بلغ الثريا عنه ، فاعتذروا بكى ، فبكت الثريا . فقالت : ليس هذا وقت العتاب مع وشك الرحيل . فحادثها إلى طلوع الفجر ، ثم ودعها وبكىاً طويلاً وقام فركب فرسه ، ووقف ينظر اليهم وهم يرحلون ، ثم أتبعهم بصره حتى غابوا ، وأنشأ يقول :

يا صاحبيّ قفا نستخبر الظللاً عن حال من حمله بالأأس فاعملاً
فقال لى الربع لما أن وقفت به إن الخليط أجده البين فاحتملاً^(٣)
وخادعتك النوى حتى رأيتهم

فى الفجر يحتمل حادى عيسهم زجلاً^(٤)

(١) ص ٢٤٤ ج ١ (٢) الحاضنة: المربية وربما قالوا الداية ، لولا أن هذه الاخيرة يراد بها الموضع الى قد تظل مع الطفلة تربيتها حتى تنسب (٣) أجده: اعترم - احتمل : رحل (٤) يحتمل : يسوق - والرجل رفع الصوت فى حدهاء الابل

لما وقفنا نحْيِيهم وقد صرختُ

هو اتف البين واستولت بهم أصلاً^(١)

صدت بعداً وقالت لاتي معها بالله لوميه في بعض الذي فعلا
وحدثيه بما حدثت واستمعي ماذا يقول ولا تعيى به جدلاً
حتى يرى أن ما قال الوشاة له فينا لديه إلينا كله نُقْلاً
وعرفيه به كالهزل واحتفظي في غير معتمبه أن تُغضبى الرجال
فان عهدي به والله يحفظه وإن أتى الدب ممن يكره العذلاً
لو عندنا اغتیب أو ريات نقيصته

ما آب مغتابه من عندنا جذلاً

قات اسمي فلقد أبانت في لطفٍ

وليس يخفى على ذى اللاب من هزلاً

هذا أرادت به بخلاً لأعذرهما وقد أرى أنها لن تعدم العللاً
ماسمى القلب إلا من تقابيه ولا الفؤاد فؤاداً غير أن عقلاً
أما الحديث الذى قالت أتيت به فما عبأت به إذ جاءنى حولاً^(٢)

(١) الاصل: العشى تقول: لقيته أصلاً، وأصيلاً وأصيلاً لا وأصيلاً

(٢) الحول: الحيلة. والمعنى أنه لم بهم بما نقل من الحديث اد كان يعلم أنه ليس الا

حياه لا فساد ما بينهما من الحب

ما إن أطعت بها بالغيب قد علمت°

مقالة الكاشح الواشى إذا محلا (١)

إني لأرجعه فيها بسخطه وقد يرى أنه قد غرّني زللا (٢)
وهي قصيدة طويلة اقتطفنا بعضها في المحاضرة الاولى عند الكلام
عن إمعانه في التّيه وإغرابه في الصّلف

* *

الثريا عند الوليد بن عبد الملك

لما مات سهيل عن الثريا ، أو طلقها ، خرجت إلى الوليد بن عبد الملك
وهو خليفة بدمشق في دين عليها ، فبينما هي عند أم البنين بنت
عبد العزيز بن مروان إذ دخل عليها الوليد فقال : من هذه ؟ فقالت
الثريا ، جاءتني تطلب اليك في قضاء دين عليها وحوائج لها . فأقبل
عليها الوليد فقال : أتروين من شعر عمر بن أبي ربيعة شيئا ؟ قالت :
نعم ! أما إنه يرحمه الله كان عفيفاً عفيف الشعر ، أروى قوله :

ما على الرسم بالبلمين لو بيّ من رجع السلام أو لو أجابا (٣)

(١) محل: سعى بالسوء (٢) عره زللا : أوقعه في الزلل (٣) البليان: متى بلى
بالضم ثم الفتح ويا مشددة: وهونل قصير أسفل حاذة بينها وبين دات عرق كما ذكر
ياقوت . وفيه يقول الخطيم العكلى :

فالى قصر ذى العشرة فالصا ثف أمسى من الأنيس يبابا^(١)
 موحشاً بعد ماأراه أنيسا من أناس يبنون فيه القبابا
 أصبح الربع قد تغير منهم وأجالت به الرياح الترابا
 فتعفّى من الرباب فأمسى القلب فى إثرها عميداً مصابا
 وبما قد أرى به حىّ صدقٍ ظاهرى العيش نعمةً وشباباً
 وحساناً جوارياً خفرا حافظات عند الهوى الأحسابا
 لا يُكثرن فى الحديث ولا يته بعن ينمقن بالبهام الظرابا^(٢)
 طبيّات الاردان والنشر عينا كمها الرمل بُدناً أترابا

ألايب شعري هل أشتى ليله بأعلى بلى دى السلام ودى السدر
 وهل أهطل روص القطا بر حائف وهل أسحن الدهر وسطى سحر
 وابن أنى ريعه بورده متى كما فى هذه القصده وأحيانا بورده مقردا كقوله فى مطلع
 قصبده أخرى :

سائلا الربع باللى وقولا هجب شوقالى العداة طويلا

(١) ذو العشرة : حصص صغير بين ينبع ودى المروه . والصانف : موضع حجارى
 قريب من دى طوى . والياب : الحراب (٢) المعق : صياح الراعى بالغنم ورحرها
 البهام : جمع بهمه . وهى أولاد الصأر والمعر والقر . والظراب : صغار الجبال واحدها
 ظرب ككسف . ومن أسجاع الاساس : الكرام طراب ، وأنم طراب . ويحس أن يلاحظ
 القارىء أن الظراب فى البيت منصوبة بالفعل : يتبعن . والبيت فى حملته وصف لأولئك
 الحسان بالنعمة والترف

إذ فؤادى يهوى الرباب ويأبى الد

هر حتى الممات ينسى الربابا

ضربت دونى الحجاب وقالت فى خفاء فما عيتُ جواباً
قد تنكرت للصديق وأظهرت لنا اليوم هجره واجتنابا
قلت لا بل عداك واشٍ فاصبح ت نواراً ما تقبلين عتاباً^(١)
فمضى حوائجها وانصرفت بما أرادت منه . فلما خلا الوليد
بأم البنين قال لها : لله درُّ الثريا ! أتدري ما أرادت بانشادها ما أنشدتنى
من شعر عمر ؟ قالت : لا . قال : إني لما عرضت لها به عرضت لى بأن
أمرى أعرابية^(٢)



سُعر عمر فى الثربا

قال عمر فى الثريا طائفة من القصائد مرَّ بعضها فى هذا الحديث

(١) الموار : المرأه المغور من الرية . والجمع نور بالضم والاصل نور نصمتين وكرهوا
الضمة على او او فسكسوها (٢) الأعراب سكان البادية . وفيهم خسوبة يعابون بها
قال شاعرهم :

وإنى لأهدى بالآواس كالدنى وإنى باطراف القسا لأعوب
وإنى على ما كان من عجهنى ولوثة اعراسى لأذهب

ومرت مختارات منها في المحاضرة الأولى والثالثة ، فلنضف إليها
هذه البائية :

شاق قلبي تذكر الأحاب	واعترتني نوائب الأطراب
يا خليلي فاعلموا ان قلبي	مُستهامٌ بربة المحراب ^(١)
عَلِقَ القلبُ من قريش ثقالاً	ذات دلّ نقيّة الأثواب
ربةٌ للنساء في بيت مَلِك	جَدُّها حلّ أذروة الاحساب
شفَّ عنها محقّقٌ جَنَدِيٌّ	فهى كالشمس من خلال السحاب ^(٢)
فتراءت حتى إذا جنّ قلبي	سترتها وإلائدٌ بالثياب
قلت لما ضربن بالستر دوني	ليس هذا لعاشق بثواب
فأجابت من القطين فتاة	ذات دلّ رقيقة بعتاب
أرسلني نحوه الوليدة تسمى	قد فعلنا رضا أبي الخطاب

(١) المحراب : العرفه وصدر البيت وأكرم مواضعه . وهو بالطبع غير المحراب بمعنى
المسجد في قوله من كلمه ثابته :

دمه عند راهب دى احتهاد صوروها في حاب المحراب

(٢) محقق : ثوب عليه وشى على صورة الحقّة كما يقال : ثوب مرّحل عليه تصاویر
رحل . وفى الأساس : ثوب محقق النسيج محكمه . والجندى نسة الى الجند وهو أحد
محاليف اليمن

افعل بالأسير إحدى ثلاثٍ فافهمهنَّ ثم ردِّي جوابي
اقتليه قتلاً سريعاً مُريحاً لا تكوني عليه سوط عذاب^(١)
أو أقيدى فانما النفس بالنفـ س قضاء مفصلاً في الكتاب^(٢)
أو صليهِ وصلاً يقرّ عليه ان شر الوصال وصل الكذاب
وهذه اللامية :

يا خليلي سائلاً الأطلالا بالبلبيين إن أجزن سؤالا
وسفاه لولا الصبابة حبسني في رسوم الديار ركبا عجالا
بعدما أوحشت من آل الثريا وأجدت فيها النعاج الظلالا
يفرح القلب إن رآك وتستـ بر عيني إذا أردت احتمالا

وقد مر باقي هذه القصيدة البديعة في المحاضرة الثالثة عند الكلام
عن تلطفه في مخاطبة الغواني وتودده اليهن بحسن الحديث

* * *

(١) سريح : أي سريع (٢) أقيدى : اتهمى ، من القود بالحريك وهو القصاص
وتقول : استقدت الامام من القائل فاقادني منه

مِنَابَةُ الثَّرِيَا عَلَى ثَنَائِهَا عُمَرَ

زار عمر الثريا يوما ومعه صديق له كان يصاحبه ، ويتوصل بذكره
في الشعر ، فلما كشفت الثريا الستر وأرادت الخروج اليه رأت صاحبه
فرجعت . فقال لها : انه ليس ممن أحششه ، ولا أخفى عنه شيئا واستلقى
فضحك . فخرجت اليه فضربته بظاهر كفها ، وكان النساء اذ ذاك
يتختمن في أصابعهن العشر ، فأصابت اخواتهم ثنيتيه العليمين فنغضتا
وكادتا تسقطان ، فقدم البصرة فعولجتاه ، فثبنتا واسودتا ، فقال الحزين
الكناني ^(٣) يعيره بذلك

مابال سنيك أم مابال كسرهما
أهكذا كسرا في غير ما باس
أم نفحة من فناء كنت تألفها
أم نالها وسط شرب صدمة الكاس

ولقيه الحزين يوما فأنشده هذين البيتين ، فقال له عمر : إذهب ،

(٣) هو عمرو بن عبيد الله بن وهيب بن مالك . وكنى أبا السعاء . من شعراء الدولة
الاموية ، حجارى مطبوع وليس من حول طبقته ، وكان هجا خيث الاسار . ومن شعره :

ادالم . يكنى المرء فصل يريه سوى ما دعى يوما فليس له فضل
وتلقى الفتى ضحكا حميلا رواؤه يروعك في البادى وليس له عقل
وآخر بنو العبن عنه مهذب يحود اذا ما الصخم نهنه البخل

اذهب ، ويلك ! فانك لا تحسن أن تقول :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعدّ وشفّت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرةً واحدةً إنما العاجز من لا يستبد

* * *

بهاء الثريا

لما ماتت الثريا طاب الغريض من بعض الشعراء أن يقول أياتاً
ينوح بها عليها فقال :

ألا ياعين مالك تدمعيننا أمن رمد بكيت فتكحلينا
أما أنت حزينّة تبكين شجواً فشجوك مثله أبكى العيونا
وكانت والله أهلاً لأن تبكى بغير هذا الشعر الضعيف ، لو عرف
معاصروها أنهم يوم دفنوها إنما غيّبوا الثريا في الزاب !

زَيْنَبُ بِنْتُ مُوسَى

كان سبب شغف ابن أبي ربيعة بزَيْنَب بنت موسى كما قال
صاحب الأغاني أن ابن أبي عتيق ذكرها عنده يوماً فأطراها ووصف
من عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلبه وأماله إليها ، فنال فيها الشعر
وشبَّ بها . فمن ذلك هذه النونية :

يا خايميٍّ من ملام دعاني وألما الغداة بالأظمانِ
لا تلوما في آل زينب أن الـ قلب رهنٌ بآل زينب عاني
ما أرى ما بقيت أن أذكر المو

قف منها بالخيفِ إلا شجاني^(١)

(١) الخيف ما انحدر من علط الحبل وارتفع عن مسبل الماء ، وهو ها موضع في
مكة عند مي . قال نصيب :

ولم أر ليلي بعد موقف ساعة بحف مني ترمي حمار المحصب
وسدى الحصا منها إذا قدوت به من البرد أطراف السار المحصب
قال ابن حني : أصل الخيف الاختلاف وذلك أن ما انحدر من الجبل فليس سر فا ولا حضيضاً
فهو مخالف لهما . ومه : الناس أخاف أي محتلمون . قال الشاعر :

الناس أخاف وشقي في الشيم وكاهم يجمعهم ييب الادم

لم تدع للنساء عندي نصيباً غير ماقلت مازحاً بلساني^(١)
 هي أهل الصفاء والود مني وإليها الهوى فلا تعذلاني
 حين قالت لأختها ولأخري من قطين مَوْلِدٍ : حدَّثاني^(٢)
 كيف لي اليوم أن أرى عمر المرسل سرّاً في القول أن يلقاني
 قالتا نبتغي رسولاً إليه ونميت الحديث بالكتمان
 ان قلبي بعد الذي نلت منها كالمغنى عن سائر النسوان^(٣)
 فلما بلغ ذلك ابن أبي عتيق لأمه وقال له : أتنطق الشعر في
 ابنة عمي ؟ فقال :

إنني اليوم عاذني أحزاني وتذكرت ميعتي في زماني^(٤)
 وتذكرت ظبية أم رثم هاج لي الشوق ذكرها فشحجاني^(٥)
 لا تلمني عتيق حسبي الذي بي إن بي ياعتيق ما قد كفاني
 لا تلمني وأنت زينتها لي أنت مثل الشيطان الانسان

(١) لما سمع ابن أبي عتيق هذا البيت قال : رصبت لها بالمودد والنساء بالدهمسه —
 والدهمسه : التجميس والخذعة بالشيء اليسير — والتجميش القرص باطراف الأصابع
 (٢) القطين : الحدم والاباع : والمولد من العبد والاماء من ولد بين العرب وسأ مع
 أولادهم (٣) المغنى : المحبوس (٤) المعة : أول السباب (٥) الرثم : ولد الغليظة
 ويجمع على آرام وأرآم

إن بي داخلاً من الحب قد أب
 لو بمينيك ياعتيق نظرنا
 إذ بدالكشع والوشاح من الدر
 وفصل فيه من المرجان^(١)
 قد قلّ قلبي النساء سواها
 بعد ما كان مغرمًا بالغواني
 إن دهرًا يلف شمل بسعدى
 لزمانهم بالاحسان
 ليتنى أشتري لنفسى منها
 مثل ودى بساعدى وبنانى
 خلّجت عيني اليمين بخير
 تلك عين مأمونة الخلجان

قال قدامة بن موسى : خرجت بأختي زينب إلى العمرة فلما كانت
 بسرف^(٢) لقيني عمر بن أبي ربيعة على فرس فسلم عليّ . فقلت له :
 إلى أين أراك متوجهًا يا أبا الخطاب ؟ فقال : ذكرت لى امرأة من
 قومي برّزه الجمال^(٣) فأردت الحديث معها ، فقات : هل علمت أنها
 أختي ؟ فقال : لا ، واستحيا وثني عنق فرسه راجعًا إلى مكة^(٤)

وخرج ابن أبي ربيعة يريد المسجد وخرجت زينب تريده ، فالتقيا

(١) الكشح ما بين الحاصره الى الصلع الحلف - والوشاح : اديم عريض يرصع
 بالجواهر يشده المرأة من عاتقها وكسحها . وفصل الدر بالمرحان تفرقه فبه فيقال :
 وشاح مفصل . ويوصف المرأة الهيفاء بأنها غرثى الوشاح (٢) سرف على ورن كتف
 موضع على عشرة أميال من مكة (٣) بررة الجمال : نارزة المحاسن أو متجاهرة
 تبرز للقوم يجلسون اليها ويتحدثون (٤) ص ٩٩ ج ١ من الاغانى

فَأَتَعِدَا لِبَعْضِ الشَّعَابِ فَلَمَّا تَوَسَّطَا الشَّعْبَ ^(١) أَخَذَتْهُمَا السَّمَاءُ ، فَكَرَهُ
 أَنْ يُرَى بُثْيَابُهَا بَلَلُ الْمَطَرِ ، فَيَقَالُ لَهَا : أَلَا اسْتَتَرْتَ بِسِقَائِفِ الْمَسْجِدِ
 إِنْ كُنْتَ فِيهِ ؟ فَأَمَرَ غُلَامَانَهُ فَسَتَرُوهُمَا بِكَسَاءٍ خَزٍّ كَانَ عَلَيْهِ . وَفِي
 ذَلِكَ يَقُولُ :

وَمَنْ لِسَقِيمٍ يَكْتُمُ النَّاسَ مَا بِهِ لَزِيْبٌ نَجْوَى صَدْرِهِ وَالْوَسَاوِسُ
 أَقُولُ لِمَنْ يَبْغِي الشِّفَاءَ مَتَى تَجِيءُ بَزِيْبٌ تُدْرِكُ بَعْضَ مَا أَنْتَ لَا مَسَ
 فَانْكَ إِنْ لَمْ تَشْفِ مَنْ سَقَمَى بِهَا فَانِّي مِنْ طِبِّ الْأَطْبَاءِ آيِسُ
 وَلَسْتُ بِنَاسِ لَيْلَةِ الدَّارِ مَجْلِسًا لَزِيْبٌ حَتَّى يَعْلُوَ الرَّأْسُ رَامِسُ ^(٢)
 خَلَاءٍ بَدَتْ قَرَاؤُهُ وَتَكَشَّفَتْ دُجْنَتُهُ وَغَابَ مِنْهُ هُوَ حَارِسُ
 وَمَا نِلْتَ مِنْهَا مُحَرَّمًا غَيْرَ أَنَّنَا كَلَانَا مِنَ الثَّوْبِ الْمُرْدِّ لَا بَسَ
 نَجِيَّتَيْنِ نَقْضِي اللَّهْوَ فِي غَيْرِ مَا نُمْ

وَإِنْ رَغِمَتْ مِ الْكَاشِحِينَ الْمَعَاطِسُ ^(٣)

وَمَنْ شَعَرَهُ فِي زَيْنَبِ قَوْلُهُ :

طَالَ مِنْ آلِ زَيْنَبِ الْإِعْرَاضُ لِلتَّعَدِّيِّ وَمَا بِهَا الْإِبْغَاضُ
 وَوَلِيدِينَ كَانَ مُعْلَقَهَا الْقَلْبُ بُ إِلَى أَنْ عَلَا الرُّءُوسُ بِيَاضُ

(١) الشَّعْبُ بِالْكَسْرِ الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ (٢) الرَامِسُ : الدَّافِقُ فِي الرَّمْسِ وَهُوَ التَّبَرُّ

(٣) الْمَعَاطِسُ جَمْعُ مَعْطَسٍ وَهُوَ الْإِنْفُ

حبلىها عندنا متينٌ وحبلى عندنا واهن القوى أنقاض^(١)
 نظرت يوم فرع لفتٍ الينا نظرة كان رجعها إيماض^(٢)
 حين قالت لموكب كمها الرم ل أطاعت له النبات الرياضُ
 عُجْنَ نحو الفتى البغال نحيةً بما تكتم القلوب المراضُ
 وأحدثه ما تضمنت منه إذ خلا اليوم للمسير المراض^(٣)
 وقوله :

تصابى القلب وادّكرا صباء ولم يكن ذكرا
 لزينب إذ تُجدّ لنا صفاء لم يكن كدرا
 أليست بالتى قالت لمولافٍ لها ظهرا
 أشيرى بالسلام له اذا هو نحونا خطرا
 لقد أرسلت جاريتى وقلت لها خذى حذرا
 وقولى فى ملاطفةٍ لزينب نوّلى عمرا

(١) القوى : طاقاب الجبل . مفردھا قوّة . والانباقص جمع بقص بالكسر وهو الجبل
 لدى لم يجود قتله ولم برم (٢) لفت بالكسر ثمة بن مكة والمدية
 (٣) المراض مكان الرياضة . وهو ههنا موضع على طريق الحجار من ناحية
 للكوفة . قال ياقوت : وهناك لى الوليد بن عقبه بن أبى معط بجادا مولى عثمان
 ابن عفان رضى الله عنه فأخبره بقتل عثمان فقال :
 يوم لاقت بالمراس بجادا لبت أنى هالك قبل بجاد

فَهَزَّتْ رَأْسَهَا عَجْبًا وَقَالَتْ مِنْ بَذَا أَمْرًا
أَهَذَا سِحْرُكِ النَّسْوَا نَ قَدْ خَبَّرَنِي الْخَبْرَا
وقوله :

إِيهَا الْكَاشِحُ الْمَعِيرُ بِالصَّرِّ م تَرْحُزُحُ فَمَا لَهَا الْهَجْرَانُ
لَا مُطَاعٌ فِي آلِ زَيْنَبٍ فَارْجِعْ أَوْ تَكَلَّمْ حَتَّى يَمَلَّ اللِّسَانُ
نَجْعَلُ اللَّيْلَ مَوْعِدًا حِينَ تُمَسِّي ثُمَّ يُخْفِي حَدِيثَنَا الْكُتْمَانُ

كَيْفَ صَبَرْتُ عَنْ بَعْضِ نَفْسِي وَهَلْ يَصْبِرُ بَرَّ عَنْ بَعْضِ نَفْسِهِ الْإِنْسَانُ
وَلَقَدْ أَشْهَدُ الْمَحْدَثَ عِنْدَ الْإِصْبَاحِ قَصَرَ فِيهِ تَعَفُّفٌ وَبَيَانٌ^(١)

فِي زَمَانٍ مِنَ الْمَعِيشَةِ لَدُنَّ قَدْ مَضَى عَصْرُهُ وَهَذَا زَمَانُ
وَمِنْ شَعْرِهِ فِيهَا هَذَا الرَّائِيَةُ الْغَزَلَةُ الَّتِي عَدُّوْهَا مِنْ هَفْوَاتِهِ وَرَأَوْهُ
يَنْسَبُ فِيهَا بِنَفْسِهِ ، وَهِيَ لَوْ يَعْلَمُونَ مِنْ أَظْرَفِ مَا يَقُولُهُ شَاعِرُ حُلُو
الشَّمَائِلِ فِي حِسَانٍ يَتَلَمَّسُنَ أَسْبَابَ هَوَاهُ

بِمَا زَالَ طَرَفِي بِحَارٍ إِذَا بَرَزْتُ حَتَّى رَأَيْتُ النِّقْصَانَ فِي بَصَرِي
أَبْصَرْتُهَا لَيْلَةً وَنَسَوْتُهَا يَمْشِينَ بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْحَجَرِ
مَا إِنْ طَعَمْنَا بِهَا وَلَا طَمَعْتُ حَتَّى التَّقِينَا لَيْلًا عَلَى قَدَرٍ^(٢)

(١) المحدث : الحديث ، فهو مصدر على صيغة المفعول

(٢) على قدر : مصادفة على غير موعد

بَيْضًا حَسَانًا خَرَائِدًا قُطْفًا يَمْشِينَ هَوْنًا كَمْشِيَةَ الْبَقَرِ (١)
 قَدْ فُزْنَ بِالْحَسَنِ وَالْجَمَالِ مَعًا وَفُزْنَ رِسَالًا بِالْذُلِّ وَالْخَفَرِ (٢)
 قَالَتْ لَتَرْبِ لَهَا تَحَدُّثَهَا لِنَفْسِدَنَّ الطَّوْافُ فِي عَمْرِ
 قَوْمِي تَصَدَّى لَهُ لِيَعْرِفُنَا ثُمَّ انْغَمَزِيهِ يَا أُخْتَ فِي خَفَرِ
 قَالَتْ لَهَا قَدْ غَمَزْتَهُ فَأَبِي ثُمَّ اسْبَطَرَّتْ تَسْعَى عَلَى اثَرِي (٣)
 مَنْ يُسْقِ بَعْدَ الْمَنَامِ رِيْقَتَهَا يُسْقِ بِمَسْكٍ وَبَارِدٍ خَصِيرِ (٤)
 وَقَدْ لَاحَظْتُ أَنَّهُ يُفِيضُ فِيمَا يُسْبِغُ عَلَى زَيْنَبَ هَذِهِ مِنَ الْاَوْصَافِ
 الْحَسِيَّةِ ، كَقَوْلِهِ :

يَا مَنْ لِفَلْبٍ مَتِيمٍ كَلْفٍ يَهْدِي بِخُودٍ مَرِيضَةٍ النَّظَرَ (٥)
 تَمْشِي الْهُوَيْنَا إِذَا مَشَتْ فُضْلًا وَهِيَ كَمَثَلِ الْعُسْلُوجِ فِي الشَّجَرِ (٦)
 وَقَوْلِهِ مِنْ كَلِمَةِ أُخْرَى

خَدَلَجَةٌ إِذَا انْصَرَفَتْ . رَأَيْتُ وَشَاحَهَا قَلَمًا (٧)

وَسَاقًا تَمَلُّ الْخَاخَا لَ فِيهِ تَرَاهُ مَخْتَنَقًا .

(١) الحرائد جمع خريدة وهي الحمرة الجبهة . والقطاف جمع قطوف وهي الطيئة
 السير ، وذلك أن الزحف في النساء (٢) الرسل بالكسر الرفق واللين (٣) اسطرب :
 اسرع (٤) الحصر : البارد (٥) الحود : النماء الحسنة الحلق السابغ (٦) الفضل
 بضمين المختالة التي تفضل من ذيلها ، وكان هذا في دلات العصرشارة النعمه ورعد العيش
 والعسلوج : الغصن اللين (٧) الخدلجة بتسديد اللام المرأة الممتلئة الدراعين والساقين

فاطمة بنت عبد الملك

ربما كان حديث ابن أبي ربيعة مع فاطمة بنت عبد الملك بن مروان أظرف مامر بنا من الأحاديث ، لما فيه من المفاجآت التي تمثل دهاء ربات القصور في ذلك الحين . فقد روى صاحب الاغانى انها حجت فكتب الحجاج الى عمر بن ابي ربيعة يتوعده ان ذكرها في شعره بكل مكروه . وكانت تحب أن يقول فيها شيئاً وتعرض لذلك ، فلم يفعل خوفاً من الحجاج . فلما قضت حجها خرجت فرّاً بها رجل فقالت له : من انت ؟ قال من أهل مكة . قالت : عليك وعلى أهل بلدك لعنة الله ! قال ولم ذاك ؟ قالت : حججت فدخلت مكة ومعى من الجوارى ما لم تر الا عين مثلهن . فلم يستطع الفاسق ابن ابي ربيعة ان يزودنا من شعره ابياتاً نلهموها في الطريق في سفرنا . قال : فاني لا اراه إلا قد فعل . قالت فأتنا بشيء ان كان قاله ولك بكل بيت عشرة دنانير . فمضى اليه فأخبره . فقال : لقد فعلت ، ولكن أحب ان تسكنم على ، قال : أفعل . فأنشده

راع الفؤاد تفرق الاحباب يوم الرحيل فهاج لى أطرابى
فظللت مكتئباً ككفكف عبرة سجاً تقيض كوابل الأسراب

لما تنادوا لارحيل وقرَّبوا بُزْلَ الجَمالِ لِطِيَةِ وذهاب
 كاد الأَسَى يَقْضِي عَلَيْكَ صَبَابَةً والوجه منك لبين إلفك كابٍ
 وانشده :

هاح قاي تذكر الأحباب واعترتني نوائب الاطراب
 وهى قصيدة طويلة ذكر صاحب الاغانى فى اخبار حنين ان ابن
 أبى ربيعة قالها فى فاطمة بنت عبد الملك وذكر فى أخبار الشاعر نفسه
 انه قالها فى الثريا بنت على . فانتقيد ذلك فانه يؤيد ماأشرنا اليه من ان ابن
 أبى ربيعة غير صادق الحب ، وانه ينقل شعره من جميلة الى جميلة وَفَقًّا
 لمقتضيات الظروف ، وان الرواة وضعوا من أقاصيص عشقه ماشاء لهم
 الخيال ، ترويحاً لأنفس السامعين من الخلفاء والأُمراء

*
 * *

مسابرها لعمر على هناك الحرائر

ولنذكر تلك القصة الطريفة التى رواها صاحب الاغانى فى اخبار
 ابن ابى ربيعة ، اذ نقل انه كان جالسا بمنى فى فِئاءٍ مضربه وغلمانة حوله ،
 فأقبلت امرأة برزة عليها أثر النعمة ، فسلمت فردَّ عليها السلام ، فقالت
 له : انت عمر بن ابى ربيعة ؟ فقال لها : انا هو ، فما حاجتك ؟ قالت له :
 حيّاك الله وقرَّبك هل لك فى محادثة أحسن الناس وجهًا ، وأتمهم خلقًا ،

وأكملهم ادبا ، وأشرفهم حسبا ؟ قال : ما أحبُّ الىّ ذلك ! قالت : على شرط . قال : قولى . قالت : تمكّنى من عيذك فأشدّها وأقودك حتى اذا توسّطت الموضع الذى اريد حلت الشدّ ثم أفل ذلك بك عند إخراجك حتى أنتهى بك الى مضر بك . قال : شأنك . ففعلت ذلك به . فلما انتهت به الى المضرب الذى ارادت ، كشفت عن وجهه ، فرأى امرأة على كرسي لم ير مثلاً قط جمالاً وكمالاً . فسلم وجلس . فقالت : أنت عمر بن أبى ربيعة ؟ قال . انا عمر . قالت انت الفاضح للحرائر ؟ قال : وما ذاك ، جعلنى الله فداك ! قالت : ألسنت القائل :

قالت وعيش أبى وحرمة والدى لأنّهنّ الحبيّ ان لم تخرج
نخرجت خوف يمينها فتبسّمت فعلمت أن يمينها لم تخرّج^(١)
فتناولت رأسى لتعرف مسّه بمخضّب الأطراف غير مُشنج^(٢)
فلثمت فاها آخذاً بقرونها شرب النزيف يرد ماء الحشرج^(٣)
ثم قالت : قم فاخرج عني ! ثم قامت من مجلسها وجاءت المرأة
فشدّت عينيه وقد دخله من الكآبة والحزن ما لا طاقة له به ، وبات

(١) من الخرج وهو الضيق . يريد انها لم تحلف معترمة الحرس على البهي

(٢) مسح : مفض (٣) القرون : أفرع السعرة - والرنف : كالمرووف هو الطائر الذى حف لسانه من العطش . أو هو المحموم الذى منع الماء - والحشرج : النقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصمو ويطب

ليلته . فلما أصبح اذا هو بها . فقالت : هل لك في الدود ؟ فقال شأنك .
ف فعلت به مثل فعلها بالأمس حتى انتهت به إلى الموضع ، فلما دخل اذا
بتلك الفتاة على كرسى . فقالت : إيه يا فضاح الحرائر ! قل : بماذا ؟
جعلنى الله فداك ! قالت : بقولك :

وناهدة المديين قات لها اتكى على الرمل من جبانة لم توسد
فقالت على اسم الله أمرك طاعة وان كنت قد كلّفتُ ما لم أعود
فلما دنا الاصبح قالت فضحتنى فقم غير مطرود وان شئت فازدد
ثم قالت قم فاخرج عني ! فقام فخرج ثم رُدَّ ، فقالت له : لولا وشك
الرحيل ، وخوف الفوت . ومحبتى لمناجاتك والاستكثار من محادثتك ،
لا قصيتك . هات الآن كلمنى وحدنى وأنشدنى ، فكلّم آدب الناس
واعلمهم بكل شىء . ثم نهضت وأبطأت المعجوز وخلا له البيت ، فأخذ
ينظر فاذا هو بتور فيه خلوق ^(١) فأدخل يده فيه ثم خبأها في رُده ^(٢)
وجاءت تلك المعجوز فشددت عينيه ونهضت به تقوده حتى إذا صار على
باب المضرب أخرج يده فضرب بها على المضرب ثم صار إلى مضربه

(١) التور : اناء صبر . قال صاحب الاساس : ومررب باب العمد على امرأة بقول
لجارنها : أعبرنى توبرتك . سمي بذلك لانه يتعاور ويردد . أو سمي بالتور
وهو الرسول الذى يتردد ويدور بين العشاق . ومأخذه من التارة لانه ياره عند
هذا وبارة عندها (٢) الردن : الكم

فدعا غلامانه فقال : أَيْكُمْ يَقْفَى عَلَى بَابِ مِضْرَبٍ عَلَيْهِ خُلُوقٌ كَأَنَّهُ أَثْرُكَفٍ
 فَهُوَ حَرٌّ ، وَلَهُ خَمْسُمِائَةٍ دِرْهَمٍ . فَلَمْ يَبْتَ أَنْ جَاءَ بَعْضُهُمْ فَقَالَ : قُمْ ، فَهَضْ
 مَعَهُ فَإِذَا هُوَ بِالْكَفِّ طَرِيقَةً ، وَإِذَا الْمِضْرَبُ مِضْرَبُ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ
 ابْنِ مَرْوَانَ ، فَأَخَذَتْ فِي أُهْبَةِ الرَّحِيلِ ، فَلَمَّا نَفَرَتْ نَفَرَ مَعَهَا ، فَبَصُرَتْ
 فِي طَرِيقِهَا بِقَبَابٍ وَمِضْرَبٍ وَهَبَاءٍ جَمِيلَةٍ ، فَسَأَلَتْ عَنْ ذَلِكَ فَقِيلَ لَهَا :
 هَذَا عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، فَسَاءَ هَا الْأُمُّرُ ، وَقَالَتْ لِلْعَجُوزِ الَّتِي كَانَتْ تَرْسَاهَا
 إِلَيْهِ : قَوْلِي لَهُ نَشَدْتُكَ اللَّهَ وَالرَّحِمَ أَنْ تَصْحَبَنِي ، وَيَحْكُ مَا شَأْنُكَ وَمَا
 الَّذِي تَرِيدُ ؟ أَنْصَرِفْ وَلَا تَفْضَحْنِي وَتُشْطِطَ بِدِرْمِكَ ^(١) ، فَسَارَتْ الْعَجُوزُ
 إِلَيْهِ فَأَدَّتْ مَا قَالَتْ لَهَا فَاطِمَةُ ، فَقَالَ : لَسْتُ بِمَنْصَرَفٍ أَوْ تَوَجَّهَ إِلَى
 بِقْمِيسِهَا الَّذِي يَلْبَسُ جِلْدَهَا . فَأَخْبَرَتْهَا فَعَمَلَتْ وَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ بِقْمِيسٍ مِنْ
 ثِيَابِهَا فَزَادَ ذَلِكَ شَغَفًا ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَّبِعُهُمْ لَا يَخَالُطُهُمْ حَتَّى إِذَا صَارُوا عَلَى
 أُمِّيَالٍ مِنْ دِمَشْقٍ أَنْصَرَفَ وَقَالَ فِي ذَلِكَ :

ضَاقَ الْغَدَاةَ بِحَاجَتِي صَدْرِي

وَيَثُتُ بَعْدَ تَقَارُبِ الْأُمْرِ

وَذَكَرَتْ فَاطِمَةُ الَّتِي عَاقَبَتْهَا

عَرَضًا فِيهَا لِحَوَاثِ الدَّهْرِ

(١) أَشَاطَ دَمَهُ وَبَدَمَهُ : أَهْدَرَهُ وَعَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْقَتْلِ

ممكورة^(١) رَدْع العبير بها جمُّ العظام لطيفة الخصر^(١)
وكان فاهها عند رَقْدَتِها تجرى عليه سُلَافَةُ الحمرِ
شَرَقًا بذَوْبِ الشَّهْدِ يخلطه^(٢) بالزنجبيل وفأرة التجر^(٢)
عرضت لنا بالخيْفِ في بقر
نَقَرُوا الكَبَاثَ ونَاضِرَ السِّدْرِ^(٣)
وجَلَّتْ أَسِيلًا بَوْمَ ذِي خُشْبٍ رِيَّانٌ مِثْلُ فُجَاءَةِ البَدْرِ^(٤)
فَسَبَتْ فُؤَادِي إِذْ عَرَضَتْ لَهَا يوم الرحيل بساحة القصر
بِمَزِينِ رَدْعِ العَبِيرِ بِهِ^(٥) حَسَنَ التَّرَائِبِ وَاضِحَ النَجْرِ^(٥)
وبجيدِ آدَمَ شَادِنٍ خَرِقٍ يرعى الرياض ببلدةٍ قَفَرٍ^(٦)

- (١) الممكورة : الحساء المسدود الساقبين المحكمة التكوين . والردع أثر الطيب في الخلد - والعبر الرعفران أو احلاط من الطيب . وحجم العظام : دققتها مكثرة اللحم . والقاس أن يقول : حماء . ولكن إن أبى ربعة كسير الساهل في صواط العرب
- (٢) النجر : جمع ناجر والفأرة نأجه المسك . قال صاحب الفاموس : أوالصوان إيراد فارد المسك في فور لموران راثمتها أو يحور همرها لأنها على هيئة الفأرة . وقيل لأعرابي : أنهمم الفأرد ، فقال : الهرة همرها . وعرض الساعر من هذا اليب والذى قبله وصف لعر المحبوبة بطيب السكة وعدونه المداق (٣) نقرو : تتدع - والكبات كسحاب المضج من ثمر الأراك - والسدر : شجر السق (٤) الاسيل : الرقيق - ودو خسب بصمبب واد على مسيرة ليلة من المدينة له ذكر كثير في الحديث والمعاري
- (٥) الترائب جمع نرسة وهي موضع القلادة من الصدر (٦) الجند : العنق - والادام من الطاء مافه أدمة وهو لون مشرب بابضا ، وهي في الانسان السمرة فيقال : رجل آدم اللون أى أسمره - والسادن : الظبي الذى شدن أى قوى واستغنى عن أمه وهو أول العهد بالمرح وجنون السباب - والخرف هو الحائف المتحير

لَمَّا رَأَيْتَ مَطِيَّهَا حَزَقًا خَفَقَ الْفؤَادُ وَكُنْتَ ذَا صَبْرٍ^(١)
وَتَبَادَرْتَ عَيْنَايَ بَعْدَهُمْ وَانْهَلَّ دَمْعُهُمَا عَلَى الصَّدْرِ
وَمِنْ شَعْرِهِ فِيهَا وَقَدْ جَدَّ بِهَا الرِّحِيلُ

كَدْتُ يَوْمَ الرِّحِيلِ أَقْضَى حَيَاتِي لَيْتَنِي مَتُّ قَبْلَ يَوْمِ الرِّحِيلِ
لَا أَطِيقُ الْكَلَامَ مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ — د وَدَمْعِي يَسِيلُ كُلُّ مَسِيلِ
ذَرَفَتْ عَيْنُهَا فَفَاضَتْ دَمُوعِي وَكَلَانَا يَلْقَى بَلْبٌ أَصِيلِ
لَوْ خَلَّتْ خَلَّتِي أَصَبْتُ نَوَالًا وَحَدِيثًا يَشْفِي مَعَ التَّنْوِيلِ
وَلَظَلَّ الْخُلُخَالُ فَوْقَ الْحَشَايَا مِثْلَ أَثْنَاءِ حَيَّةٍ مُقْتُولِ^(٢)
وَلَقَدْ قَالَتْ الْحَبِيبَةُ لَوْلَا كَثْرَةُ النَّاسِ جُدْتُ بِالتَّقْبِيلِ
لَيْسَ طَعْمُ الْكَافُورِ وَالْمَسْكِ شَيْبَا ثُمَّ مُعَلَّا بِالرَّاحِ وَالزَّجْبِيلِ^(٣)
حِينَ تَنْتَابُهَا بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهِ — هَا طُرُوقًا إِنْ شِئْتَ أَوْ بِالْمَقِيلِ^(٤)

(١) الحزق جمع حرقه بالكسر وهي الجماعه (٢) الحشاياء جمع حسه وهي الفراس المحنوه — وأساء الحبة مطاوبها وبضاعفها اذا شئت ، وجري وصفها مذكرا اذا كانت لا تقصر على التأنيث (٣) شدا : مزح من السوب وهو المرج — وعلا : من العلل بفتحين وهو الشرية الثابتة أو الشر بعد الشر تباعا ، نقابل الهل بفتحين وهو الشر الاول — والمراد من عل الكافور والمسك بالراح والرنخسل اصافه الأخيرين الى الاولين لبتألف منها الشراب (٤) نتابها : نزورها . من الاساب وهو الابان مرة بعد أخرى — والطروق : زيارة الليل — والمقبل : راحة الظهيرة . والشاعر يصف محبته بطيب المم في وقت القيلولة وعند هداة الليل لان هذا أدل على قوة الصبا اذا كانت الافواه سعيعة عادة عند الهجوع

ذلك ظنى ولم أذق طعم فيها لا وما فى الكتاب من تنزيل
رَبْعَةٌ أَوْ فَوْقَ ذَاكَ قَلِيلًا ونزوم الصحنى وحق كسول^(١)
وقال فيها أيضاً هذه الرائية :

يا خليلي شفنى الذِّكرُ ومحمول الحيّ إذ صدروا
ضربوا مُحر القباب لها وأدبرت حولها الحُجُرُ
لو سُقى الاموات ريقتها بعد كآس الموت لا نتشروا
ويكاد الحجل من غصصٍ حين تستأنيه ينكسر^(٢)
ويكاد العجز ان نهضت بعد طول البُهر ينبت^(٣)
أخيام البئر منزلهم أم هم بالعمرة ائتمروا^(٤)
أم بأعلى ذى الأراك لهم مرّبعٌ قد جاده المطر^(٥)
سلكوا شعب النقباب بها زُمراً تحتشها زُمُرُ^(٦)

(١) ربعة ليس بالطويلة ولا بالقصيرة — رزوم الصحنى : كناية عن الزحف اذ لا تمام الصحنى الا المرأه المخدمه التى يقوم وصائفها بما يعيها من مختلف السنون ، وهى لذات مكسال (٢) الحجل بالكسر والفتح الحلخال — العصص : الصيق — واستأنه : تسته (٣) البهر : انقطاع النفس من الاعياء — والبئر : القطع (٤) الشر : اسم لعدة اماكن أكثرها بالمدينه . منها بئر رومة وبئر رثاب وبئر عروة وبئر عندق . ولم يعرف بالضبط ما يقصد الشاعر من بين هذه الآثار (٥) وادى الاراك قرب مكة . قال ياقوت : ودو أراك فى الاشعار (٦) القباب موضع من أعمال المدينة يسعب منه طريقان الى وادى القرى ووادى المياد — وتحت : سوق

وطرقت الحى مكتماً ومعى غضب به أثر^(١)
 وأخ لم أخش نبوته بنواحى أمرهم خير^(٢)
 فاذا ريم على فرش فى حجال الخز مختدر^(٣)
 حوله الأحراس ترقبه نوم من طول ماسهروا
 شبه القتلى وما قتلوا ذاك إلا أنهم سمروا^(٤)
 فدعت بالويل آونة حين أدنانى لها النظر
 ودعت حوراء آنسه حرة من شأنها الخفر^(٥)
 ثم قالت للى معها ويح نفسى قد أتى عمر
 ماله قد جاء بطرقنا ويرى الاعداء قد حضروا
 لشقائى كان علمنا ولحبنى ساقه القدر^(٦)
 قلت عرضى دون عرضكم ولمن ناواكم الحجر^(٧)

- (١) العصب: السيف الماطع - وأثر السيف أفريده (٢) السوة: الحفوة - وحبر: خير
 (٣) الحجال: جمع حجاله، يقتحب وهو قبة ترمى للعروس - ومختدر: ناعس
 (٤) وسمروا من السم وهو حديث الليل . وقد يراد به شرب الخمر
 (٥) الحفر: شدة الحماة (٦) الجب بالفتح الهلاك (٧) العرض هنا النفس
 ومنه قول حسان:

فان أبى ووالده وعرضى لعرض محمد مسك وفاء

وقد يراد به الحسد كما فى الحديث (يجرى من أعراضهم مثل ريح المسك)
 وناواكم: من المناوأة وهى المعادة

أزواجها

كانت فاطمة بنت عبد الملك تحت عمر بن العزيز ، فلما مات عنها
تزوجها داود بن سليمان بن مروان ، وكان قبيح الوجه ، فقال في ذلك
موسى شهوات

أبعد الأغر بن عبد العزيز قريع قريش إذا يُذكرُ
تزوجت داود مخنارةً ألا ذلك الخلف الأعور

فكانت إذا سخطت عليه تقول : صدق والله موسى ، إنك لَأنت
الخلف الأعور ١ — فيشتهمه داود

ولفاطمة بنت عبد الملك أحاديث في فتنة من عاصرها من
الشعراء ، كئنا نود ذكرها لولا إيشار الأبحاز

هند بنت الحارث

هى إحدى جميلات ذلك العصر ، وهى التى أوحى إلى عمر عينيته
التي قرنها القدماء إلى رائيته وفضلوه بهما على جميل ، ولنترك ابن
أبي ربيعة يتمكلم هذه المرة إذ كان حديثه عن هند يشبه ما يعرف
بالاعتراف .

حدث مصعب بن عبد الله عن عثمان بن ابراهيم الخطاطى قال ^(١)
أتيت عمر بن أبي ربيعة بعد أن نسك بسنين وهو فى مجلس قومه
من بنى مخزوم . فانتظرت حتى تفرق القوم ، ثم دنوت منه ومعى
صاحب لى ظريف ، فقال : أعال حتى نهيجه على الغزل فننظر هل بقى
فى نفسه منه شىء ؟ فقلت : دونك ! فقال : يا أبا الخطاب ! لقد
أحسن العذرى وأجاد فيما قال . فنظر عمر إليه ثم قال له : وماذا قال ؟
قال : حيث يقول .

(١) ورد هذا الحديث فى رهر الآداب ج ١ ص ٢٢١ وفى امالى القالى ج ٢ ص ٥٠
وفى الاعلى ح ١ ص ١٧٤ . ومع أن المحدث واحد فقد اختلف العبارات فى هذه
الكتب الثلاثة . وقد اخربنا ما رأيناه أنسب بالساق من غير أن نتقيد نص بعينه

لو جُذَّ بالسيف رأسي في مودتها لمرَّ يهوى سريعاً نحوها رأسي^(١)

ولو بلي تحت أطباق الثرى جسدی

لكنت أبلي وما قلبي لكم ناس

أو يقبض الله روعي صار ذكركم

روحاً أعيش به ما عشت في الناس

لولا نسيمٌ لذكركم يروحي لكنت محترقاً من حرِّ أنفاسي

فارتاح عمر إلى هذه الأبيات ثم قال : يا ويحه ! أبعد ما يُجذُّ

رأسه يميل إليها !

فقلت : والله در جُنادة العذري ! فقال عمر : حيث يقول ماذا

ويحك ! فقلت حيث يقول :

سرت لعينك سامي بعد مغفاها فبت مستنبهاً من بعد مسراها^(٢)

فقلت أهلاً وسهلاً من هداك لنا إن كنت تمثالها أو كنت إياها

تأتي الرياح التي من نحو بلدكم حتى أقول دنت منا برياًها

وقد تراخت بنا عنها نوًى قذفٌ هيهات مُصْبِحها من بعد مُسأها^(٣)

من حبها أتمنى أن يلاقيني من نحو بلدتها ناع فينعاها

(١) جد : قطع (٢) مستبّه : مستيقظ (٣) بوى قذف : بعيدة . ومثلها النوى

كما أقول فراقٌ لا لقاء له وتضمير النفس يأساً ثم تسلاها
ولو تموت لراعتنى وقلت لها يا بُؤس الدهر ليت الموت أبقاها
فضحك عمر ثم قال : وأبيك لقد أحسن وأجاد وما أبقى ^(١) ولقد
هيجتما على ساكننا ، وذكرتاني ما كان عنى غائبا ، ولا حدثنكما
حديثا حلوا :

بينما أنا منذ أعوام جالس إذ أتاني خالد الخريّ ^(٢) فقال لى :
يا أبا الخطاب ، مرت بي أربع نسوة قبيل العشاء يردن موضع كذا وكذا
لم أر مثلهن فى بدو ولا فى حضر ، فيهن هند بنت الحارث المريّة ، فهل
لك أن تأتين متنكراً فتسمع من حديثهن ، وتتمتع بالنظر اليهن . ولا
يعلمن من أنت ؟ فقلت له ، ويحك ! وكيف لى أن أخفى نفسى ؟ قال :
تلبس لبسة أعرابي ثم تجلس على قعود فلا يشعرون إلا بك قد هجمت
عليهن ، ففعلت ما قال وجاست على قعود فسامت عليهن ثم وقفت
بقربهن ، فسألننى أن أنشدهن وأحدثهن ، فأنشدتهن لكثير وجميل ،
والاحوص ونصيب وغيرهم ، فقالن لى : ويحك يا أعرابي ! ما أملحك
وأظرفك ! لو زلت فتحدثت معنايو منا هذا فاذا أمسيت انصرفت فى حفظ

(١) فى دهر الآداب انه لم يهش لهذه الايات . وهى فيه مسوّه الى الضررف

(٢) هو خالد بن عبد الله القسرى وكان يرسل اليه ويبر النساء وكان من أهل

العبت فى صباه . والحرب على ورن سكب هو الدليل الحادق

الله ! فأنخت بعيرى ثم تحدثت معهم ، وأنشدتهن ، فسُردن بى وجذِلن بقربى وأعجبهن حديثى . ثم تغامزن وجعل بعضهن يقول لبعض : كأنا نعرف هذا الاعرابى ! ما أشبهه بعمر بن أبى ربيعة ! فقالت إحداهن : هو والله عمر ! فمدت هندیها فانتزعت عمامتى فألقتهَا عن رأسى ثم قالت : هيه يا عمر ! أتراك خدعتنا منذ اليوم ! بل نحن والله خدعناك ، واحتلنا عليك بخالد فارسناذ اليك لتأتينا فى أسوأ هيئة ونحن كما ترى . ثم أخذنا فى الحديث . فقالت هند : ويحك يا عمر ! اسمع منى ، لو رأيتنى منذ أيام وأصبحت عند أهلى ، فأدخلت رأسى فى جيبى ، فلما نظرتُ إلى كعُثْبَى فرأيتَه ملء العين وأُمنيَّة المتمنى ناديت : يا عمراه ! يا عمراه ! فصَحْتُ : يَا لَبِيَّ كَاه ! يَا لَبِيَّ كَاه ! ثلاثا ، ومددت فى الثالثة صوتى . فضحكت ، وحادثتهن ساعة ثم ودعتهن وانصرفت ، فذاك حيث أقوله :
ألم تسأل الأطلال والمتربعا يبطن حُلُمَاتٍ دوارس بلقعا^(١)
إلى السرح من وادى المنعس بُدلت معالمة وبلاؤ ونكباء زَعَزَعَا^(٢)

(١) المترع : مرل القوم فى الربيع - حباب اسم موضع قرب مكة - دوارس جمع دارس وهو النالى - بلقع : قفر (٢) السرح اسم موضع - والمنعس : موضع قرب مكة فى طريق الطائف . ما فيه أبو رجال ووبره يرحم لانه كان دليل أبرهه صاحب الفيل - الوبل : المطر - الكماء : الرمح الذى تسبك عن مهاب الرياح - ورخ رعرع : شديدة . وكذلك رزعاع ورعروع

فِيْبَخْلَن أَوْ يَخْبِرْنَ بِالْعِلْمِ بَعْدَ مَا نَكَانَ فُؤَادًا كَانَ قِدَمًا مَفْجَعًا^(١)
لَهْنَدٍ وَأَتْرَابٍ لَهْنَدٍ إِذِ الْهَوَى جَمِيعٌ ۖ وَإِذْ لَمْ نَخْشَ أَنْ يَتَّصِدَعَا^(٢)
وَإِذْ نَحْنُ مِثْلُ الْمَاءِ كَانَ مِزَاجُهُ

كَمَا صَفَّقَ السَّاقِي الرَّحِيقَ الْمُشْعَشَعَا^(٣)

وَإِذْ لَا نَطِيعَ الْكَاشِحِينَ وَلَا نَرَى لَوْ أَشْ لَدَيْنَا يَطْلُبُ الصَّرْمَ مَوْضِعًا^(٤)
تُنَوِّعُنَّ حَتَّى عَاوَدَ الْقَلْبَ سُقْمَهُ وَحَتَّى تَذَكَّرْتَ الْحَدِيثَ الْمَوْدَعَا^(٥)
فَقَاتِ لِمُطَرِّهِنَ بِالْحَسَنِ إِنَّمَا

ضُرُوتٌ فَهَلْ تَسْطِيعُ نَفْعًا فَتَنْفَعَا^(٦)

وَأَشْرَيْتَ فَاسْتَشْرَيْتَ وَقَدْ كَانَ قَدْ صَحَا فُؤَادٌ بِأَمْثَالِ الْمَهَامَا كَانَ مُوزَعَا^(٧)
وَهَيَّجَتْ قَلْبًا كَانَ قَدْ وَدَّعَ الصَّبَا وَأَشْيَاءَهُ فَاشْفَعِ عَسَى أَنْ تُشْفَعَا^(٨)

(١) نَكَأَ الْحَرْحَ أَدْمَادَ مِنْ حَدِيدٍ . وَكَأَ الْقَلْبَ أَصْرَمَهُ بِالْحَبِّ قَدْ أَنْ يَخْبِرَ بِهِ الْوَجْدَ

(٢) هَوَى جَمْعٌ : مَجْمُوعٌ وَجَمُوعٌ . وَمِنْ لَهْجَتِهِ جَمْعٌ - وَالتَّصَدُّعُ : الْفَرْقُ

(٣) صَفَّقَ الشَّرَابَ : حَوَّلَهُ مِنْ إِنَاءٍ إِلَى إِنَاءٍ لِيَصْفُو - الرَّحِيقُ : الْحَالِصُ مِنَ الْخَمْرِ -

الْمُسْعَعُ : الْمَعْرُوحُ . بِخِلَافِ الْمَصْرُوفِ وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَمْرَحْ وَبِخِلَافِ الْمَقْتُولِ وَهُوَ الَّذِي زَادَ
مِرَاحَهُ فَذَهَبَ سَوْرَتُهُ . قَالَ حَسَنٌ :

إِنِ الْبَى نَاوَلْتَنِي فَرَدَدْنِيهَا قَلْبٌ قَلْبٌ فَلَبَّ فَهَا تَهَا لَمْ تَقْتَلْ

كَلَّتَاهَا حَابَ الْعَصَبِ فِعَاطُنِي نَزَجَاجُهُ أَرْخَاهَا لِلْمَنْصَلِ

(٤) الْكَاشِحُونَ : الْمَعْصُومُونَ - الصَّرْمُ : الْقَطِيعَةُ (٥) تَنْوَعُ : فَعَلَ مَبْنًى لِلْمَجْهُولِ

مِنْ النَّعْبِ وَهُوَ الْوَصْفُ - الْمَوْدَعُ : الْمَعْنُونُ (٦) الْأَطْرَاءُ : الْمُبَالَغَةُ فِي الْوَصْفِ

(٧) أَسْرَادُ فَاسْتَشْرَيْتَ : أَغْرَاهُ فَهَاجَ - مَوْرَعٌ : مَوْلَعٌ . وَقَدْ رَوَى الْبَيْتَ بَيْنَهُمَا مَعَا

كَمَا ذَكَرَ الْقَالِي فِي أَمَالِيهِ (٨) أَشْيَاءُ الْعَصَا هُمْ أَخَوَانُهُ وَأَوْلِيَاءُ مَا فِيهِ مِنَ النَّزَقِ وَالْخُنُونِ

لَنْ كَانَ مَا حَدَّثْتَ حَقًّا فَمَا أَرَى

كَمَثَلِ الْأُولَى أَطْرَيْتَ فِي النَّاسِ أَرْبَعًا

فَقَالَ تَعَالِ انْظُرْ فَقَاتِ وَكَيْفَ لِي	أَخَافُ مَقَامًا أَنْ يَشِيْعَ فَيُشْنَعُ ^(١)
فَقَالَ اكْتَفِلْ ثُمَّ الثَّمِ وَأَتِ بَاغِيًّا	فَسَلِّمْ وَلَا تُكْثِرْ بَأْنَ تَتَوَرَّعًا ^(٢)
فَأَنْ سَأَخْفِي الْعَيْنَ عَنْكَ فَلَا تُرَى	مَخَافَةَ أَنْ يَفْشَوْا الْحَدِيثَ فَيُسْمَعَا
فَأَقْبَاتِ أَهْوَى مِثْلَ مَا قَالَ صَاحِبِي	لِمَوْعِدِهِ أَزْجِي قَعُودًا مُوقِعًا ^(٣)
فَلَمَّا تَوَافَقْنَا وَسَامَتْ أَشْرَقَتْ	وَجُوهٌ زَهَاهَا الْحَسَنُ أَنْ تَتَقَنَّعَا ^(٤)
تَبَاهُنَ بِالْعِرْفَانِ لَمَّا عَرَفْتَنِي	وَقَانَ أَمْرُؤٌ بَاغٍ أَضَلَّ فَأَوْضَعَا ^(٥)
وَقَرَّ بَيْنَ أَسْبَابِ الْهَوَى لِمَتَيْمٍ	يَقْمِيسُ ذِرَاعًا كُلَّمَا قِيسُنْ إَصْبَعَا

(١) يسع : يفتح (٢) اكتمل العبر وتكلمه اذا أحد كساء فعند طرده ثم القى مقدمه على كاهله ومؤخره على عجزه ثم ركب من العفدة والسم . واسم ذلك الكساء الكتمل بالكسر - الناعى : الطالب (٣) أرحى : أسوف - يعير موقع : أنهكه الركوب فكثير آبار الدسر عليه . وحافر موقع : وقعته الحجاره فقطع سنانه (٤) يريد أنها وجود مدلة بحالها فلا تنفع فسهر شدا عن الناظرين اليها - وقد أشار الى هذا المعنى الشماخ بن صرار اذ قال بسف باعته :

كَأَنَّ ذِرَاعَهَا ذِرَاعَ مَدْلَةٍ أَطَارِبُ مِنَ الْحَسَنِ الرِّدَاءِ الْخَبْرَا

(٥) أصل ورد : ذهب عنه - وفي رواه أخرى : أكل ، من الكلال وهو الإعياء - أوسع : أسرع

فلما تنازعنا الأحاديث قان لي أخفت علينا أن نغرّ ونخدعاً
لبالأمس أرسانا بذلك خالداً إليك ويدينا له الشأن أجمعا
فما جئتنا إلا على وفق موعدٍ على ملائمتنا خرجنا له معا
رأينا خلاءً من عيون ومجاساً دميث الرُّبى سهل المحلة ممرعا^(١)
وقلنا كريم نال وصل كرائم فحقّ له في اليوم أن يتمتعا^(٢)

ولعمر في هند شعر كثير ، منه هذه الرائية

يا صاحبي ففما نستخبر الدارا أقوت وهاجت لنا بالنعف تذكارا^(٣)
تبدّل الربع ممن كان يسكنه أدم الظباء به يمشين أسطارا^(٤)
وقد أرى مرةً سرباً به حسناً مثل الجاذر لم يُمسسن أبكارا^(٥)
فيهنّ هندٌ وهندٌ لاشبيه لها فيمن أقام من الاحياء أوسارا
هيفاء مقبلةً عجزاء مُدبرةً تخالها في ثياب العصب دينلوا^(٦)

(١) دميث : سهل — الرُّبى جمع ربوه وهى ما ارتفع من الارص — ممرع : مخصب

(٢) وردت قصه عمر مع هدى في الجزء التاسع عشر من الاعانى في أخبار خالد

القسرى من طريق آخر يختلف عما أثنتاه بعض الاختلاف

(٣) أفوت : خلب (٤) أدم جمع ادماء وهى التى أسرب لونها باضاً — أسطار

صفوف ، مفردها سطر ، قال ابن مقبل

لهم ظعن سطر تخال رهاءها اذا ما حارها الآل من ساعه نخلا

(٤) السرب بالكسر القطع من الغلباء والنساء ويبرها — الحاذر جمع جؤدر وهو

ولد البقرة الوحسه (٦) العصب ضرب من البرود يعصب غزله ثم يصبغ ثم يحاك

تَفْتَرُّ عَنْ ذِي غُرُوبٍ طَعْمَهُ ضَرَبٌ تَخَالَهُ بَرْدًا مِنْ مَزْنَةٍ مَارَا^(١)
كَأَنْ عَقْدَ وَشَاحِيهَا عَلَى رِشَاءٍ

يَقْرَوْنَ مِنَ الرُّوضِ رَوْضَ الْحَزَنِ أُمَّارَا^(٢)
قَامَتْ تَهَادَى وَأَتْرَابٌ لَهَا مَعَهَا

هُوَ نَا تَدَافَعُ سَيْلَ الزُّلِّ إِذْ مَارَا^(٣)
يَعْنُ مُورِقَةَ الْإِفْذَانَ دَانِيَةً وَفِي الْخَلَاءِ فَمَا يُؤْنَسُنْ دِيَّارَا^(٤)
تَقُولُ لَيْتَ أَبَا الْخَطَّابِ وَافَقْنَا كَيْ نَلْهُوَ الْيَوْمَ أَوْ نَتَشَدَّ أَشْعَارَا^(٥)
فَلَمْ يَرْعُهِنَّ إِلَّا الْعَيْسُ طَالَعَةً

يَحْمَانُ بِالنَّعْفِ رُكَّابًا وَأَكْوَارَا^(٦)

(١) غروب الاسان مأوَّها . وتقول كأَنْ غروب أسنانها وميص البرق - والضرب :
العسل الانص - مار : سال (٢) يقرؤ : يتبع - والحرى : ما ارفع من الارض
(٣) سيل الزل هو الذى ترل منه الاقدام - ومار السيل اندفع (٤) الافان جمع
فنن بالتحريك وهو العصف - مايؤنس ديارا : لا يلقب أحداً . ويقال : مانه دارى
وديار ودورى ودينور : ليس فيه أحد (٥) وافقا : صادفا (٦) النعف ما انحدر
من حروبه الجبل وارفع من منحدر الوادى ، وهو اسم لعدة أماكن منها نعف وداع ،
ونعف مباسر ، ونعف سويقه ، الذى يقول فيه الاحوص :

وما تركت أيام نعف سويقه لقلبك من سلماك صبراً ولا عزماً

ولم يبين ابن أبى ربيعة النعف الذى يتعمده ، والمرجح أنه يريد نعف محسرو وهو موضع
بين مكة وعرفة ، فقد عينه بقوله من كله ثابته :

وفارس^١ يحمل البازي فقلن لها

ها هم أولاء وما أكثرن إكثارا^(١)

لما وقفنا وعننا ركائبنا بُدِّلن بالعرف بعد الرجع إنكارا^(٢)

قلن انزلوا نعيم دار^٣ بقر بكم أهلا وسهلا بكم من زائر زارا

لما أَلَمَّتْ بأصحابي وقد هجعوا حسبتُ وسط رحال القوم عطارا

من طيب نشر التي تامتك إذ طرقت

ونفحة المسك والكافور إذ ثارا

فقلت من ذا المحيى وانتبهت له^٤ ومن محدثنا هذا الذي زارا^(٣)

قالت محب^٥ رماه الحب آونة^٦ وهيئته دواعي الحب إذ ثارا

مُحَلَّى إزارك سُكْنَى غير صاغرة إن شئت واجزى محباً بادي سارا

وهيئته دواعي الحب إذ ثارا

هذا الذي أعطى مواده عهد

وهيئته دواعي الحب إذ ثارا

والاكوار جمع كور وهو رحل الناقه بأدانه (١) البازي صرب من الصقور .

وحمل البازي إشارة الى الخروج للصيد (٢) عما ركائبنا : حساسها بالأعنه

(٣) يلاحظ أن كلمة «مار» تكررت وكذلك كلمة «زار» وهو غيب في الشعر يسمى

الايضاء . والعرب تستقيحه لدلالته على ضعف مادة الشاعر . ومن القدماء من أجاره

للعرب وحرمه على المولدين . ومهم من لا يستقيحه الا اذا كثر . على انه ينبغي أن يذكر

ما أشربا اليه من أن اس أبى ربه كيرا ما تتسامح في صوابط الشعر واللغة كما كثر

شعراء العصر الاموي

فقد تجشمتُ من طول السرى تعباً

وفى الزيارة قد أبانت أعدارا

إن الكواكب لا يشبهن صورتها وهنَّ أسوأ منها بعدُ أخباراً ^(١)

وفيهما أيضاً يقول :

هاج القريضَ الذَّكَرُ لما غدوا فابتكروا

على بغالٍ مُشَجَّجٍ قد ضمننَّ السفر ^(٢)

فيهنَّ هَندٌ ليتنى ما عُمِّرتُ أَعْمَرُ ^(٣)

حتى إذا ما جاءها حَتَفٌ أَنانى القدر ^(٤)

ومن شعره فى هند تلك الدالية التى استطال بها على الحزين الكفانى

وقد أشرنا إلى ذلك فى أخبار الثريا ، والتى كانت فيما بعد سبباً لثورة

الرشيد بالبرامكة ، وتمزيقهم كل ممزَّق ، حين دسَّ إليه خصومهم

من غناه :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد

(١) وما هى أخبار الكواكب ياسدا عمر ! (٢) شحج جمع شاحح ، والسحاج :

صوب البعل (٣) عمر : عاش طويلاً وهو مبنى للمجهول . ومه : المعمر

(٤) بمعنى أن يكون حياته وفق حياه محبته حتى لا يقع في حيرة نصيب اد نقول :

أهيم بدعد ما حيب فان أمب فواحرنا من دا بهيم بها بعدى

واستبدت مرة واحدةً إنما العاجز من لا يستبد
فلنذكرها هنا كاملة لاهميتها في الادب والتاريخ — قال
زعموها سألت جاريتها وتمرت ذات يوم تبترد^(١)
أكما ينعمتي تبصرني عمر كنّ الله أم لا يتند
فتضاحكن وقد قلن لها حسن في كل عين من تود
حسداً حملنه من أجلاها وقدما كان في الناس الحسد
غادة تفرّ عن أشنبها حين تجلوه أفاح أو برّد^(٢)
ولها عينان في طرفيها حورٌ منها وفي الجيد غيد^(٣)
طفلةٌ باردة القيظ إذا معمران الصيف أضحي يتقد^(٤)

- (١) هذه رواية الديوان طبع بسبك . وقد أُنْتباه فيما سلف كما رواه الاعلى .
ولقد قالب لجارات لها داب يوم وتمرت تنرد
وابرد الماء : صه عليه باردا . أو سر به لبرد به كده . والمراد المعنى الاول
- (٢) العادة : المرأة الناعمة اللينة — والأشنب : من السب التحريك وهو ردورقة
وعدونه في الاسان — والافاحي جمع الافحوا وهو زهر ابص لسه به الاسنان
— والبرد بالتحريك حب العمام (٣) الحور : شدة ناص العين مع شدة سوادها
أو هو اسودادها كلها كما في الطباء ، ولا يكون في الاسان وانما يستعار له — والعيد :
الملل ، وعبد كفرح مالب عنقه ولايت أعطافه . والعبداء : المثنية ليا . وعابد : تمايلت
والاعبد من الباب الناعم المتني . والاسان الاعد هو الذي يتهدى من المعومه واللين
(٤) الطفل بالفتح الرخص الناعم من كل شيء — القبط : الحر . أو هو صميم الصيف .
وقاط اليوم اشتد حره

سُخْنَةُ الْمَشْيِ حَافٌ لِّلْفَتَى تَحْتَ لَيْلٍ حِينَ يَغْشَاهُ الصَّرْدُ^(١)
وَلَقَدْ أَذْكَرَ إِذْ قَلْتُ لَهَا وَدُمُوعِي فَوْقَ خَدَيَّ تَطَّرَدُ
قَلْتُ مَنْ أَنْتَ فَقَالَتْ أَنَا مِنْ شَفَّةِ الْوَجْدِ وَأَبْلَاهِ الْكَمْدِ
نَحْنُ أَهْلُ الْخَيْفِ مِنْ أَهْلِ مَنَى مَا لِمَقْتُولٍ قَتَلَنَاهُ قَوْدُ^(٢)
قَلْتُ أَهْلًا أَنْتُمْ بَغِيَّتَنَا فَتَسْمِيْنَ فَقَالَتْ أَنَا هِنْدُ
إِنَّمَا ضَلَّلَ قَلْبِي فَاحْتَوَى صَعْدَةً فِي سَابِرِي تَطَّرَدُ^(٣)
إِنَّمَا أَهْلَكَ جِيرَانُ لَنَا إِنَّمَا نَحْنُ وَهْمٌ شَيْءٌ أَحَدُ
حَدَّثُونِي أَنَّهَا لِي نَفْثَتْ عُقْدًا حَبِذَا تِلْكَ الْعَقْدُ^(٤)
كَلَّمَا قَلْتُ مَتَى مِيعَادُنَا ضَحَكْتَ هِنْدُ وَقَالَتْ بَعْدَ غَدٍ
وَيَمْنَابِيَّةٌ مَا كَانَ مِنْ سَعَى عَمْرِى إِلَى أَتْرَابِ هِنْدٍ نَذْكُرُ مَا نَقْلُهُ صَاحِبُ
الْأَغَانِي عَنْ الْحَارِثِ بْنِ خَالِدٍ إِذَا قَالَ^(٥) :

(١) الصرد : البرد (٢) القود : القصاص (٣) الصعده : القناة المستويه تبت
كذلك - والسابري : ثوب رقيق جيد - والساعر يصف محبته بأنها قناة تتمايل في
ثوب رقيق (٤) جاء في القرآن الاستعاذه « من شر العائيات في العقد » وهى السواحر
والنفث في العقدة يكون عند الرقية . والشاعر يحدثنا أنها سحرته وأنه بهذا السحر
مغيبط جدلان ، والنفث : النفخ ، والنفائة بالضم ما يبعث المصدور من فيه . وهذا
من نفاثات فلاں : من شعره ، وكانوا يرون الشعر من نفث الشيطان

بلغنى أن الغريض خرج مع نسوة من أهل الشرف ليلا إلى
 بعض المتحدثات من نواحي مكة وكانت ليلة مقمرة ، فاشتقت
 اليهن وإلى مجالسهن ، وإلى حديثهن ، وخفت على نفسى لجماية كنت
 أطأب بها ، وكان عمر مهيباً معظماً لا يقدم عليه ساطان ولا غيره ، وكان
 منى قريباً ، فأتيته فقلت له : ان فلانة وفلانة وفلانة ، حتى سميتهن كلهن ،
 قد بعثنى ، وهن يقرأن عليك السلام ، وقد تشوقنا اليك فى ليلتنا
 هذه لصوت أنشدناه فَوَيْسَقُكُ الغريض — وكان الغريض يغنى هذا
 الصوت فيجيده ، وكان ابن أبى ربيعة به معجباً ، وكان كثيراً ما يسأل
 الغريض أن يغنيه ، وهو

أُمسى بأسماء هذا القلب معمودا إذا أقول صحا يعتاده عيدا^(١)
 كأن أحور من غزلان ذى بقر أهدى لها شبة العينين والجيدا^(٢)
 قامت تراءى وقد جد الرحيل بنا لتنكأ القرح من قلب قداصطيدا
 كأننى يوم أُمسى لا تكلمنى ذو بغية يبتغى ما ليس موجودا^(٣)

(١) معمود: مقتول (٢) دو بقر: واد بين أخيه حمى الريدة

(٣) قال الوليد بن يزيد بن عبد الملك لأخواته دات لليلة: أى لب قاله العرب أعزل؟
 فقال بعضهم قول حمل :

موت الهوى منى إذا مالقها وبحسا إذا فارقتها وبعود
 وقال آخر قول عمر بن أبى ربيعة :

أجری علی موعدها منها فتخلفنی فما أملُّ وما توفی المواعید
 قد طال مطی لو أن الیأس ینفعنی أو أن أصادف من تلقاها جودا
 فلما أخبرته الخبر قال : لقد أزعجتني في وقت كانت الدعوة أحب فيه
 إلى ولكن صوت الغریض ، وحديث النسوة ، ليس له مترك ، ولا عنه
 محیص . فدعا بثیابه فلبسها وقال : امض ! فمضینا نمشی العجل حتی قربنا
 منهم . فقال لی عمر : خففص علیك مشیک . فقعات ، حتی وقفنا علیهن ،
 وهن فی أطیب حدیث وأحسن مجلس . فسامنا ، فنهیبنا ونحفرن منا ،
 فقال الغریض : لا علیكن ! هذا ابن أبی ربیعة والحارث بن خالد جاء
 متشوقین إلى حدیثكن وغنائی . فقالت فلانة : وعلیک السلام یا ابن
 أبی ربیعة ! والله ماتم مجلسنا الا بك ، اجلسا ، فجلسنا غیر بعید ، وأخذن
 علیهن جلا یبهن وتقنعن بأخمرتھن وأقبلن علینا بوجوههن وقلن لعمر :
 کیف أحسست بنا وقد أخفینا أمرنا ؟ فقال : هذا الفاسق جاءنی
 برسالتهن ، وكنتم وقیداً من علة وجدها ^(١) ، فأسرعت الاجابة ،
 ورجوت منكن علی ذلك حسن الاثابة ، فرددن علیه : قد وجب

كأنی حس أسمى لاتكلمنی دو بعة یعی ما لیس موحودا
 فقال الولد حسبك والله بهذا ^(١) الوقید كالموقود هو السدد المرص المشرف
 علی الهلاك

أجرك ، ولم يخب سميعك ، ووافق منا الحارث إرادة . فحدثهن بما
قلت له من قصة غناء الغريض فقال النسوة : والله ما كان ذلك
كذلك ، ولقد نهتنا على صوت حسن ، يا غريض ! هاته ! فاندفع
الغريض يغنى ويقول :

أمسى بأسماء هذا القلب معمودا إذا أقول صحا يعتاده عيدا
حتى أتى على الشعر كله ، إلى آخره ، فكل استحسنه ، وأقبل
على ابن أبي ربيعة فجزاني الخير ، وكذلك النسوة ، فلم نزل بأنعم
ليلة وأطيبها حتى بدأ القمر يغيب ، فقمنا جميعاً ، وأخذ النسوة
طريقاً ، ونحن طريقاً ، وأخذ الغريض معنا ، وقال عمر في ذلك :
هل عند رسم براءة خبرُ أم لا فأى الأشياء تنتظر
وقفت في رسمها أسائله والدمع مثل الجمان مُنحدر
قد ذكرتني الديار إذ درست

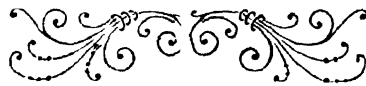
والشوق مما يهيجهُ الذِّكْرُ

لا أنسَ طول الحياة ما بقيت بطيبةٍ روضة لها شجر
ممشى فتاة إلىَّ تخبرني عنهم عشاء يبعث ما أثمروا
ومجلس النسوة الثلاث لدى الخيمات حتى تباج السَّحَر

فبين هند والهم ذكرتها تلك التي لا يرى لها خطر^(١)
ثم انطلقنا وعمدنا ولنا فبين لو طال ليانا وطر
وقولها للفتاة إذ أرف الـ بين أغادٍ أم راحٍ عمر
عجلان لم يقض بعض حاجته ألا تأنّي يوماً فينتظر
الله جاره له وإن نزلت دار به أو بدا له سفر

*
* *

وإلى هنا نكتفي بما قدمنا للقارىء من أخبار الملاح ، وإن يكن
للاحديث بقايا أطيب من عبث الشباب على ضفاف النيل !



رأيت ابن أبي ربيعة

لقد بحثنا لنعرف فيمن قيات هذه القصيدة ، ولكننا لم نصل
بعد إلا إلى فروض بعضها يشبه اليقين . فمن الممكن أن تكون
قيات في عائشة بنت طلحة كما أشرنا إلى ذلك من قبل . فغد سهرت
ليلة لهم ألم بها فقالت : إن ابن أبي ربيعة جاهل باياتى هذه حيث
يقول :

وأعجبها من عيشها ظلُّ غرفة وريّان ملثف الحدائق أخصر
ووال كفأها كل شيء يهوها فليست لشيء آخر الليل تسهر
وقد قلنا إنه لو لم يعنها بهذه الإشارة لما رجعت لها حين قهرها
الحزن في هدأة الليل .

ولكن أستاذنا الدكتور طه يرى أنها إنما تمثت بهذا الشعر
لأن أكثر ولا أقل . وفي الحق أن ما في القصيدة من الحوادث يُبعد
أن تكون قيات في عائشة بنت طلحة ، وإن لم يبعد أن يكون الشاعر
عناها ببعض أطراف الحديث . فقد نهاد قومها عن ذكرها في شعره
وحمله وعيدهم على الاكتفاء بالتاميم

وقد ذكر صاحب الأغاني أن عمر بن أبي ربيعة أنشد عبد الله

ابن عباس شعره في الثريا ، فلما عدنا إلى حديث عمر مع ابن عباس وجدناه
لم ينشده إلا قصيدتين : أولاهما دليته :

تشط غداً دار جيراننا وللدار بعد غدٍ أبعدُ
وأخراهما رائيته :

أمن آل نعم أنت غاد فبكر غداة غد أم رتح فهجّر
أما الدالية فقد ذكر أنه قالها في فاطمة بنت محمد بن الأشعث
الكندي ، ولم يقل فيمن قال الرائية : أفنحسبه قالها في الثريا ؛ المقدمات
ترجح ذلك ، ولكنها لا تفيد اليقين .

وقد نص صاحب الأغاني في الجزء الرابع^(١) أن قالها في امرأة
من قریش يقال لها نعم كان كثيراً لذكرها في شعره ، وكانت تكنى
أم بكر وهي من نى مجح . ويؤيد هذا أن الشاعر ذكر نعماً هذه
في القصيدة ، وإن لم يبعد أن يكون عني غيرها في أثناء القصيد



وقد حاولنا التثبت من نعم التي قيات فيها هذه الرائية فلم نجد
غير أخبار مفتضبة : منها أن ابن أبي ربيعة وابن أبي عتيق كانا جالسين

بِفِئَاءِ الكعبة فمرت بهما امرأة من آل أبي سفيان فدعا عمر بكتاب
فكتب إليها وكنى عن اسمها

أَلِمَّا بذات الخال فاستطاعا لنا على العهد باقٍ ودها أم تصرِّ ما
وقولا لها إن النوى أجنبيَّةٌ بنا وبكم قد خفت أن تتيماً^(١)
فقال له ابن أبي عتيق : سبحان الله ! ما تريد إلى امرأة مسلمة
مُحَرِّمة أن تكتب إليها مثل هذا ! قال : فكيف بما قد سيَّرتَه في الناس
من قولي :

لقد حبَّبت نعمٌ إلينا بوجهها مساكن ما بين الوتائر والنَّقع^(٢)
ومن أجل ذات الخال أعملت ناقي أكَفَّها سير الكلال مع الظلم^(٣)
ومن أجل ذات الخال يوم أقيمتها بمن دفع الأُخباب أخضلني دمي^(٤)
ومن أجل ذات الخال آف منزلاً أحل به لا ذا صديق ولا زرع

(١) أحدا : عصبية صعه المراس (٢) الوتائر : موضع بين مكة والطائف - والنقع :
موضع قرب مكة في حساب الصائف . ذكره العرجي أد قول

لجني والملاء لفت طهرا بأعلى النقع أحب بي نهم
فلما أن رأيت عساي منها أسل الخدم حلق عمم
حتى أنزأها دوني غايها نحو المائدات على السقيم

(٣) الكلال : الإعاة - الطالع : العمر في المشى أو هو العرج (٤) الأُخباب : موضع
قرب مكة . وقيل بلد بنح السوارقيه من ديار بني سليم - وأخضله الدم : بلله

ومن أجل ذات الخال عدت كأني مخامر داء داخل أو أخور ربع^(١)
 أما بذات الخال ان مقامها لدى الباب زاد القلب صدعا على صدع
 وأخرى لدى البيت العتيق نظرتها إليها تمشت في عظامي وفي سمعي
 وحدث مصعب بن عبد الله أن عمر وافقها وهي تستلم الركن ،
 فقترب منها ، فلما رآته تأخرت وبعثت إليه جاريتها فقالت له : تقول
 لك ابنة عمك : إن هذا مقام لا بد منه كما ترى ، وأنا أعلم أنك ستقول
 في موقفنا هذا ، فلا تقولن هُجرا^(٢) . فأرسل إليها : لست أقول إلا
 خيرا . ثم تمرض لها وهي ترمي الجمار فأعرضت عنه واستترت فقال :
 دين هذا القلب من نعم بسقام ليس كالشقم
 إن نعمة أقصدت رجلا آمنا باخيف إذ ترمي
 وحدث مصعب أيضا أنه قيل لعمر بن أبي ربيعة : ما أحب شيء
 أصبته إليك : قال : بينا أنا في منزلي ذات ليلة إذ طرقت رسول
 مصعب بن الزبير بكتابه يقول : انه قد وقعت عندنا أثواب مما
 يشبهك وقد بعثت بها إليك وبدنانير ومسك وطيب وبغلة . قال : فاذا

(١) حامر الداء لازمه - والرابع بالكسر انتهى تأخرا يوما وندع يومين ثم نجى في
 اليوم الرابع (٢) الهجر بالضم المحس . وصال : من أكثر أهدر . أى يطق بالهجر .
 ورماد بالهجران والمهجرات : بالهواش . والهاجرات : الكلمات التي فيها فحش

بثياب من وشى وخزّ العراق لم أر مثلها قط ، وأربعمائة دينار ومسك
وطيب كثير وبغاة ، فلما أصبحت لبست بعض تلك الثياب ،
وتطيبت ، وأحرزت الدنانير وركبت البغلة وأنا نشيط لاهمّ لى قد
أحرزت نفقة سنّى ، فما أفدت فائدة كانت أحبّ إلىّ منها ، وقلت
فى ذلك :

ألا أرسلت نعمّ إلينا أن اتنا فأحبّ بها من مرسل متعصب^(١)
فأرسلت أن لا أستطيع فأرسلت توكدّ أيمان الحبيب المؤنّب
فقلت لجناد خذ السيف واشتمل عليه بخزم وانظر الشمس تغرب
وأخرج لى الدهماء واعجل بمطرى

ولا يعلمن خاق من الناس مذهبي^(٢)
وموءدنا البطحاء أو بطن يأجج

أو الشعب ذو السروح من بطن مغرب^(٣)
فلما التقينا سامت وتبسمت وقالت مقال المعرض المتجنب
أمن أجل واش كشح بنميمة مشى بيننا صدقته لم تكذب

(١) استعص: الذى شدّ العصاه ويقع (٢) الدهماء: برد بها الفرس . من الدهم
وهى السواد . والمطر والمنطرة: كسرها نوب صوف سوى به من انظر (٣) البطحاء
فى الأصل المسيل الواسع فيه دقاق الحصى . وهو اسم لعدد مواضع منها بطحاء مكة -
نأحج : مكان على ثمانية أميال من مكة

قطعت جبال الوصل منا ومن يطعم بذى وده قول المحرّش يعتب^(١)
فبات وسادى رثنى كفّ مخضّب معاود عذب لم يكدر بمشرب
إذا ملت مالت كالكتيب رخيمة منعمة حسانة المتجلبب^(٢)
وحدث أيضاً أن عمر بن أبي ربيعة باغاه أن نهما اغتسلت في غدير
فزل عليه ولم يزل يشرب منه حتى نضب . وامل هذا الحديث من
أظرف ما صاغ الخيال !

وقد روى أنها استقبلت عمر في المسجد الحرام وفي يدها خَلوق
من خَلوق المسجد^(٣) فسحت به ثوبه ومضت وهي تضحك ، فقال :
أدخل الله ربّ موسى وعيسى جنة الخلد من ملانى خَلوقا
مسجته من كفها في قميصي حين طافت بالبيت مسحاً رقيقا
غضبت أن نظرتُ نحو نساء ليس يعرفننى سالكن طريقا
وأرى بينها وبين نساء كنت أهدى بهنّ بوناً سحيقاً^(٤)

ومن جيد شعره في نعم هذه الأبيات
أيها القلب لا أراك تُفَيِّقُ طالما قد تعلقتك العَلُوق

(١) المحرّش : المحرم على الفساد (٢) الحسنه بالصم الحملة

(٣) الخَلوق : ضرب من الطيب (٤) بون سحيق : ورق عيد

هل لك اليوم إن نأت أم بكر وتولت إلى عزاء طريق
 من يكن من هوى حبيب قريباً
 فأنا النازح البعيد السحيق^(١)

قُدِّرَ الحب بيننا فالتقينا وكلانا إلى اللقاء مشوق
 فالتقينا ولم نخف مالتقينا ليلة الخيف والمني قد تسوق
 وجرى بيننا فجدة وصلّا حوّل قلب اللسان رفيق
 لا تظني أن التراسل والبذ ل لـكل النساء عندي يليق
 إن منهن للكرامة أهلاً والذي بينهن بونٌ سحيق



أسأفنا أن عمر أنشد ابن عباس رائيته ، فلنذكر ما رواه صاحب
 الأغاني في ذلك ، قال :

بيننا ابن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق
 وناس من الخوارج يسألونه إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين صبوغين
 موردين حتى دخل وجلس ، فأقبل عليه ابن عباس فقال : أنشدنا
 فأنشده .

(١) ذكر صاحب الأغاني أن هذا البيت ليس من شعر عمر بل أضافه المعنون

أمن آل نعم أنت غاد فبكر غداة غد أم رايح فمهجّر
 حتى أتى على آخرها . فأقبل عليه نافع بن الأزرق فقال : الله
 يا ابن عباس، إنا نضرب إليك أكباد الابل من أقاصى البلاد نسألك
 عن الحلال والحرام فتتناقل عنا ، ويأتيك غلام مُترَف من مترَف قريش
 فينشدك :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيخزى وأما بالعشى فيخسرُ
 فقال : ليس هكذا قال . قال : فكيف قال ؟ فقال : قال :
 رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت

فيضجى وأما بالعشى فيخصرُ

فقال : ما أراك إلا وقد حفظت البيت ! قال : أجل ! وإن شئت
 أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها . قال : فاني أشاء ، فأنشده القصيدة
 حتى أتى على آخرها — ولامه بمض أصحابه في حفظ هذه القصيدة فقال :
 إنا نستجيدها .

وكان بعد ذلك كثيراً ما يقول : هل أحدث هذا المغيرى
 شيئاً بعدنا ؟^(١)

(١) حديث عمر مع ابن عباس روى من طرق مختلفة وعلى صور متعددة ، وما
 أثبتناه هو أوضح صور ذلك الحديث

ولم يقف أثر هذه القصيدة عند إعجاب ابن عباس ، فقد أنشدها
 عمر طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري وهو راكب فوقف وما زال
 شائناً بغلته حتى كتبت له . وكان جريو إذا أنشد شعر عمر بن أبي ربيعة
 قال : هذا شعر تهامى^١ إذا أنجد وجد البرد ، حتى أنشد أبياتاً من هذه
 القصيدة فقال : ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر .

وقال الرشيد للأصمعي : أنشدني أحسن ما قيل في رجل قد لوّحه
 السفر ، فأنشده :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت

فيضحي وأما بالعشي فينصر^٢

أخاسر جوّاب أرض تقاذفت به فلّوات فهو أشعث أغبر
 قليلاً على ظهر المطية رحله^٣ سوى مانقى عنه الرداء المحبّر
 فقال الرشيد : أنا والله ذلك الرجل . وكان هذا بعقب قدومه من
 بلاد الروم . فهذا دليل على أن أولئك الرجال كانوا يرون أنفسهم
 وحوادثهم مصورة في هذه القصيدة

وكان ابن أبي ربيعة نفسه يراها من خير شعره ، فقد حجّ في سنة
 من السنين ، فلما انصرف من الحج لقي الوليد بن عبد الملك وقد فرّش
 له في ظهر الكعبة وجلس ، فجاءه فسلم عليه ، وجلس إليه ، فقال له

أنشدني شيئاً من شعرك . فقال يا أمير المؤمنين ، أنا شيخ كبير وقد تركت الشعر ، ولى غلامان هما عندي بمنزلة الولد ، وهما يرويان كل ماقلت وهما لك ، قال : إئتني بهما . ففعل . فأنشده هذه الرائية ، فطرب الوليد واهتز لذلك ، ولم يزالا ينشدانه حتى قام ، فأجزل صلتته ورد الغلامين إليه ونحسب أن ما أسلفناه يكفي للتمهيد لهذه القصيدة ، فانقدها للقارئ مصحوبة بالشرح والتفسير — قال :

أمن آل نَعَمْ أنت غاد فبكر غداة غدي أم رانح فمجر^(١)
بحاجة نفس لم تقل في جوابها فتبلغ عذراً والمقالة تُعذر^(٢)
تهيم إلى نعم فلا الشمل جامع^(٣)

ولا الحبل . وصل ولا القلب مُقصر

ولا قرب نَعَمْ إن دنت لك نافع ولا نأيها يُسلي ولا أنت تصبر
وأخرى أتت من دون نعم ومثلها نهى ذا النهى لو ترعى أو تفكر^(٣)

(١) غاد فمكر من العدوّة والكثرة وهما الوقت بين ظهور الفجر وطلوع الشمس . وفي القاموس : بكر عليه واله وجه بكوراً . وبكر . واتكر . وأسكر . وكره : أهدى كره . وكل من نادر إلى شيء فقد أسكر إليه في أي وقت كان — والرائح : الذي يسير في الرواح وهو العشي أو من الروال إلى الليل . والمجر الذي يسير في الهاجرة وهي شدة الحر (٢) تعذر : تعذر العذر (٣) النهى بالعقم العقل . ويكون جمع نهية بالصم أيضاً وهي العقل — وارعوى الرجل أقصر عن عيه

إذا زرت نعما لم يزل ذو قرابة لها كلما لاقيتها يتنمر^(١)
 عزيزه عليه أن ألم بيتها يسر لي الشحنة والبغض مظهر^(٢)
 ألكنى إليها بالسلام فانه يشهر إلمامى بها وينكر^(٣)
 بآية ما قالت غداة لقيتها بمدفع أكنان هذا المشهر^(٤)
 أشارت بمدراها وقالت لأختها هذا المغيرى الذى كان يذكر^(٥)
 أهذا الذى أطريت نعتا فلم أكن وعيشك أنسا إلى يوم أقبر^(٦)
 فقالت نعم لاشك غير لونه سرى الليل يحى نصه والتهجر^(٧)
 لأن كان إياه لقد حال بعدنا عن العهد والانسان قد يتغير

(١) يتنمر : يعصب ويثور . والفعل فى الأصل مأخوذ من التسه بالمر لا لايلى
 الامسكرا عصان (٢) ألم بيتها : أنزل به وأمر عليه والشحنة : العداوة . وشاحه : باعنه
 (٣) ألكنى إليها : احم لها ألوكتى ومألكتى وهي الرسالة - ويشهر : يداع ،
 يقال شهر سكدا واشتهر به واشتهر وشهره فهو مشهور وشهر ومسير

(٤) مدفع اكنان : اسم موضع والمدفع فى الأصل بحرى الماء حيث يدفع السيل
 ويجمع على مدافع . ومه مدافع الريان فى قول ليد

مدافع الريان عرى رسمها خلقا كما صمم الوحي سلامها

(٥) هكداروى صاحب الاعانى انشطر الاول من هذا الباب وفى الدنوان « قى
 فانظري أسماء هل يعرفينه » والظاهر أن رواية الاعانى اصح اذ عرفها المتقدمون
 كذلك حيث قال حمير : امرأته طالق ان كانت أشارت اليه بمدراها الا لتفقا بها
 عينه الخ (٦) الاطراء : حسن النساء . والعب : الوصف (٧) نص السرى :
 اسراءه - والتهجر : السير فى الهاجرة وهي شدة الحر

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضتْ

فيضحي وأما بالمشي فيخصر^(١)

أخاسفر جواب أرض تقاذفت به فلوات^(٢) فهو أشعث أغبر^(٣)

قليل على ظهر المطية ظلّه سوى مانق عنه الرداء المحجّر^(٤)

وأعجبها من عيشها ظل غرفة^(٥) وريّان ملتف الحدائق أخضر

ووال كفها كل شيء يهملها فليست لشيء آخر الليل تسهر



وليلة ذي دوران جشميتي الشري وقد يجشم المول الحب المفر^(٦)

فبت رقيباً للرفاق على شفا أحاذر منهم من يطوف وأنظر^(٧)

إليهم متى يستمكن النوم منهم ولي مجلس^(٨) لولا اللبابة أوعر^(٩)

وباتت قلوصى بالعراء ورحلها لطارق ليل أول من جاء معور^(١٠)

(١) يضحى : يمسح الشمس - ويخصر : يعيبه الخصر بالتحريك وهو الرد

(٢) حواب ارس : من الجبوت وهو القطع - والفلوات جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة

(٣) المحجّر : المحسّ الخليل (٤) دو دوران بفتح فسكون موضع بين قديد والجحفة

والتجشيم التكليف (٥) على شفا : على حدر (٦) اللبابة : الحاجة - والاعور : من الوعورة

وهي الحشونة (٧) القلووس : الناقة الفتية - والعراء : الفضاء - ومعور : طاهر يقال :

أعور الفارس اذا بدا منه موضع خلل للضرر

وبت أناجى النفس أين خباؤها وكيف لما آتى من الأمر مصدر (١)
 فدلّ عليها القلب ربّا عرفتها لها وهوى النفس الذى كاد يظهر (٢)
 فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت مصابيحُ شبتْ بالعشاء وأنور (٣)
 وغاب قُمرٌ كنت أهوى غُيوبه وروح رُعيانٍ ونومٌ سمر (٤)
 وخُفّضَ عني الصوت أقبلت مشية الـحُبابِ وشخصى خشية الحى أزور (٥)
 فقيت إذ فاجأتها فتولّتْ وكادت بمخفوض التحية تجهر (٦)
 وقالت وعضت بالبنان فضحتنى وأنت امرؤٌ ميسورٌ أمرٌ أعسر (٧)
 أريتكَ إذ هُنا عليك ألم تخف وقيت وحولى من عدوك حُضّر
 فوالله ما أدري أتعجيل حاجةٍ سرت بك أم قد نام من كنت تحذر
 فقلت لها بل قاذنى الشوق والهوى إليك وما نفسٌ من الناس تشعر

(١) المصدر يقابل المورد. وموارد الأمور : طرق الاقبال عليها . ومصادرها مسالك
 الانصراف عنها . والساعر يذكر كيف بات حيران لا يدري كيف يصدر اذا قدر
 له الورود (٢) انريا : هي الریح الدالعة النى روي من الطيب . قال المتلمس :

فلو أن محمداً بجير مدفا تسقى رباها لأقاع صاله

(٢) انور : جمع نار (٣) روح الرعيان عادوا الى سوتهم — ونوم : نام . والتصنيف
 للعبالة لا للتعدية . ومثله قول ابن مقبل

ثم نومس ونمسا ساعه خضع الطرف سجودا في الخطم

(٤) والسمر : الذين يتحدثون بالليل (٥) الحباب كعراب الجبه — وارور : مائل

(٦) تولّت : قهرها الحزن (٧) تريد أن يسره عسر اد كان هدفا للرقباء

فَقَالَتْ وَقَدْ لَانَتْ وَأَفْرَحَ رَوْعَهَا كَلَّا لَكَ بِحَفَظِ رَبِّكَ الْمَتَكَبِّرِ^(١)
فَأَنْتَ أَبَا الْخَطَابِ غَيْرِ مُدَافِعٍ عَلَى أَمِيرٍ مَا مَكُنْتَ مُؤَمَّرٌ
فِيَالِكَ مِنْ لَيْلٍ تَقَاصِرُ طَوْلُهُ وَمَا كَانَ لَيْلِي قَبْلَ ذَلِكَ يَقْصُرُ
وِيَالَكَ مِنْ مَلَهَى هُنَاكَ وَمَجَاسٍ لَنَا لَمْ يَكْدِرْهُ عَلَيْنَا مَكْدَرُ
يَمُجُّ ذِكِّيَ الْمَسْكِ مِنْهَا مَفْلَجٌ نَقَى الثَّمَايَا ذُو غُرُوبٍ مُؤَسَّرٌ^(٢)
تَرَاهُ إِذَا مَا افْتَرَّ عَنْهُ كَأَنَّهُ حَصَى بَرْدٍ أَوْ أَفْحَوَانَ مَنُورٌ^(٣)
وَتَرْنُو بِعَيْنَيْهَا إِلَى كَمَا رَنَا إِلَى ظُبِيَّةٍ وَسَطِ الْحَمِيلَةِ جُوْدَرٌ^(٤)

فَلَمَّا تَقَضَّى اللَّيْلُ إِلَّا أَقْلَهُ وَكَادَتْ تَوَالِي نَجْمُهُ تَتَغَوَّرُ^(٥)
أَشَارَتْ بِأَنَّ الْحَيَّ قَدْ حَانَ مِنْهُمْ هُبُوبٌ وَلَكِنْ مَوْعِدُكَ عَزُورٌ^(٦)

(١) أفرح روعها: هدا قلبها. وانروع بالضم القاب. وفي أسس البلاغة ندر محشور
« أفرح روعك: أي حلا قلبك من أهم خلو النعمة من الفرح. قال:

وقيل للفؤاد أن يرانك بـ روة من ارووع أفرح أكثر الرووع بطله

وهذا طاهر وأما أفرح روعك فمن رواء الفتح فوجه أن يريد روال ما يتوقعه

المرءع وإذا زال ذلك انقلب الرووع أم »

(٢) مسك دكي: سامع الرائحة — ونعر مفلح وأفلح من الفلح بالتحريك وهو

تباعد ما بين الأسنان — وعرب النعر مأوذ وبريقه — ومؤسر: فيه أسر وهو حسنة

وتحريز أطرافه (٣) الأفحوان: زهر أبص اسمه الأسد (٤) ترو: تنظر في

رقه وتكسر — والحليلة: الموضع الكبير السجر — والخودر: هو ولد الطيبة والقررة

الوحشبة (٥) تتغور: يعيب (٦) عزور: ثبه بن مكة والمدينة. وقيل: جبل مقابل

رضوى. وقد ورد ذكره في رائته له أخرى اد يقول:

فما راغى إلا مُنادٍ ترحّلوا

وقد لاح معروفٌ من الصبح أشقر^(١)

فلما رأت من قد تنبّه منهم وأيقاظهم قالت أشير كيف تأمر

فقلت أباديهم فامّا أفوتهم^(٢) وإما ينال السيّف ناراً فيثأر^(٣)

فقلت أتُحقيقاً لما قال كاشحٌ علينا وتصديقاً لما كان يُؤثر^(٤)

فإن كان مالا بد منه فغيرُهُ من الأمر أدنى للخفاء وأستر

أقصُّ على اختى بدء حديثنا ومالى من أن تعلمّا مُتأخراً^(٥)

لعلها أن تطالبا لك مخرجا وإن ترحّبا سرّاً بما كنت أخصر^(٦)

فقامت كئيباً ليس فى وجهها دمٌ من الحزن تدرى عبرةً تتحدّر^(٧)

فقامت إليها حرّتان عليهما كساء أن من خزّ دِمَقْسٍ وأخضر^(٨)

فلما أضاء الفجر عما بدا لها درى الخلل والقصر الذى دون عروى

فقلت اعترل رل الطريق فابى ر يعرفنا العمود فسهر

(١) الأشقر هو الذى يعلو رصاصه حمرة (٢) أباديهم : أجهرهم بالعدوان

(٣) الكاشح : المنعص - يؤثر : ينقل . ومه الحديث المأثور (٤) متأخر : تأخر . فهو

مصدر جاء على وزن اسم المفعول . قال دعبيل

وقف الهوى بى حيث أنت فارسى متسأحر عنه ولا متقدم

(٥) السرّ بالطريق . ومه أطلق الأبر وخلا سره - وأخصر : من الحصر

وهو الضيق . والمراد من رحب السرّ هنا سعه الجلبه فى العمل للخلاص (٦) كئيب :

من الكآبة وهى الحرّ (٧) الدِمَقْس : الدباج

نقالت لأختيها أعينا على فتي أني زائراً والأمر للأمر يُقدرُ
 فأقبلتا فارتاعتا ثم قالنا أقلى عليك اليوم فالخطبُ أيسرُ
 بقوم فيمشي بيننا متذكراً فلا سرُّنا يفسو ولا هو يظهرُ^(١)
 فكان مجنّى دون من كنت أتقي ثلاثُ شخصٍ صِ كاعبانٍ ومُعيرُ^(٢)

* *

فلما أجزنا ساحةً الحىّ قان لي أَلَمْ تَتَقِ الأعداءَ والليلُ مقمرُ^(٣)
 وقلن أهذا دأبك الدهرَ سادراً أَمَا تَسْتَحْيِ أَوْ تَرْعَوِي أَوْ تَفَكِّرُ^(٤)
 إذا جئت فانح طرف عينيك غيرا

لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر^(٥)
 فأخر عهد لي بها حين أعرضت ولاح لها خدُّ نقيٍّ ومحجّر

(١) فسو : مدح (٢) الحى والحيه : النرس - والكاع هي انى يهدئها -
 والمقمر هي الى ناعتم الساب وأدرك (٣) حذر المنوع وأحذر وحاوره :
 سار فيه وحامه (٤) السادر : الذى لا يهتم ولا يسي ماسع - وارعوى الرحل :
 رجع عن عبه (٥) حرف أبو على الفارسى هذا اليد فرواه هكذا

وطرفك إما حئت وحامه كما يحسبوا أن الهوى حيث تنظر
 ايصح له أن يقول: إن «كيا» أصلها «كيا» خدوف الباء . فتعقه ابن مالك فقال : هذا
 مكلف بل هي كاف التعادل وما الكاف . واسب الفعل بها لسبها سكي في المعنى وهذا
 البيت بعد نحره يدكر بقول حماد :

وطرفك إما حئت فاحفظه فربيع الهوى نادى من يتبصر
 وأعرض اذا لاقيت عينا نخافها وطاهر بعض إن ذاك أستر
 راجع حرف الكاف في المعنى وحواشه

سوى أننى قد قلت يا نعم قولةً لها والعِناق الأرحميات تُزجر^(١)
 هنيئًا لأهل العامرية نشرها اللـ ذيزد وريّاها التي أتذكر^(٢)
 فقامت إلى عنسٍ تخوّن نبيّها سُرى الليل حتى لجمها متجسّر^(٣)
 وحبسى على الحاجات حتى كأنها بقية لوح أو شجار مؤثر^(٤)

وماء بمومةٍ قليلٍ أنيسه

بسابس لم يحدث به الصيف محضر^(٥)

به مُبتدئى للعنكبوت كأنه على طرف الأرجاء خامٌ منشّر^(٦)
 وردت وما أدري أما بعده وردى من الليل أم ما قد مضى منه أكثر
 فقامت إلى مغلاة أرض كأنها إذا التفتت مجنونة حين تنظر^(٧)
 تنازعنى حرصاً على الماء رأسها ومن دون ما تهوى قليبٌ مُعمور^(٨)

(١) الأرحسات : سسة إلى أرحب . وهو خل . أو قسلة من همدان (٢) النشر : الرائحة الطيبة ومثله الريا (٣) العنس : الدقة الصلبة القوة . وانى : النجم . والمتجسر الذى أصواء الدير (٤) الشجار : حسنة يصيبها السرر . وعود نعمل فى فم الجدى لتلا يرصع . وانفسر : المرقق . وأنشر الحسب بالمتشاور شقه (٥) الموماء : المغلاة - والساس جمع ساس وهو النقر الحالى (٦) الحام الخلد لم يدع . أو لم يباع فيه (٧) مغلاة : قاطعة (٨) القليب : البئر قبل الطوى . فادا طوت ففى العلوى . والقليب فى الأصل التراب المقلوب . والقليب المعور : المنموس . من قولهم : عور عين الركبة إذا كسها وأفسدها حتى يغيب الماء . أو هو المنوع . من قولهم : عور به عن الماء إذا منعت

محاولة للماء لولا زمامها وجذبي لها كادت مراراً تكسر
فلما رأيت الضر منها وأنتى ببلدة أرض ليس فيها مُعَصَّر^(١)
قصرت لها من جانب الحوض منشأ

جديداً كقاب الشبر أو هو أصغر^(٢)

إذا شرعت فيه فليس ملتحق

مشافرها منه قدى الكف مسأراً^(٣)

ولا دَلُوْ إلا القعب كان رشاءه

إلى الماء نِسْعٌ والأديم المضفر^(٤)

فسافت وما عافت وما ردّ شرها

عن الرى مطروق من الماء أكدر^(٥)

(١) المعصر : الملحاً والمنجاة (٢) القاب : المقدار (٣) قدى الكف وقيده بالكسر : قدره - والمسأر : الملقى . وأسأره : أبقاه ، من السؤر بصم فسكون وهو البقية والفضلة ، وقال للمرأة التى حاورت الساب ولم يهرمها الكبر : ان فيها لسؤرة . قال حميد بن ثور :

إراء معاش ما نحل إزارها من الكيس فها سؤرة وهى قاعد

والمشافر جمع مسفر . وهو للممر كالشفة للسان . وشرعت الناقة فى الماء : وردته ،

من الشريعة وهى مورد الساربة

(٤) القعب : القدح الصخيم - والرشاء : الجبل . والنسع بالكسر : سير ينسج

عريضاً على هيئة أعمه الحال تشد به الرحال ، والقطعه منه سعة . والأديم : الجلد

(٥) ساف من السوف وهو الشم . يقال سافه واستافه إذا شمه .

لامية جميل

مرت الإشارة إلى هذه القصيدة في المحاضرة الثالثة ، ولكننا رأينا أن نثبتها هنا بجانب رائية عمر ، ليرى القارىء إلى أى حد صدق من قال : إن عمر أشعر من جميل فى الرائية ، وإن جميلا أشعر منه فى اللامية . وقد بحثنا عن نسخة كاملة لهذه القصيدة ، فلم نجد غير ما أثبتته صاحب الاغانى فى ترجمة جميل ، ثم حاولنا الموازنة بين القصيدتين فلم نجد ما يبرر وضعهما فى الميزان ، إذ كانت رائية عمر أجمل بلا مرأى . وجاء فى الاغانى فى أخبار الغريض : قال الزبير فيما اخبرنى به الحرمى ابن أبى العلاء عنه : من الناس من يفضل قصيدة جميل اللامية على قصيدة عمر . وأنا لا أقول هذا ، لأن قصيدة جميل مختلفة غير مؤتلفة ، فيها طوالع النجد ، وخوالد المهد ، وقصيدة عمر بن أبى ربيعة ملساء المتون مستوية الأبيات ، آخذ بعضها بأذنان بعض ، ولو أن جميلا خاطب فى قصيدته مخاطبة عمر لأرتج عليه ، وعثر كلامه به — قال جميل :

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلى

بثينة أو أبدت لنا جانب البخل

يقولون مهلاً يا جميلُ وإننى لأقسمُ مالى عن بُثينة من مهل
أرحمًا فتقبل اليومَ كأن أوانه
أم اخشى فتقبلَ اليومَ أوعدت بالقتل
لقد أنكحوا جهلاً « نديها » ظمينةً
لطيفةً طيَّ الكشح ذات شوئى خدل^(١)
وكم قد رأينا ساعياً بنميمةٍ لا آخرَ لم يعمد بكف ولا رجل

* *

ألا أيها البيت الذى حيلَ دونه بنا أنت من بيت وأهلك من أهل
ثلاثة أحيات فبيتُ أحبه وبيتان ليسا من هواى ولا شكلى
إذا ما تراجعنا الذى كان بيننا
جرى الدمع من عيني بثينة بالكحل
كلانا بكى أو كاد يبكى صباة إلى إلفه واستعجلت عبرةً قبلى
أيت مع الهلاك ضيفاً لأهلها
وأهل قريب موسعون ذوو فضل^(٢)

(١) بنيه: اسم علم، وهو بنيه بن الأسود العذرى - الكشح: الحصر، السوى: الاطراف

(٢) الهلاك: الصعاليك الذين يفتابون الناس انتعاء معروفهم

خلو تركت عقلي معى ما طلبتها ولكن طلايها لما فات من عقلي
فياويح نفسي حسب نفسى الذى بها

وياويح أهلى ما أصيب به أهلى

وقالت لا تراب لها لا زعانف قصار ولا كس الثنايا ولا تُعل^(١)

إذا حميت شمس النهار اتقيها بأكسية الديباج والخزى الحمل^(٢)

تداعين فاستمعمن مشياً بذى الغضا

ديب القطا الكدرى فى الدمث السهل^(٣)

إذا ارتعن أو فزعن أو قن حولها قيام بنات الماء فى جانب الضحل^(٤)

أجدى لا ألقى بثينة مرة من الدهر إلا خائفاً أو على رحل

خليلى فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلى؟

على أن من الحق أن نكرر ما أشرنا اليه فيما سلف من أن عمر

(١) الزعانف جمع رعنفة بالكسر والفتح وهى القصيرة - كس: جمع كساء وأكس

من السكس بالتحريك وهو قصر الاسان - ثعل جمع ثعلاء وأنعل من الثعل

بالتحريك وهو زيادة سن أو دخول سن تحت سن مع اختلاف المايب

(٢) الحمل : الهدب (٣) الكدرى ، كما فى القاموس ، ضرب من القطا عبر

الالوان رقص الظهور صفر الحلق (٤) الضحل : الماء القليل على الارض لا عمق له

ويجمع على أصحال وضحول وضحال

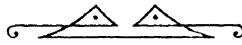
أقل صدقاً في الصبابة من جميل ، فإن لم تشهد هذه اللامية على سبقه فله قصائد ومقطوعات تجمله في الطراز الأول بين أصحاب العواطف والقلوب . أليس هو الذي يقول :

لما دنا البين بين الحى واقتسموا حبلى النوى فهو فى أيديهم قطع
جادت بأدمعها ليلى وأعجلى وشك الفراق فما أبقى وما أدهع
ياقلب ويحك ما عيشى بذى سلم ولا الزمان الذى قد مرّ مرتجع
أكلما بان حى لا تلامهم ولا يبالون أن يشتاق من لجعوا
عاقنتى بهوى مردي فقد جعلت من الفراق حصاة القلب تنصدع
بلى ! وهو الذى يقول :

وما زلت يا بشن حتى لو أننى من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
إذا خدرت رجلى وقيل شفاؤها دعاء حبيب كنت أنت دعايا
وما زادنى النأى المفرق بعدكم سلوا ولا طول التلاقى تقاليا
ولا زادنى الواشون إلا صبابة ولا كثرة الناهين إلا تماذا
لقد خفت أن يغتالى الموت عنوة وفى النفس حاجات اليك كهايا
وإنى لتثنى الحفيظة كلما لقيتك يوماً أن أثبك مايا
ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى أظل إذا لم أسق ريتك صاذا

تأثير ابن أبي ربيعة

في شعراء اللغة العربية



عرف القارئ كيف أثر عمر بن أبي ربيعة في شعراء عصره ،
وكيف حملهم على الاعتراف بتفوقه عليهم في مذاهب النسيب .
فمن الخير أن نعرف كيف أثر فيمن خلفه من الشعراء
وانما عينا من خلف من بعده لأنه غلب على شعراء عصره ،
فأضاف إليه الرواة أثر القصائد التي وُسِّمَتْ بميسمه ، وطُبِعَتْ
بطابعه ، في حوار الملاح .

وكان طبيعياً أن نحاول معرفة من تأثر به ابن أبي ربيعة من
القدماء ، وإن كنا قد ألمعنا إلى ذلك في المحاضرة الثالثة ، فلنذكر الآن
أنه تأثر بامرئ القيس : فجراه في الحديث عن حوادث الليل ،
ومدافعة الأحراس ، ومطاوعة الصبا والحب في هصر أعواد الحسان

وفى الحق أن أكثر ما مرَّ من شعر ابن أبي ربيعة يذكرنا
فى الغرض والأسلوب بقول امرئ القيس :

وبيضة خدرٍ لا يُرام خباؤها تمتعت من لهوبها غير مُعجل^(١)
تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً على حراساً لو يُسرُّون مقتلى^(٢)
إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل^(٣)
فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى السرِّ إلا ابسة المتفضل^(٤)
فقلت يمين الله مالك حيلة^٥ وما إن أرى عنك الغواية تنجلي^(٥)
خرجت بها أمشى تجرُّ وراءنا على أثرينا ذيل مرطٍ مرحل^(٦)
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحت بنا بطن خبت ذى حفاف عتقل^(٧)

(١) بضة الخدر كناية عن العقبة المكدرة المحجبه — عر معجل: عبر مضطر الى المعجلة
(٢) الاحراس والحراس معاها واحد — حراس: جمع حريض — يسرون مقله:
يصمرونه (٣) الوشاح: أديم عريض يرصع بالجوهر لسده المرأة بين عاتقها وكسحها
— والمفصل: هو المرصع بالذهب أو البرجد (٤) نضت ثيابها: نزعها — والمتفضل هو
الذى يلدس ثوبا واحدا حين يأوى الى فراشه (٥) مالك حيلة: هي كله سائبة يراد بها
الدعابة لا التحقير (٦) المرط: كساء من صوف أو خز — المرحل: الذى فيه صور
رحال، كالشجر وهو الذى يحمل صور الاشجار (٧) جزت البكان وأجزته وجاوره
وتجاوزته: قطعه وخلفته — اتحت: قصدت — الحب: الفصاء الواسع — الحفاف
والاحفاف جمع حقف وهو بقا يعوج ويدق — العتقل: الوادى العظيم والكثيب المراكم

هصرت بفودى رأسها فتمايلت	على هضم الكشح ريثا المخاض ^(١)
مهفهفة ^٢ بيضاء غير مفاضة	تراثها مصقولة ^٣ كالسجنجل ^(٢)
كبكر المقناة البياض بصفرة ^٤	غذاها نمير الماء غير المحلل ^(٣)
تصد وتبدى عن أسيل وتتق	بناظرة من وحش وجرة مطفل ^(٤)
وجيد كجيد الريم ليس بفاحش	إذا هي نصته ولا بمعط ^(٥)
وفرع زين المتن أسود فاحم ^٥	أثيث كقمو النخلة المتشكل ^(٦)

(١) هصرت فوديهها وفوديهها : أماتها الى - والفودان : حاما الرأس - هضم الكشح : دقيقة الحصر - ربا المخاض : بعه الساق - والمخلخل : موضع الخلخال (٢) مهفهفة : ضامرة البطن - غير مفاضة : غير مسترخية اللحم ، واسترخاء اللحم من عيوب النساء - التراثب موضع القلادة من الصدر - السججل : انزاة الحلوة (٣) المقناة : الخلط . تقول : قوتى سابها بصفرة . أى خلط . والساعر ينسه خليلته بيضة العام لأول عهدا بمرج الصفرة بالبياض - نمير الماء : صافيه - المحلل : الذى كدرته الابل - وهذا البيت يذكرنا بابن أبى ربيعة اذ يصف معشوقاته كثيرا بالتلف ولين العيش (٤) أسيل : رقيق ، صفة لموصوف محذوف هو الحد - وجرة : مرب للوحش بين مكة والبصرة . قال بعض الاعراب :

وفي الحيرة العادى من بطى وجرة غزال أحمر المقتلين ريب
فلا تحسبى أن العريب الذى بأى ولكن من تتأين عنه غريب

ومطفل : ذات طفل . يريد أن ينظرها فيها عطف وحنان (٥) الجيد : العنق الريم : الظبي - نصته : رفعته - ومعط وعاطل : لاحلية فيه (٦) الفرع : الشعر المتن : الظهر - فاحم : شديد السواد - أثيث : عزيز - متشكل : ذو عناكيل - وهى فى النخيل كالعناقيد فى الاغاب

غداثره مستشزرات إلى العلى تضل المدارى فى مثنى ومرسل^(١)
وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقى المذل^(٢)
وتضحى فتيت المسك فوق فراشها

نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل^(٣)
وتعطو برخص غير شئن كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسجل^(٤)
تضىء الظلام بالمشاء كأنها منارة مسمى راهب متبتل
إلى مثاها يرنو الحليم صباة

إذا ما اسبكرت بين درع ومجول^(٥)
تسات عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادى عن هواها بمنسل^(٦)

(١) الغداثر : حصل السعر . - مستشزرات : مربعات - المدارى : الامساط
(٢) الجدیل : الوشاح - - مخصر : دقيق - السقى على وزن عى مات سقى كثيراً
ويسمى البردى - المذل : اللين (٣) لم تنتطق : لم تلبس المنطق أو المنطق ،
وهو شقه تلبسها المرأة واسد وسطها وترسل الاعلى على الاسفل ويبحر الاسفل على
الارض - والتفصل : لس الثوب الواحد - وعن . ها . بمعنى بعد - أى لم تلبس
المنطق بعد المفصل . يريد أنها أصيلة الترف لم تكن بعد عرى (٤) تعطو : تناول -
رخص : لين ناعم - شئن : خنس - أساريع : جمع أسروع وهو دود أبيض أحمر
الرأس بسبه به الانامل المحصه الاطراف - وطى : اسم واد - والاسجل : شجر
يستاك به (٥) اسكرت : طاب واعتدل - والدرع القميص - والمجول على وزن
منبر ثوب تلبسه الفتاة وتجول فيه قبل أن تخدر (٦) منسل : سال

أَلَا رُبَّ خَصْمٍ فَيْكَ أَلْوَى دَدْتُهُ

نصيح على تعذاله غير مؤتل^(١)

فعلى هذا المنهج جرى ابن أبي ربيعة في محاكاة امرئ القيس ، ولكن أستاذنا الدكتور طه حسين يعكس القضية : فيقرر أن امرأ القيس هو الذى حاكى ابن أبي ربيعة ، إذ يفترض أن شعر امرئ القيس منجول ، وضعه شاعر إسلامي تأثر بعمر ابن أبي ربيعة فخا كاد ، وأجاد المحاكاة والتقليد . وعنده أن هذا النحو من القصص الغرامى فى الشعر هو فن عمر بن أبي ربيعة قد احتكره احتكاراً ، ولم ينازعه فيه أحد ، وأن من الغريب أن يسبق امرؤ القيس إلى هذا الفن ، ويتخذ فيه هذا الأسلوب ، ويُعرف عنه هذا النحو ، ثم يأتي ابن أبي ربيعة فيقلده فيه ولا يشير أحد من النقاد إلى أن ابن أبي ربيعة قد تأثر بامرئ القيس ، مع أنهم قد أشاروا إلى تأثير امرئ القيس فى طائفة من الشعراء فى أنحاء الوصف ، وأنه يبعد أن يكون امرؤ القيس هو منشئ هذا الفن من الغزل الذى عاش عليه ابن أبي ربيعة والذى كَوَّن شخصية ابن أبي ربيعة الشعرية ولا يُعرف له ذلك^(٢)

(١) خصم ألوى : عسر يلتوى على خصمه — غير مؤتل : غير مقصر

(٢) راجع ص ٢٢٢ من الادب الجاهلى

وقد يُلاحظ أن ابن أبي ربيعة أذاع في شعراء عصره فكرة
تقَارُض المودة بين المحبين ، وأظهر ما يكون ذلك في شعر العرجي^(١)
إذ يقول :

وما أنسَ مَلَأْشياءَ لا أنسَ موقفا	لنا ولها بالسَّفحِ دون ثبير ^(٢)
ولا قولها وهنًا وقد بلَّ جيبها	سوابقُ دمعٍ لا يجفُّ غزير ^(٣)
أأنت الذي خَبَرْتَ أنك باكرٌ	غداة غد أو رائحٌ بهجير ^(٤)
فقلت يسيرٌ بعض شهر أغيبه	وما بعض يوم غبته يسير
أحين عصيت العاذلين إليكم	ونازعت حبلى في هواكِ أميرى
وباعدنى فيك الأقاربُ كلهم	وباح بما يخفى اللسان ضميرى
وقلت لها قول امرئٍ شفه الهوى	إليها ولو طال الزمان فقير
فما أنا إن شطت بك الدار أو نأت	بى الدار عنكم فاعلمى بصبور

(١) العرجي هو عبد الله بن عثمان بن عمرو بن عثمان بن عمار وكان يرسل عرج
الطائف فنسب إليه (٢) ثبير : من جبال مكة (٣) الوهن : نحو من نصف الليل
أو بعد ساعه منه (٤) يرى أستاذنا الدكتور طه حسين أنه لا يصح أن يقول : أنت
الذى فعلت هذا ، وإنما تقول : أنت الذى فعل هذا ، فإن القرآن يقول : يا أيها الذين
آمنوا ، ولا يقول يا أيها الذين آمنتم . ونرى أنه لا مانع من أن تقول : أنت الذى
فعلت هذا . بدليل قول العرجي هنا (أأنت الذى حبرت) وقول ابن الدمينه

وأنت التى أخلفتى ما وعدتتى وأشمت بى من كان فيك يلوم
وقول كثير :

وأنت التى حبيب شغبا إلى بدا إلى وأوطانى بلاد سواها

ولنرجع فذكر أننا بحثنا طويلا عن شاعر سلك مسلك عمر
ابن أبي ربيعة في مخاطبة النساء فلم نجد من يقاربه غير بشار بن برد ،
الذى شهد آخر أيام بني أمية وصدر دولة بني العباس ، ففي شعر بشار
قرب من منهج ابن أبي ربيعة في محاوراة الغواني والتودد إلى الملاح ،
وفيه كذلك تأتق في وصف الجوانب الحسية من المرأة المجدولة
الخلق ، المشرقة الجبين . وهو الذى يقول :

ويضاء يضحك ماء الشبا ب في وجهها لك إذ تبسم
رواء العذارى إذا زرنها أطفن بحوراء مثل الصنم
يرحن فيمسحن أركانها كما يمسح الحجر المستلهم
وفي هذا الشعر على يسره وسهولته نفحة من عبادة الجمال ، وهو
يذكرنا بقوله من كلمة ثانية

تلقى بتسيحة من حسن ما خلقت وتستفز حشا الرأى بارعاد
كأنما صوّرت من ماء لؤلؤة فكل جارحة وجه بمرصاد
وقوله من كلمة أخرى يتحدث فيها عن ليلة وصل :

ومرّجة الأرداف مهضومة الحشا تمر بسحر عينها وتدور
إذا نظرت صبت عليك صباة وكادت قلوب العالمين تطير
خلوت بها لا يخلص الماء بيننا إلى الصبح دوني حاجب وستور

وذكر صاحب زهر الآداب أن بشاراً لما قال :
 لا يؤيسنك من محبأة قول تغلظه وإن جرحا
 عُسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعد ما جمعا
 بلغ ذلك المهدي فغاضه ، وقال : يحرّض النساء على الفجور ،
 ويسهلّ السبيل إليه ! فقال له خاله يزيد بن منصور الحميري :
 يا أمير المؤمنين ، قد فتن النساء بشعره ، وأى امرأة لاتصبو إلى
 مثل قوله .

عجبت فطمة من نعتي لها
 هل يُجيد النعت مكفوف البصر ؟
 بنت عشر وثلاث قسّمت بين غصن وكثيب وقمر
 دُرّةٌ بحريةٌ مكنونةٌ مازها التاجر من بين الدرر
 أذرت الدمع وقالت ويلتي من ولوع الكف ركاب الخطر
 أمتى بدّد هذا لُعي ووشاحي حاه حتى انتثر
 فدعيني معه يا أمتى عانّا في خلوة نقضى الوطر
 أقبلت في خلوة تضربها واعتراها كجنون مُستعر
 بأبي والله ما أحسنه دمعُ عين غسل الكحل قطر
 أيها النّوام هبّوا ويحكم وسلوني اليوم ما طعم السهر

فأمره المهدى أن لا يتغزل ، فقال أشعاراً فى ذلك ، منها هذه التائية :

يا منظرًا حسنًا رأيته من وجه جارية فديته

لمعت إلى تسومنى ثوب الشباب وقد طويته^(١)

والله رب محمد ما إن غدرت ولا نويته

أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيته

إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئًا أبيت

ويشوقى بيت الحبيب إذا غدوت وأين بيته

قام الخليفة دونه فصبرت عنه وما قلتيه

ونهاى الملك الهما م عن النساء فما عصيته

لا بل وفيت ولم أضع عهدًا ولا رأيًا رأيته

وفى الحق أننا نجد فى القصيدة الأولى شبهًا قويًا بشعر عمر ابن

أبى ربيعة ، وإنه ليحاكيه حتى فى التغزل بنفسه والتحدث عن أسره

لقلوب النساء . ولو بقى شعر بشار لاستطعنا التثبت مما نراه من التشابه

بين شعر هذين الشاعرين ، ولكن شعر بشار ضاع فلم يبق إلا الاعتماد

على تلك الشواهد الضئيلة فى تأييد ما ذهبنا إليه ، وإن كنا على يقين

من أن لهذا رأى حظًا من الصحة غير قليل

(١) لمعت الى : أشارت

والخلاصة أننا لانجد شاعراً بعد عمر بن أبي ربيعة وقف حياته
وشعره على التشبيب بالنساء ، وإن كنا لانسکر أن كثيراً من الشعراء
نحوا منحاه في القصص الغرامية ، وإن لم يعرفوا بذلك ، فأننا لانشك
في أن الأبيوردي حاكاه حين قال :

تنوّر سناها من بعيد ولا تُرع	فليس على من آنس النار من باس
ومن موقديها عادةً دونها الظبي	تلوح بأيدي غلمة غير أنكاس ^(١)
وكل رُدنيّ كأن سنانه	يعط رداء الليل عنهم بغير اس ^(٢)
مهففةً غرثي الوشاحين دونها	تحرّش عُذّال ورقبة حراس
يضيء لها وجهه يرقّ أديمه	فما ضرّها لورق لي قلبها القاسي
سموت لها والليل حارت نجومه	على أفق عارٍ بظل الدجى كاسي
فهبت كما ارتاع الغزال وأوجست	من ابن أبيها خيفةً أي إيجاس

تشير إلى مُهرى حذار صهيله

وتستكتم الارض الخطي خشية الناس

فقلت لها لا تفرقي وتشبّي بنهّاس أقران ومنّاع أخياس^(٣)

(١) الانكاس جمع بكس بالكسر وهو الضعيف (٢) الرديني : الرمح ، نسبة الى
ردينه وهو رحل كان يثقف السلاح - يعط رداء الليل : يسقه . وقرى (فلما رأى
فيصه عظم من دبر) أي قد - والبراس المصباح (٣) النهس في الاصل أخذ اللحم بمقدم
الاسنان - ومن أسماء الاسد النهاس - والاخياس جمع خيس بالكسر وهو موضع الاسد

تَرَدُّ يَدَيْهِ عَن وَشَاحِكِ عَفَّةٍ ۖ وَعَرَضَ صَقِيلٌ لَا يُزْنُ بِأَدْنَسٍ^(١)
وَطَوَّقَتْهَا يُمْنَى يَدَىٍّ وَصَارِمَى ۖ يُمْسِرَايَ فَارْتَاخَتْ قَلِيلًا لَا يَنَاسَى
وَذَقَتْ عَفَا عَنَّا الْآلَهَ وَعَنْكُمْ

جَنَى رِيْقَةٍ تَلْهَى أَخَاكُمْ عَنِ الْكَاسِ^(٢)

فلما استطال الفجر مال بمطفها وداعى كما هز الصبأ قُضْبُ الآسِ .
ويمكن الحكم بأن أبا نواس جارى ابن أبي ربيعة فى النسب ،
لولا أَنَّهُ غَيْرَ مَجْرَى الْحَدِيثِ ، فنقله من النساء إلى الغلمان ، وجارى
أبا نواس فريق من شعراء الاندلس ، أشهرهم ابن خفاجة الذى يقول
فى وصف ليلة قضاها بين ضلال الهوى وجنون الصهباء

وَلَيْلَ تَعَاطَيْنَا الْمَدَامَ وَيَنِنَا حَدِيثَ كَهَابٍ النَّسِيمَ عَلَى الْوَرْدِ
نُعَاودُهُ وَالْكَأْسُ يَعْبَقُ نَفْحُهُ وَأَطِيبَ مِنْهُ مَا نَعِيدُ وَمَا نَبْدَى
وَنَقْلَى أَقَاحَ الشَّعْرِ أَوْ سَوْسَنَ الطَّلَى وَزَجْسَةَ الْأَجْفَانِ أَوْ وَرْدَةَ الْخَدِ^(٣)

إِنِّى أُنْسِرْتُ فِى جِسْمِهِ الْكَأْسَ وَالْكَرَى

وما لا بعطفه فما لى عضدى

(١) لا يزنى : لا يتهم (٢) يقبل الله دعاء الساعرو وما عا وعنه انه سميع محب !

(٣) القل بالفتح ما يتناول على مائدة الشراب

فأقبلت أستهدى لما بين أضلعي من الحر ما بين الضلوع من البرد
وعاينته قد سُلِّ من وشى بُرده

فعاينت منه السيف سُلِّ من الغمد

ليان مَجَسَّ واستقامة قامَةٍ وهزة أعطاف ورونق إفرد
أغازل منه الغصن في مغرس النقا

وأثم وجه الشمس في مطلع السعد

فان لم يكنها أو تكنه فانه أخوها كما قدَّ الشراك من الجلد
تسافر كلتا راحتيَّ بجسمه فطوراً إلى خصر وطوراً إلى نهـد
فتهبط من كشحيه كفى تهامة وتصعد من نهديه أخرى إلى نجد



مصعب بن عبد الله الزيري

وعدنا في مقدمة هذه الطبعة بكتابة فصل عن مصعب بن عبد الله الزيري الذي قدم شعر ابن أبي ربيعة إلى القدماء ، وقد رأى القارئ أننا نقدناه في المحاضرة الثانية نقداً رآه أستاذنا الدكتور طه حسين إلى الظلم أقرب منه إلى الانصاف ، فلنف بما وعدنا به ، ولنحدد بعد ذلك رأينا في ذلك البحث الطويل الذي كتبه مصعب عن عمر ورآه أستاذنا الدكتور طه من ذخائر الأدب القديم ^(١)

مصعب الزيري هو ابن عبد الله بن مصعب أحد الشعراء المجيدين والخطباء المفوهين ، الذين نادوا أوائل الخلفاء من بني العباس ، وتولوا لهم أعمالاً . وكان خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة على أبي جعفر المنصور فيمن خرج من آل الزبير ، فلما قتل محمد استتر إلى أن حج أبو جعفر المنصور ، وأمن الناس جميعاً فظهر . وكان يُلقب « عائد الكلب » لقوله :

مالي مرضتُ فلم يَعُدْني عائدٌ منكم ويمرض كلبيكم فأعودُ
وأشدُّ من مرضي على صدودكم وصدود عبيدكم على شديد
وذكر الزبير بن يونس أنه دخل على المهدي وإذا هو يكتب على

الأرض بفحمة قول عبد الله بن مصعب

فان يحجبوها أو يحلّ دون وصاها مقالة واش أو وعيد أمير
فلن يحجبوا عيني من دائم البكا ولن يخرجوا ما قد أجنّ ضميري
وما برح الواشون حتى بدت لنا بطون الهوى مقلوبةً لظهور
إلى الله أشكو ما ألاقى من الجوى ومن نفس يعتادني وزفير
ويقول : أحسن والله عبد الله بن مصعب ما شاء ^(١)

ونعود إلى مصعب بن عبد الله فنذكر أننا لما نصل إلى الوقوف
على تفاصيل حياته الأدبية ، وإنما عرفنا مما ينقل عنه صاحب الأغاني
انه كان من كبار الكتاب في القرن الثالث ، واليه يرجع الفضل في تدوين
أكثر أخبار المغنين والشعراء ، وعبارته نقيّة واضحة سايمة لا يشوبها
تكلف ولا غموض . وله شعر جيد لم يبق منه إلا القليل ، وفيه على
نزارته دليل على أنه كان من المبدعين

ويظهر مما قرأناه من أخباره المتفرقة انه كان يعيش في جماعة لها حظ
من المال والجاه والجمال . فكانت حياته لذلك فيها نفحة وجدانية لا يظفر بها
إلا من استظل بأعطاف الحسن الجامح والدّل الغضوب . كان متصلاً
بأحمد بن هشام أخى على بن هشام الذى كتب إليه اسحق الموصلى :
جعلت فداك ، بعث إلى أبو نصر مولاك بكتاب منك إلى يرتفع

عن قدرى ، ويقصر عنه شكرى ، فلولا ما أعرف من معانيه ، لظننت
أن الرسول غلط بي فيه ، فمالنا ولك يا أبا عبد الله تدعنا حتى إذا نسينا
الدنيا وأبغضناها ورجونا السلامة من شرها ، أفسدت قلوبنا ، وعقلت
أنفسنا ، فلا أنت تريدنا ، ولا أنت تتركنا ، فبأى شئ تستحل هذا ؟
أما ما ذكرته من شوقك إلى فلولا أنك حافت عليه لقلت :
يا من شكا عبثا إلينا شوقه شكوى المحب وليس بالمشتاق
لو كنت مشتاقا إلى تريدنى ما طبت نفسا ساعة بفراقى
وحفظتنى حفظ الخليل خليله ووفيت لى بالعهد والميثاق
هيهات قد حدثت أمور بعدنا وشغلت باللذات عن إسحق
قد تركت جمعت فداك ما كرهت من العتاب فى الشعر وغيره
وقلت أحيانا لا أزال أخرج بها إلى ظهر المريد (١) واستقبل الشمال ،
وأنتسم أرواحكم فيها ، ثم يكون ما الله أعلم به ، وإن كنت تكرهها
تركها إن شاء الله

ألا قد أرى أن الثواء قليل وأن ليس يبق للخليل خليل

(١) المريد بالكسر ثم السكون وفتح الباء اسم موضع كان أهم أسواق البصرة ثم
صار محلة عظيمة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء . والمريد
فى الأصل كل شئ حبست فيه الابل ، وأشد الاصمى :

بيت بأبواب القوافى كأننى أصيد بها سرى من الوحش نزعاً
عواصى إلا ما جعلت وراها عصا مريد ينشئ نحورا وأذرا

وإني وإن مُلِّيت في العيش حقبةً كذى سفر قد حانَ منه رحيل
 فهل لى إلى أن تنظر العين مرةً الى ابن هشام فى الحياة سبيل
 فقد خفت أن ألقى المنايا بحسرة وفى النفس منه حاجة وغليل
 وقد تورط مصعب فى صحبة هذه الجماعة ولحقه من تقلُّبها بعض
 الشر والسوء ، حين وقعت الجفوة بين احمد بن هشام واسحق بن ابراهيم ،
 فقد لقي احمدٌ مصعباً فقال له : أما تستحي أنت وصباح بن خاقان المنقرى
 وأتما شيخان من مشايخ المروءة والعلم والأدب أن يشيد بذكركما اسحق
 فى شعره فيقول :

قد نهانا مُصعبٌ وصباحٌ فمصينا مصعبا وصباحا
 عذلاً ما عذلاً ثم ملاً فاسترخنا منهما واستراحا
 فقال له مصعب : ان كان قد فعل فما قال إلا خيراً . انما ذكر
 أننا نهيناه عن خمر شربها ، أو امرأة عشقها ، وقد أشاد باسمك فى الشعر
 بأشد من هذا . قال : بماذا قال بقوله :

وصافية تُعشي العيون رقيقة رهينة عام فى الدنان وعام
 أدربنا بها الكأس الروية موهناً من الليل حتى انجاب كل ظلام
 فما ذرَّ قرن الشمس حتى كأننا من العيِّ نحكى احمد بن هشام
 وكان صباح بن خاقان نديماً لمصعب بن عبد الله . فقال عبدالرحمن
 ابن أبى عبدالرحمن وكان خليعاً من أهل البصرة

من يكن إبطه كآباط ذا الخذاق فإبطاى فى عداد الفقاح^(١)
 لى إبطان يرميان جليسى بشبيهه السلاح بل بالسلاح
 فكأنى من تنن هذا وهذا جالس بين مصعب وصباح
 وقد ظل مصعب وفيا لاسحق الموصلى إلى أن مات فرثاه
 بقصيدة بليغة نفتطف منها الكلمة الآتية :

أندرى لمن تبكى العيون الذوارف وينهل منها واكف ثم واكف
 نعم لامرئ لم يبق فى الناس مثله مفيد لعلم أو صديق ملاطف
 تجهز اسحق إلى الله غاديا فله ما ضمت عليه اللقائف
 وما حمل النعش المزجى عشية إلى القبر إلادامع العين لاهف
 صدورهم مريض عليه عميدة لها أزمة من ذكره وزفاف^(٢)

ذهبت وخليت الصديق بعولة به أسف من حزنه مترادف
 إذا خطرأت الذكر عاودن قلبه تتابع منهن الشئون النوازف
 حبيب إلى الاخوان يرزون ماله وآت لما يأتى امرؤ الصديق عارف
 هو المن والسلوى لمن يستفيدة وسم على من يشرب السم زاعف
 بكت داره من بعده وتنكرت معالم من آفاقها ومعارف
 هى الدار إلا أنها قد تخشعت وأظلم منها جانب فهو كاسف

وقد كان فيها للصديق معرّسٌ وملمّسٌ إن طاف بالدار طائف

سريعٌ إلى إخوانه برضائه وعن كل ماساء الأخلاء صارف
أرى الناس كالنسناس لم يبق منهم خلافاً إلا حشوةٌ وزعانف

* *

أراء مصعب في النفر

كان مصعب من الكتاب والنقاد الممتازين ، ولكن نقده لم يصل
الينا بطريقة تفصيل ما كان له من قواعد وأصول ، فلم يبق إلا الاستئناس
بما تفرق من آرائه لنرى كيف كان يفهم الشعر ، وكيف كان يحكم على الشعراء .
رأيناه يقضى في شعر العباس بن الأحنف وعمرو العراف فيقرر
أنهما « ما ابتدلا شعرهما في رغبة أو رهبة ، ولكن فيما أحبا ، فلزما فنا
واحداً لو لزمه غيرهما ممن يكثر إكثارهما لضعف فيه »

وهذا نظر بعيد من مصعب ، فإن الشاعر الذي يكثر في فن واحد
ويجيد مع الاكثار أولى بالتقدمة ممن يجيد في طائفة من الفنون ، وفي
كلامه تقدير لصدق العاطفة التي تعد أساساً لجودة الشعر البليغ

وقيل له : إن الناس يستبدون شعر العباس بن الأحنف ، فقال .

لقد ظلموه ! أليس هو الذي يقول :

قالت ظَلُومٌ سَمِيَّةٌ الظلم مالى رأيتك ناكل الجسم
يا من رمى قلبى فأقصده أنت العليم بموقع السهم
وهو فى هذا يذكرنا بكثير من القدماء الذين كانوا يحكمون
للشعراء أو عليهم بشواهد من شعرهم من غير أن يبينوا مواطن الضعف
ومواقع القوة ، وكذلك كان يرى أبا العتاهية أشعر الناس إذ قال .

تعلقت بآمال طوال أى آمال
وأقبلت على الدنيا مُلِحًا أى أقبال
أيا هذا تجهّز لـ فراق الأهل والمال
فلا بد من الموت على حال من الحال

ولعل أظهر آثار مصعب فى النقد هو كلمته المطولة فى خصائص
شعر عمر بن أبى ربيعة ، وقد تكلمنا عنها فى المحاضرة الثانية ، وأشار
أستاذنا الدكتور طه فى حديث الادباء إلى أننا أسرفنا فى نقده ، وأن
مصدر هذا الاسراف أننا لم نقدر كما ينبغى اختلاف المثل الأدبية
باختلاف العصور والاجيال

وهذا حق ، إذ كان النقد يتأثر باختلاف الاذواق ، وأنه لا يجب
أن يرضينا ما كان يرضى أسلافنا من قبل ، ولكن أليس فى كلام
مصعب بعد نقدنا له شىء يستحق التقدير ؟

لقد بحثت في ذلك طويلاً ، فرأيت في كلمة مصعب ناحية لها حظ
عظيم من الأهمية ، وذلك أنه أراد التنويه بما أبدع ابن أبي ربيعة من
التمايز ، وأحدث من الصور : من ذلك تحيير ماء الشباب في قوله :
وهي مكنونة^١ تحيّر منها في أديم الخدين ماء الشباب
وغم الطير في قوله :

سراعاً نغم الطير إن سنجت لنا وان تلقنا الركبان لا نتخبر^٢
ومخالفته بسمعه وطرفه في قوله :

سمي وطرفي حليفاها على جسدي فكيف أصبر عن سمي وعن بصري
وإغلاقه رهن مني وإهداره قتلاه في قوله
فكم من قتيل ما يُبَاء به دم^٣ ومن غارق رهنًا إذا لله مني^(١)
وجنّيه الحديث في قوله

فاجتني من الحديث ثماراً ما جنى مثلها لعمر ك جاني
وقياسه الهوى في قوله

وقربن أسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعاً كلما قسن إصبعا
وتشكيه الذي أشجى فيه إذ يقول

(١) ما يباء به دم : لا يؤخذ له بثأر — وغلق الرهن في يد المرتن إذا لم يقدر
الراهن على أوسكاكه في الوقت المشروط

لعمر ك ما جاورت غُمدان طائماً وقصر شعوب أن أكون به صبياً^(١)
 ولكنَّ حمى أضرعتنى ثلاثة مجرّمة ثم استمرت بنا غيباً^(٢)
 وحتى لو أن الخلد يعرض إن مشيت إلى الباب رجلى ما نقلت لها إرباً^(٣)
 فانك لو أبصرت يوم سويقة^{سويقة}
 منأخى وحبسى العيس داميةً حُداً^(٤)
 ومصرع إخوان كأن أنينهم أنين مكأى فارقت بلدأ خصباً^(٥)
 إذاً لا قشعرّ الجلد منك صبايةً ولا ستفرغت عيناك من عبرة سكباً
 وكلمة مصعب مثبتة في الجزء الاول من الانغانى فليرجع اليها القارىء
 فقد يرى غير ما نراه

(١) غمدان : قصر بالين كان من أعاجيب عصره . وقصر شعوب كذلك من قصور
 الين (٢) أضرعتنى : أضعفتنى وأدلتنى . محرمه : كالملة --- والغيب من الحمى ما تأخذ
 يوماً وتدع يوماً (٣) ما نقلت لها إرباً : ما حركت لها عصواً (٤) حدب جمع
 حدباء وهى الدامية التى تقوس ظهرها هزالاً (٥) المكأى جمع مكاء وهو طير يشبه
 القبرة أبلق الجناحين

الجوانب الجديدة

في حياة عمر بن أبي ربيعة

لقد أسلفنا القول في حب ابن أبي ربيعة وشعره ، وقد مناه للقارئ في صورته التي ألفها الناس في حياته ، وتمثلوها بعد مماته . فلم يبق إلا أن نقف قليلا عند الجوانب الجديدة من حياة ذلك الشاعر الغزل الذي لم يره الناس إلا تبَع نساء .

ولنُعِد مرة ثانية ما أشرنا إليه من قبل : فقد قلنا إن كثيراً من حوادثه الغرامية من صُنع الخيال ، وقد قبأناه على علاته ، واكتفينا بتلك الإشارة عند التمهيد لأخبار الملاح ، إذ كانت حوادث ابن أبي ربيعة التي أضيفت إليه تدلنا على شيئين : فهي أولاً علامة على أن المتقدمين أنسوا بروحه ، وأسلموا قلوبهم لوحيه ، فأبدعوا في ظلال ذكره ما شاء الخيال من أحاديث الحب الظافر ، والهوى الغلاب . وهي ثانياً دليل على أنه كان للمتقدمين ميلٌ إلى القصص الغرامي وحظ من الاجادة فيه . فكان من الخير أن نستغل تلك الباكورة القصصية ونحن نتحدث عن هوى هذا الشاعر من حسان النساء .

ومن العجيب أنه لم يلتفت أحد من القدماء ولا المحدثين إلى

حياة هذا الشاعر الجدية ، ولم يخطر ببال باحث منهم أن الدنيا في أحداثها وتصاريقها وأعاجيبها قد تكون الأثم من أن تسمح لشاعر بأن يظل عمره يمرح ويلعب في ميادين الحب ، وملاعب الجمال .

لقد عاش ابن أبي ربيعة سبعين سنة ، وقد حدثونا أنه ودّع لهوّه وهواه بعد الأربعين ، فبالت شعري كيف قضى الثلاثين الباقية ، على فرض أنه أمضى أربعين الأولى ناعم القاب ، وادع الروح ؟ ثلاثون سنة بلا لهو ولا عبث ، ولا تذكر ولا التّباع !

هذا والله كثير على شاعر روى شبابه بصهباء الرّضاب ، وقضى فوق ترائب الملاح ليالى وأياماً كانت كل لحظة فيها خيراً من ألف سنة مما تعدون !

أصحّح أن ابن أبي ربيعة لم يقل كلمة واحدة في بكاء شبابه ، والتوجّع من مشيبه ، وأنه ودّع الشعر وداعاً أبدياً بعد الأربعين ؟ أم كانت له مواقف شعرية لها لونٌ غير ذلك اللون المشرق ، وأن الرواة نسوها أو تناسوها لأن هوائهم كان يقضى ببقاء تلك الشخصية الجذابة في مرحها ولهوها إنتظمت متعة بين نكت السّمَر ، وأطايب الحديث ؟ نحن إذاً لانعرف شيئاً عن الفصل الأخير من تلك الرواية ، لأنهم أسدلوا الستار بعد انقضاء الفصل الثانى حين حاف الشاعر

لا يقول بيتاً إلا أعتق رقبة . فلنبحث أ كان الفصل الأول الذى مثل
لنا الشاعر وهو يعث فى مناسك الحج صحيحاً فى جملته ، أم كان فصلاً
غير محكم الوضع ، ولا متقن التصوير ، أراد واضعه أن يبرز ما فيه
من الجوانب الغرامية ، وأن يغفل الجوانب الجدية ، حاجة فى
نفس يعقوب ؟ !



أكتب هذا وأنا أذكر كلمة الثريا وقد توسل إليها رسول عمر أن
تعطف عليه ، فقد قالت :

« ابن أبى ربيعة فارغ ونحن فى شغل »

وهي كلمة تقرأها باسمين لأنها كلمة نسائية مألوفة من ربات الحجال ،
فانه إذا فرغ عمر وشغلت الثريا فقد حق لنا أن نرتاب فيما نسب إليه
من الفراغ !

ومن العجيب أن هذا الشاعر الذى اتفق القدماء والمحدثون على
فراغه وبطالته هو صاحب هذا البيت :

كُتِبَ القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذبول
وهو بيت عميق الأثر فى النفوس العربية ، وطالما كان لهباً تقبِسُ

منه عزائم الثائرين—وهو كذلك صاحب هذين البيتين :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفّت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرةً واحدةً إنما العاجز من لا يستبد

والقارىء يعلم أن خصوم البرامكة دسّوا إلى الرشيد من غناه بهذا الشعر فتار بالبرامكة ، ومزّقهم كلّ ممزّق ، بفضل روح عمر بن أبي ربيعة الذى ظنوا شعره برداً وسلاماً ، وفيه لو يعلمون أنفاس السّعير !

ولقد حدّثونا أن أخاه الحارث كان ينهائهم عن قول الشعر فيأبى أن يقبل منه ، وأنه أعطاه ألف دينار ، على ألاّ يقول شعراً ، فأخذ المال وخرج إلى أخواله بأحج وأبين ^(١) مخافة أن يهيجه مُقامه بمكة على قول الشعر ، فطرب يوماً فقال :

هيئات من أمةٍ الوهاب منزلنا إذا حللنا بسيف البحر من عدن ^(٢)
واحتلّ أهلك أجياداً فليس لنا إلاّ التذكر أو حظٌّ من الحزن ^(٣)
لو أنها أبصرت بالجزع عبرته من أن يفرّد قمرىً على فنن ^(٤)
إذا رأت غير ما ظنت بصاحبها وأيقنت أن لحجاً ليس من وطنى

(١) لحج وأبين من محاليف اليمن (٢) سف البحر . بكسر السين . هو ساحله

(٣) أجياد : موضع بمكة (٤) القمرى . بضم القاف . ضرب من الحمام ، والأنثى

قرية . والجمع قارى

ما أنسَ لا أنسَ يومَ الخيفَ موقفها وموقفي وكلانا ثمَّ ذو شجن
وقولها للثريا وهي باكية والدمعُ منها على الخدين ذو سنن^(١)
بالله قولى له فى غير مَعْتَبَةٍ ماذا أردت بطول المكث فى يمن
إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها فما أخذت بترك الحج من ثمن
وأن القصيدة سارت حتى سمعها أخوه الحارث فقال : هذا والله
شعر عمر ، قد فتك وغدر !

وأنا لا أصدق أن ابن أبى ربيعة ذهب إلى أخواله باليمن ليفر من
نساء الحجاز ، ولا أقبل أن يكون ابن أبى ربيعة قَبِلَ الرشوة من أخيه
ليتوب يوماً أو يومين قبل أن يموت !

فلا بد إذاً أن يكون قد ذهب إلى اليمن فى شأن من الشؤون
الجدية . ولكن ما هو هذا الشأن ؟ نحن لا نعرفه لأن الرواة لم يحدثونا
عنه ، إذ كان من هواهم أن يخترعوا لهذه القصيدة سبباً طريفاً يضاف
إلى ماله من شهيِّ الاقاصيص

وقد حدثنا صاحب الأغاني أن مسعدة بن عمرو أخرج عمر ابن
أبى ربيعة إلى اليمن فى أمر عرض له ، وتزوجت الثريا وهو غائب ، فليتنا
نعلم أى غرض هذا الذى أخرج من أجله عمر بن أبى ربيعة إلى اليمن ؟

فقد يكون أنشأ هذه النونية في هذه السفرة ، إن لم يكن ذهب إلى
اليمين مرتين لغرضين مختلفين

على أن صاحب الاغانى ذكر في أخبار جميلة أنها لما قضت حجها
سألها المكيون أن تجعل لهم مجلساً ، فقالت : للغناء أم للحديث ؟ قالوا :
لها جميعاً . فقالت : ما كنت لأخلط جداً بهزل ، وأبت أن تجلس
للغناء ، فقال عمر بن أبى ربيعة : أقسمت على من كان في قلبه حب
لاستماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة ، فأتى خارج ، فعزم جماعة من
الاشراف والشعراء على الخروج ، فلما قدمت المدينة تلقاها أهلها
وأشرافها من الرجال والنساء ، فلما دخلت منزلها وتفرق الجمع إلى منازلهم
ونزل أهل مكة على اقاربهم وإخوانهم أتاهم الناس مسلمين ، فلما مضى
لمقدمها عشرة أيام جلست للغناء ، وقالت لعمر بن أبى ربيعة : إني جالسة
لك ولأصحابك ، وإذا شئت قعد الناس لذلك اليوم ، فغصت الدار
بالاشراف من الرجال والنساء ، فابتدأت جميلة فغنت :

هيات من أمة الوهاب منزلنا إذا حللنا بسيف البحر من عدن
فضج القوم من حسن ما سمعوا ، ودمعت عيننا عمر حتى جرى
الدمع على ثيابه ولحيته ، وما راوده كذلك من قبل

وهذه القصة تدلنا على أن ابن أبى ربيعة كان لا يزال ياهو ويتبع

النساء بعد قصيدته التي قالها في اليمن شوقاً إلى الحجاز ، فلم يكن إذاً بالرجل الذي يقبل الرشوة من أخيه ليودع قرعة عينه في الحياة !



وهناك فرض آخر لتوبة ابن أبي ربيعة ، فقد ذكروا أن عمر ابن عبد العزيز لما ولى الخلافة لم تكن له همة إلا عمر بن أبي ربيعة والاحوص فكتب إلى عامله على المدينة :

« قد عرفت عمر ، والاحوص ، بالخبث والشر ، فاذا أتاك كتابي هذا فاشدهما واحملهما إليّ »

فلما أتاه الكتاب حملهما إليه فأقبل على عمر فقال له : هيه فلم أر كالتجمير منظر ناظرٍ ولا كليالي الحج أفلتن ذا هوى وكم مالى عينيه من شئ غيرهِ إذا راح نحو الجمره البيض كالدمى فاذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام فتى يفتنون ؟ أما والله لو اهتممت بأمر حجك لم تنظر إلى شئ غيرك — ثم أمر بنفيه . فقال يا أمير المؤمنين ، أو خير من ذلك . قال : وما هو ؟ قال : أعاهد الله أن لا أعود إلى مثل هذا الشعر ، ولا أذكر النساء في شعر أبداً ، وأجدد توبةً على يدك . قال . أو تفعل ؟ قال نعم . فعاهد الله على التوبة وخلاه

ولم تقف قصة هذا الشعر عند عمر بن عبد العزيز ، فقد ذكروا
أيضاً أن سليمان بن عبد الملك حج وهو خليفة فأرسل إلى عمر بن
أبي ربيعة فقال له : ألسـت القائل :

وكم من قتيل ما يُبَاء به دمٌ ومن غلّقي رهنا إذا لقه مني
قال نعم ، فقال : لاجرم ، والله لا تحضر الحج مع الناس هذا
العام ، وأخرجه إلى الطائف ،
أفكان هذا الشعر بعينه شؤماً على صاحبه إلى هذا الحد :

فَيُمنع من الحج مرة ، وينفى مرة ؟ !
أما أنا فأستبعد ذلك ، وأرجح أن أنصار بني أمية أرادوا أن
يبالغوا في وصف خلفائهم بالحزم والغيرة على الحرمات فصوروا ابن
أبي ربيعة طريداً لعبد الملك بن مروان ^(١) وسليمان بن عبد الملك
وعمر بن عبد العزيز

(١) وفد عمر على عبد الملك فادخل عليه فسأله عن نسبه فانتسب له؛ فقال :

لأنعم الله بعبي عينا تحية السخط اذا القينا

أنت لأأم لك القائل :

نظرت إليها بالمحبص من منى ولى نظر لولا الحجر عارم
فقلت أشمس أم مصاييح بيعة بدت لك تح السجف أم أنت حالم
بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم
ثم قال له : قاتلك الله فما الأملك ! أما كانت لك في بنات العرب مندوحة عن بنات

وهذا ليس بغريب في بابهِ : فقد اخترع أشياع عمر بن الخطاب
حكايةً جازت على الناس إلى اليوم حتى ادخلها شاعرنا حافظ بك إبراهيم
في قصيدته العمريّة ، وهي حكاية نصر بن حجاج ، إذ زعموا أن عمر
سمع امرأة تتغنى في هدأة الليل :

هل من سبيلٍ إلى خمر فأشربَهَا أم هل سبيلٌ إلى نصر بن حجاج
فغضب وطلب نصر بن حجاج فاذا هو فتى وسيم الوجه ، أجمل
ما فيه شعره ، فأمرَ أن يُحلق لتتقَيَ فتنته ، ولكنه نظر فاذا هو أفتن
الناس وهو حليق ، فأمر بنفيه من المدينة !

وأنا لأشك في أن هذا من حديث خرافة ، فما كنت لأصدق
أن عمر بن الخطاب يفرغ لهذه السفاسف أو ينفي فتى لا ذنب له إلا
أنه جميل ، وهو يعلم أنه ينقل فتنته إلى غير المدينة من أمصار المسلمين

عمك ؟ فقال عمر : نُسب والله هذه التحية بأمر المؤمنين لابن العم على شحط الدار ،
وتتأى المزار

وله مع عبد الملك موقف آخر أسرنا إليه في المحاضرة الثالثة . وفي كلا الموقفين يتذكر
عبد الملك ويقف من الشاعر موقف المسيطر العضبان . ولهذا السبب من الحديث دلالة
على حرص أشياع بني أمية في تصوير خلفائهم بصورة الجد والوقار في معاملة الغزليين
من الشعراء

وقد استقصيت أخبار عمر بن أبي ربيعة لأحد ما كان في حياته من الجوانب الجدية ، فرأيت مثلاً أنه كان يشتغل بالدفاع عن قومه بنى مخزوم ، وأنه كان يقارع خصومهم ، وله في ذلك حديثه المشهور يوم نازع اللهبي في المسجد الجامع^(١) . ورأيت أيضاً أنه كان حريصاً مسرفاً في الحرص على الاستبداد بالحياة الأدبية : فكان يعارض جميلًا وجريراً والفرزدق والأحوص ومالك بن أسماء ، وهذا نوع من الجد لو دُوِّنت أخباره لكان أمتع وانفع من أخباره في أيام الطواف . ورأيت كذلك أنه تزوج غير مرة ، وكان له بنون وبنات ، وهذه شئون جدها جد ، وهزلها جد ، لو عُنى بها الرواة لأرونا كيف كان يقابل هذا الشاعر مصاعب الحياة

وقد مرت بالقارئ اشارات إلى مواقفه مع جميل والفرزدق ونُصِب وكثير ، وله معهم حديث آخر سيجيء في باب المُلح والفكاهات فلنذكر هنا حديثه مع مالك بن أسماء ، فقد كان مفتوناً بشعره ، وكان يتشوق إليه منذ سمع قوله

ان لى عند كل نفحة بستاً ن من الورد أومن الياسمينا
نظرةً والتفاتةً أتمنى أن تكونى حلات فيما يلينا

فلما تلاقيا وتعارفا وتماشدا قال له عمر : ما أحسن شعرك لولا
أسماء القرى التى تذكرها فيه . قال : مثل ماذا ؟ قال : مثل قولك :
ان فى الرفقة التى شيّعتنا بجويريسما لزين الرفاق
ومثل قولك :

حبذا ليلتى بتلّ بَوْنًا حيث نُسقي شرابنا ونُغْنَى
فقال له مالك : هى قرى البلد الذى أنا فيه ، وهو مثل ما تذكره
فى شعرك من أرض بلادك : قال : مثل ماذا ؟ قال : مثل قولك
حىّ المنازل قد دثرن خرابا بين الجوين وبين ركن كسابا
ومثل قولك :

ما على الرسم بالبليين لوييَّ - ن رجع السلام أولو أجابا
وفى هذا الحديث نحو من الجد فى نقد الشعر ، ونظن أنه كانت
له اتجاهات أدبية فى المقدم لم يدونها الرواة إذ صرفوا همهم إلى
حياته الغرامية

قلت إنه تزوج غير مرة ، وكان له بنون وبنات ، فلا ذكر أنى
لم أستطع التثبت من عدد زوجاته ولا أبنائه ، لأن الرواة أغفلوا
الإفاضة فى هذا الجانب من حياته الجديدة ، فلم يبينوا كيف كان يعامل

زوجاته ، ولا كيف كان يربي أولاده ، ولا كيف كان يتصرف في شئير أمواله ، وتقويم عبيده وإمائه ، ولم يمينوا « الحوائج » التي ذكروا في غير موطن انه كان يعتمد في قضائها على الخلفاء

ومع أن الرواة حدثونا أنه هجر الشعر بعد الأربعين فقد حدثونا أيضا أنه نظر في الطواف إلى امرأة شريفة فرأى أحسن خلق الله صورة ، فذهب عقله عليها وكلها فلم تجبه ، فقال فيها شعراً جزعت منه فقيل لها اذكريه لزوجك فانه سينكر عليه قوله ، فقالت : كلا والله ، لا أشكوه إلا إلى الله ، ثم قالت : اللهم ان كان نوءه باسمي ظالماً فاجعله طعاماً للريح . فاستجيب دعوتها إذ غدا يوماً على فرس فهبت ريح فنزل فاستتر بسامة ، فعصفت الريح نخدشه غصن منها فدمى وورم به ومات من ذلك . والاختلاق ظاهر في هذا الحديث

ومن الرواة من حدث أنه مات في غزوة . والعجيب أن تدون حوادثه الغرامية بما رأى القارىء من التفصيل ، ولا يتفق الرواة في حديثهم عن وفاته .

أفراهم أنصفوا يوم رأوا الموت غير خليق بعناية الأحياء . !

الملح والفكاهات

رأينا أن نختم هذا الكتاب بطائفة من الملح والفكاهات التي
تتصل بعمر بن أبي ربيعة ليرى القارئ كيف كانت تجري النادرة على
السنة الحجازيين في ذلك الزمان

— ١ —

أنشد عمر بن أبي ربيعة ابن أبي عتيق قوله :

لم تر العينُ للثريا شبيهاً بمسيل التَّلَاعِ يومَ التقينا^(١)

فلما بلغ الى قوله

ثم قالت لاختها قد ظلمنا أن رددناه خائباً واعتدينا

قال : أحسنت والهدايا^(٢) واجادتْ ، ثم أنشد ابن أبي عتيق

متمثلاً :

أرني جواداً مات مُهزلاً لعائى أرى ما ترين أو بخيلاً مخلداً

(١) التلاع جمع تلعة وهي مجرى الماء من أعلى الوادى الى بطون الارض

(٢) الهدايا جمع هدية والمراد بها ههنا ما يهدى الى البيت الحرام من النعم لتحرر

برا بالفقراء

فلما بلغ عمر إلى قوله :
 في خلاء من الانيس وأمن
 قال ابن أبي عتيق : أمكنت للشارب الغدر^(١) ، من عال بعدها فلا
 انجبر^(٢) .

فلما بلغ إلى قوله :
 فكشنا كذاك عشرًا تباعا فقضينا ديوننا واقتضينا
 قال : أما والله ما قضيتها ذهبًا ولا فضة ولا اقتضيتها إياه ،
 فلا عرفكما الله قبيحًا .
 فلما بلغ إلى قوله :

كان ذا في مسيرنا إذ حججنا علم الله فيه ما قد نوينا
 قال : إن ظاهر أمرك ليدل على باطنه ، فأورد التفسير ، ولئن مت
 لا موتن معك ، أفٍ للدنيا بعدك يا أبا الخطاب ! فقال له عمر : بل عليها
 بعدك العفاء يا أبا محمد !

— ٢ —

حدث محمد بن سلام قال : كانت سوداء بالمدينة مشغوفة بشعر عمر
 ابن أبي ربيعة ، وكانت من مولدات مكة ، فلما ورد على أهل المدينة

(١) الغدر جمع غدير وهو مجرى صغير من بقايا السيل (٢) عال : افتقر

نعم عمر بن أبي ربيعة أكبروا ذلك ، واشتد عليهم ، وكانت السوداء أشدهم حزناً وتسلباً^(١) وجعلت لا تمر بسكة من سكك المدينة إلا نذبتة فلقبها بعض فتيان مكة فقال لها : خفضي عليك فقد نشأ ابن عم له يشبه شعره شعره ، فقالت أنشدني بعضه ، فأنشدها قوله

إني وما نحروا غداة مني عند الجمار تؤودها العقل^(٢)

لو بُدِّلت أعلى منازلها سفلاً وأصبح سفلاً يعلو

فيكاد يعرفها الخبير بها فيرده الاقواء والمحل^(٣)

لعرفت مغناها بما احتملت من الضلوع لأهلها قبل

فجعلت تمسح عينها من الدموع وتقول : الحمد لله الذي لم يضيع حرمة !

كذلك روى صاحب الاغانى^(٤) أما صاحب زهر الآداب فقد

قال^(٥) لما مات عمر بن أبي ربيعة نُعيَ لامرأة من مولدات مكة وكانت

بالشام فبكت وقالت : من لا باطح مكة^(٦) ومن يمدح نساءها ، ويصف

محاسنهن ، ويبكي طاعتهن ، فقليل لها : قد نشأ فتى من ولد عثمان بن عفان

على طريقته ، فقالت أنشدوني له ، فأنشدوها :

(١) التسلب : الحداد ، وسلبت المرأة وسلبت على ميتها فهي مسلبة اذا احبب عليه

(٢) تؤودها : تثقلها - العقل : جمع عقال (٣) الاقواء : الاقفار

(٤) ج ٣ ص ١١٤ طبع بولاق (٥) ج ٢ ص ٢٤٠ (٦) جمع ابطح وهو مسيل واسع

لقد أرسلت ليلي رسولا بأن أقم ولا تقربنا فالتجنب أمثل
 لعل العيون الرامقات لودنا تُكذب عنا أو تمام فتغفل
 أناس أمنّاهم فنشوا حديثنا فاما كتمنا السر عنهم تقولوا^(١)
 فما حفظوا العهد الذي كان بيننا ولا حين هموا بالقطيعة أجملوا
 فقلت وقد ضاقت بلادي برحبها على بما قد قيل فالعين تهمل
 سأجنب الدار التي أنتم بها ولكن طرفي نحوها سوف يعمل
 ألم تعلمي أني - وهل ذاك نافعي لديك، وما أخفى من الود أفضل
 أرى مستقيم الطرف ما الطرف أمكم وإن أم طرفي غيركم فهو أحول
 فقلت وقالت : هذا أجلّ عوض ، وأفضل خلف ، فالحمد لله الذي
 خلف على حرمه وأمته مثل هذا

وفي هذا الاختلاف بين رواية القصة كما ذكرها صاحب الاغانى
 وصاحب زهر الآداب ، دليل على أن فيها أثراً للوضع ، أو التحريف ،
 وهي تدلنا على أنه كان معروفاً في ذلك العصر أن في شعر الحارث ابن
 خالد ، وفي شعر العرجي ، مشابهةً بينة لشعر عمر بن أبي ربيعة ، وقرباً
 لمنحاه في التشبيب بالنساء

(١) بث الحديث : أداعه . والنثا : المعتابون . وهو تمثيل للغصة بالنثية وهي رش

وقد ذكر موريس دونيه في حياة ألفريد دى ميسيه الغرامية أنه
 رؤيت سيدة تنعجب في القطار فسألها الناس عن سبب بكائها فقالت :
 يا وبحكم ! ألم تعلموا أن ألفريد دى ميسيه قد مات !
 وكذلك تتشابه الحياة الوجدانية على اختلاف البقاع والأجيال

— ٣ —

قال عبد الملك بن مروان لعمر بن أبي ربيعة : أنت القائل :
 أترك ليلي ليس بيني وبينها سوى ليلة ؟ إني إذاً لصبور^(١)
 فقال : نعم ! فقال : بئس المحب أنت ، تركتها وبينها وبينك
 غدوة ! فقال : يا أمير المؤمنين ، إنها من غدوات سليمان ، غدوها شهر ،
 ورواحها شهر !

— ٤ —

قدم عمر بن أبي ربيعة المدينة من أجل امرأة من أهلها فأقام
 بها شهراً ، فذلك قوله :

بعد هذا اليب

هبوني امرأة أمتكم أضل بعيره له ذمة ان الذمام كبير
 وللصاحب المتروك أعظم حرمة على صاحب من أن يضل بعير
 وينسب هذا الشعر أيضاً لائى دهل الجمحي ومخون بنى عامر (ان صح أنه وجد)
 وفي ذلك تأييد لما أشرنا اليه من أن ابن أبي ربيعة غلب على شعراء عصره فأضاف اليه
 الرواة كثيراً من شعرهم

يا خليلي قد ملئت ثوائي بالمصلي وقد شئتُ البقيما^(١)
 بلغاني ديار هند وسلمى وارجماني فقد هويت الرجوعا
 ثم خرج إلى مكة وخرج معه الاحوص واعتصموا . ثم مرّ أبو دّان^(٢)
 في رواحها فحبسها نصيب وذبح لهما وأكرمهما ، وكان لحقهما سائب راوية
 كثير ، ثم خرجوا وخرج معهم نصيب . فلما جاؤا كُليّة^(٣) عدلوا جميعا
 إلى منزل كثير فقبل لهم هبط قديداً^(٤) وذكر لهم أنه في خيمة من
 خيامها . فقال ابن أبي ربيعة لسائب : اذهب فادعه لي . فقال النصيب
 هو أحمق وأشدّ كبراً من أن يأتيك . فقال عمر اذهب كما أقول فادعه لي .
 فجاءه فمّش له . وقال : اذكر غائباً تره . لقد جئت وأنا أذكرك .
 فأبلغه رسالة عمر ، فحدّد إليه نظره وقال : أما كان عندك من
 المعرفة ما يردعك عن إتياني بمثل هذه الرسالة ؟ فقال : بلى والله !
 ولكني سترت عليك فأبى الله إلا أن يهتك سترك . فقال له : انك والله
 يا ابن ذكوان ما أنت من شكلي . فقل لابن أبي ربيعة : ان كنت قرشياً
 فأنا قرشي . فقال له : لا تترك هذا التلصق ! وأنت تفرق عنهم كما تفرق
 الصمغة ؟ ! فقال كثير : والله لا أنا أثبت فيهم منك في سدوس . ثم قال :

(١) البقيع : الموضع فيه أروم الشجر من ضرور شتى ؛ وهو اسم لعدة مواضع
 بالمدينة (٢) ودان : موضع بين مكة والمدينة يكثر ذكره في شعر نصيب
 (٣) كليه على ورن سمية واد بقرب الجحفة (٤) قديد : اسم موضع قرب مكة

وقل له إن كنت شاعراً فأنا أشعر منك ! فقال له : هذا اذا كان الحكم اليك ، فقال : والى من هو ؟ ومن أولى بالحكم منى اليوم ؟ فرجع سائب إلى عمر فقال : ما وراءك ؟ فقال : ما قال لك نصيب . وأخبره الخبر فضحك وضحك صاحبه ، ثم نهضوا معه اليه ، فدخلوا عليه في خيمة فوجدوه جالساً على جلد كبش . فلم يوسع لابن أبي ربيعة . فلما تحدثوا ملياً وأفاضوا في ذكر الشعراء أقبل على عمر فقال له : أنت تنعم المرأة فتشرب بها ثم تدعها وتنسب بنفسك ، أخبرني يا هذا عن قولك

قومي تصدّئْ له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أخت في خَفَرٍ
قالت لها قد غمزته فأبى ثم استطيرت تشتد في أثرى^(١)
أتراك لو وصفت بهذا هرة أهلك ، ألم تكن قد قبجت ، وأسأت ،
وقلت الهجر ؟ انما توصف الحرة بالحياء والاباء ، والبخل والامتناع ،
كما قال هذا - وأشار إلى الأحوص -

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم مادرت حيث أدورُ
وما كنت زوّاراً ولكن ذا الهوى اذا لم يُزِرْ لا بد أنْ سيزور
لقد منعت معروفها أم جعفر واني إلى معروفها لفقير
فدخلت الاحوص أبهة ، وعُرفت الخيلاء فيه ، فلما استبان ذلك

(١) استطيرت - بالبناء للمجهول : أسرع في الجرى وروى : اسبطرت. والمعنى واحد

كثير قال : أبطل آخرك أولك ، أخبرني عن قولك :

فان تصلى أصلك وان تبينى بصرمك بعد وصلك لا أبالى
ولا ألقى كمن إن رسمَ صرماً تعرّض كى يُردّ الى الوصال
أما والله لو كنت خللاً لما باليت ولو كسرت أنفك : ألا قلت كما

قال هذا الأسود - وأشار إلى نصيب - :

بزئب ألم قبل أن يرحل الركب وقل إن تمأينا فما ملك القلبُ
فانكسر الأحوص ، ودخلت النصيب أبهة ، فلما نظر أن الكبرياء
قد دخلته قال له : وأنت يا ابن السوداء فأخبرني عن قولك

أهيم بدعد ما حييت فان أمت فواكبدى من ذا بهيم بها بعدى
أهمك من ينيكها بعدك ؟

فلما أمسك كثير أقبل عليه عمر فقال له : قد أنصتنا لك فاسمع
يامذبوب^(١) أخبرني عن تخيرك لنفسك ، وتخيرك لمن تحب ، حيث تقول .
ألا ليتنا يا عز كذا لذى غنى بعيرين نرعى فى الخلاء ونعزب^(٢)
كلانا به عر فمن يرنا يقل على حسنهما جرباء تُعدى وأجرب^(٣)
إذا ما وردنا منها صاح أهله علينا فما تنفك نرمى ونضربُ
وددتُ وبيت الله أنك بكرة^(٤) هجان^(٥) وأنى مُصعب ثم نهرب^(٦)

(١) المذبوب : المجنون (٢) نعزب : نعد (٣) العر ، بالفتح والضم : الحرب

(٤) الهجان ، على وزن كتاب : هي من الابل البيض - والمصعب : الفحل

نكون بعيرى ذى غنى فيضيعنا فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب
والله لو احتفل عليك هاجيك ما زاد على ما بُوت به على نفسك .
نخفق كثير كما يخفق الطائر ، فأقبل عليه نصيب فقال : أقبل على
يا زب الذباب ^(١) فقد تميت معرفة غائب عندي علمه فيك حيث تقول .
وددت وما تغني الودادة أننى بما فى ضمير الحاجبية عالم
فان كان خيراً سرّنى وعلمته وان كان شراً لم تلمنى اللوام
انظر فى مرآتك ، واطلم فى جيبيك ، واعرف صورة وجهك ،
تعرف ما عندها . فاضطرب كثير اضطراب العصفور وقام القوم
يضحكون ^(٢)

— ٥ —

واعدت الثريا عمر بن أبى ربيعة ان تزوره . فلما جاءت فى الوقت
الذى ذكرته صادفت أخاه الحارث قد زاره فأقام عنده ووجه به فى حاجة
له ونام مكانه وغطى وجهه بثوبه ، فلم يشعر الا بالثريا قد ألقت نفسها
عليه تقبله ، فانتبه وجعل يقول : اعزبى عنى فلست بالفاسق أخزأ كما الله !
فلما علمت بالقصة انصرفت وجاء عمر فأخبره الحارث بخبرها ،

فاغتم لما فاته منها، وقال : أما والله لا تمسك النار أبدا وقد ألتقت نفسها عليك ! فقال الحارث : عليك وعليها لعنة الله !

— ٦ —

كان لابن ابى ربيعة ابن صالح يقال له «جُوان» وفيه يقول العرجي :
 شهيدى جُوانُ على حبها أليس بعدل عليها جُوانُ
 وقد جاء جُوان هذا الى زياد بن عبد الله الحارثي وهو اذ ذاك
 أمير على الحجاز فشهد عنده بشهادة ، فتمثل
 شهيدى جُوان على حبها أليس بعدل عليها جُوانُ !
 ثم قال : قد أجزنا شهادتك
 وقد غضب جُوان من هذا الشعر وجاء الى العرجي فقال له : يا هذا،
 مالى ولك تشهرني فى شعرك ! متى أشهدتنى على صاحبك هذه ! ومتى
 كنت انا أشهد فى مثل هذا !

— ٧ —

عرض يزيد بن معاوية جيش أهل الحرة فربه رجل من أهل
 الشام معه ثُرسٌ خَلَقَ سَمَجٌ ، فنظر اليه يزيد وضحك وقال له : ويحك !
 ثُرس عمر بن ابى ربيعة كان أحسن من ترسك ! يريد قول عمر
 فكان مجنئى دون من كنت أتقى ثلاث شخوص كاعبان ومُعَصِ

حدث بُدَيْح قال : حجّت بنت محمد بن الاشعث الكنديه فراسلها عمر بن ابي ربيعة ووعدّها ان يتلقاها مساء الغد ، وجعل الآية بينه وبينها ان تسمع ناشدا ينشدُ يعلمها بمصيره الى المكان الذى وعدها . قال بديح : فلم أشعر به الا متاثماً فقال لى : يا بديح ، ائت بنت محمد بن الاشعث فأخبرها انى قد جئت لموعدها . فأبيت أن أذهب وقلت : مثلى لا يعين على مثل هذا . فغيبَ بغلته عنى ثم جاءنى فقال لى : قد أضلّت بغلتى فانشدّها لى فى زقاق الحاج ، فذهبت فنشدتها ، فخرجت علىّ بنت محمد ابن الاشعث وقد فهمت الآية ، فأنته لموعده ، وذلك قوله :

وآية ذلك ان تسمى اذا جئتم ناشدا ينشدُ

قال بديح : فلما رأيتها مقبلة عرفت انه قد خدعنى بنشدى البغلة فقلت له : يا عمر ! لقد صدقت التى قالت لك :

فهذا سحرک النساء ن قد خبرتني الخبرا

قد سحرّتنى وانا رجل ! فكيف برقة قلوب النساء وضعف رأيهن ! وما آمنك بعدها ، ولو دخلت الطواف ظننت انك دخلته لبلىة . قال : وحدثها بحديثى فما زال ليلتهما يفصلان حديثهما بالضحك منى

انشد ابن ابي ربيعة قوله :

يا خليلي من ملام دعاني وألما الغداة بالاطعان

لاتلوما في آل زينب ان الـ قلب رهن بآل زينب عاني

فبلغ ذلك ابا وداعة السهمي فأنكره وغضب . وبلغ ذلك ابن ابي

عتيق وقيل له : ان ابا وداعة قد اعترض لابن ابي ربيعة دون زينب

بنت موسى وقال : لأأقر لابن أبي ربيعة ان يذكر امرأة من بني

هـُصَيْص في شعره ، فقال ابن ابي عتيق : لاتلوموا ابا وداعة أن يُنعِظَ

من سمرقند على أهل عدن !

قال ابن ابي عتيق لابن ابي ربيعة : يا عمر ! ألم تخبرني انك ما أتيت

حراماً قط ؟ قال : بلى . قال فأخبرني عن قولك

وما نلت منها محرماً غير اننا كلانا من الثوب المورد لابس

ما معناه ؟ فقال : والله لأخبرنك : خرجت اريد المسجد وخرجت

زينب تريده ، فالتقيننا فاتعدنا لبعض الشعاب ، فلما توسطنا الشعب

أخذتنا السماء فكرهت أن يرى بثيابها بلل المطر فيقال لها : ألا

استمرت بسقائف المسجد إن كنت فيه ! فأمرت غلمانى فسترونا بكساء
خز كان على ، فذاك حين أقول :

كلانا من الثوب المورد لابس

فقال له ابن ابى عتيق : يا عاهر ! هذا البيت يحتاج الى حاضنة !

— ١١ —

خرج عمر بن أبى ربيعة والحارث بن خالد وأبوربيعة المصطلق
ورجل من بنى مخزوم يشيعون بعض خلفاء بنى أمية ، فلما انصرفوا
نزلوا بسرف فلاح لهم برق ، فقال الحارث : كلنا شاعر ، فهاموا نصف
البرق ، فقال أبوربيعة :

أرقت لبرق آخر الليل لامع جرى من سناه ذوالرثى فينباع^(١)
فقال الحارث :

أرقت له ليل التمام ودونه مهامه موماة وأرض بلاقع^(٢)
فقال المخزومى :

يضىء عضاه الشوك حتى كأنه مصاييح أو فجر من الصبح ساطع^(٣)

(١) ينباع اسم مكان أو جبل أو واد فى بلاد هذيل

(٢) ليل التمام هو أطول ليلالى الشتاء - والمهامه جمع مهمه وهو الصحراء الواسعة
الارعاء - والموماة الفلاة الواسعة الملاء - وأرض بلاقع : خراب

(٣) العضاه : كل شجرة عظم وله شوك

فقال عمر :

أيارب لا آلو المودة جاهدًا لأسماء فاصنع بي الذي أنت صانع
ثم قال : مالى ولابرق والشوك !

— ١٢ —

لقي عمر ليلى بنت الحارث وهى تسير على بغلة لها وكان قد شرب بها
فقال : جعاني الله فداك ! عرّجى ها هنا أسمعك بعض ما قلته فيك .
فقلت : أو قد فعلت ؟ قال : نعم . فوقفت وقالت : هات ، فأنشدها
ألا ياليلَ ان شفاء نفسى نوالك ان بخلت فنوّلينا
وقد حضر الرحيل وحان منا فراقك فانظري ما تأمرينا
فقلت : آمرك بتقوى الله وإيثار طاعته ، وترك ما أنت عليه !
ثم صاحت ببغلتها ومضت

— ١٣ —

حدث سفیان ابن عیینة قال :

بيننا انا ومسر بن كدام مع اسماعيل بن أمية بفناء الكعبة واذا
بمعجوز قد طلعت علينا عوراء متكئة على عصا يصفق أحد لحييها

على الآخر ، فوقفت على اسماعيل فسلمت عليه ، فرد عليها السلام ،
وسألها فأحفى المسألة ، ثم انصرفت . فقال إسماعيل : لا إله إلا الله !
ماذا تفعل الدنيا بأهلها ! ثم أقبل علينا فقال : أتعرفان هذه ؟ قلنا : لا
والله . ومن هي ؟ قال : هذه «بغوم» ابن أبي ربيعة النلى يقول فيها
حبذا أنت يا بغوم وأسماء وعيص^١ يَكُنُّنا وخلا^٢
انظرا كيف صارت ، وما كان بمكة امرأة^٣ أجمل منها ! فقال له
مسعر : لا ورب هذه البنية ، ما أرى أنه كان عند هذه خير قط !

— ١٣ —

حدثت ذهيبة مولاة محمد بن مصعب بن الزبير قالت : كنت عند
أمة الحميد بنت عمر بن أبي ربيعة فى الجنيد الذى فى بيت سكيئة بنت
خالد بن مصعب أنا وأبوها عمر وجاريتان له تغنيان : يقال لاحداهما
البغوم ، والاخرى أسماء ، وكانت أمة الحميد بنت عمر تحت محمد ابن
مصعب بن الزبير ، فقال عمر بن أبي ربيعة وهو معهم فى الجنيد
صرمت حبلك البغوم وصدت عنك فى غير ربيعة أسماء

(١) العيص : السجر الكثير الملتف

والغواني إذا رأيـنـك كهـلاً كان فيهن عن هواك التواء
حبذا أنت يا بغوم وأسما وعيصٌ يكننا وخلا
فلما انتهى إلى قوله

ولقد قلت ليلة الجزل لما أخضلت ريطى على السماء
خرجت البغوم ثم رجعت إليه فقالت : ما رأيت أ كذب منك يا عمر
تزعـم أنك بالجزل وأنت في جـنـيد محمد بن مصعب ، وتزعـم أن السماء
أخضلت ريطتك وليس في السماء قرعة ^(١)
فقال عمر : هكذا يستقيم هذا الشأن

* *

أما بعد فهذا كتابٌ أشعر بأن خيرهُ نفايةُ شره ، وأن ما فيه من
هُدىٍ أسيرٌ ما فيه من ضلال ، وإني لأقول :
ضاق الفضاء على من عبث الصبا ورحمت فضلى من هواه العائث
فأغث فديتك يا مشيب كرامتي إني سئمت من الشباب العابث

وسبحان من لو شاء لعجل التوب ، وعفا عما تسلف من ذنوب

زكى مبارك

أغروط مطبعة

صحيح هذا الكتاب بغاية العناية ، ولكننا بعد الفحص الدقيق
عثرنا فيه على أغلاط قليلة رأينا إثباتها هنا ليصححها القارىء في نسخته إن شاء

خطأ	صواب	صفحة	سطر
الاحوض	الاحوص	٤٨	١١
أحبك	أحب	٨٩	١٤
الحجال حجلة	الحجال جمع حجلة	١٠٧	١٤
أما ترحنى	أما ترحنى	١٠٩	٣
تحلف	تحلف	١٢٣	١٧
وأوعده	وواعدته	١٣٦	٨
بذلا	برلا	١٦٣	٧
يستفيد	يستفيد	١٦٤	١٧
فولاه اياها	فولاه إياها	١٦٦	١١
الاخشبات	الاخشبان	١٧٦	١٦
الارائحته	الارائكة	١٧٦	١٧
الدى يرضى	الذى لا يرضى	١٨٥	٧
فى قصة	قصة	٢٠٠	٣
يمن	يممن	٢٤٣	٦

فهرس

ص

٣ الاهداء

٥ كلمة الشيخ مصطفى القاياتي

٧ كلمة الدكتور طه حسين

٩ مقدمة الطبعة الاولى

١١ من النفس إلى النفس

١٥ مقدمه الطبعة الثالثة

٣٥ المحاضرة الاولى : حب ابن أبي ربيعة

٥٩ المحاضرة الثانية : رأى مصعب الزيري

٩١٦ المحاضرة الثالثة : شعر ابن أبي ربيعة

١٢٢ أخبار الملاح

١٢٩ أيام الطواف

١٤٣ عائشة بنت طلحة

١٤٤ جاهها

١٥٠ أخلاقها

١٦٠ عقلها

١٦١ جاهها

١٦٥ أخبارها مع الحارث بن خالد

١٧٣ ما كان بينها وبين عمر

١٨٠ سكينه بنت الحسين

١٨٣ حياتها الادبية

١٧ عنايتها بالغناء

١٩٠ أزواجها

ص

١٩٣ جاهها

١٩٥ أخلاقها

١٩٨ صلتها بابن أبي ربيعة

٢٣٠ الثريا بنت علي

٢٠٦ ظرف ابن أبي عتيق

٢٠٩ الثريا وسهيل

٢١٢ الثريا عند الوليد بن عبد الملك

٢١٤ شعر عمر في الثريا

٢١٧ جبايه الثريا على ثايا عمر

٢١٨ بكاء الثريا

٢١٩ رينب بنت موسى

٢٢٦ فاطمة بنت عبد الملك

٢٢٧ حسابها لعمر على هتك الحرائر

٢٣٥ أزواجها

٢٣٦ هند بنت الحارث

٢٥٢ رائيه ابن أبي ربيعة

٢٧٠ لامية جميل

٢٧٤ تأثير ابن أبي ربيعة في شعراء اللغة العربية

٢٨٦ مصعب بن عبد الله الزيري

٢٩٥ الجواب الجديدة في حياة ابن أبي ربيعة

٣٠٧ الملح والفكاهات

فهرس القوافى

ص	ص
٢١٢	رجع السلام أو لو أجابا
٢١٥	واعترتى نواب الاطراب
٢٢٦	يوم الرحيل فهاج لى أطرابى
٢٥٦	فأحب بها من مرسل متعصب
٢٩٤	وقصر شعوب أن أكون به صبا
حرف التاء	
٣٣	ولو رضيت رشح استه لاستقرت
٣٩	هوانى ولكن للعليك استدلت
٥٥	خليلى مادونه لعجبتا
٧٨	فلو حب انسان من الحسن جنت
٨٠	إذا مامشت ولا بذات تلفت
١٦٢	به زيب فى بسوة عطرات
١٨٤	وأحسن شىء مابه العين قرت
٢٨٢	من وجه جارية فديته
حرف الجيم	
٧١	نوى يوم صحراء الغميم لجوج
١٧٦	أن ترحمى عمرا لانهقى حرجا
١٨٨	انك الا تفعلنى تحرجى
٢٢٨	لأنهن الحى ان لم تحرج
٣٠٣	أمهل سبيل إلى نصر بن حجاج
حرف الالف	
٤١	فيه حكمى أوقضائى
٦٩	غبرها وصلها اليها أداء
٨٤	إنه ينفع المحب الرجاء
حرف الباء	
١٥	رب جد جره اللعب
٣٩	عدوا ولمسمع به قيل صاحب
٥١	ولا هو يسليه رخاء ولا كرب
٥٢	وأبرهمى والاحاديث زينى
٦٩	وأنى لا أركاك حين أعيب
٨٢	ولا يحسون الشر ضربة لازب
٨٣	تمزج الجد مرارا باللعب
٨٩	بين خمس كواعب أتراب
١٠٥	وأكرم ان لاقيت يوما لكم كلبا
١٧٠	على الكريم وحق الضيف قد وجبا
١٧٥	عجب وهل فى الحب من متعجب
١٨٩	وكفف عن دم المسيب الآيب
١٩٢	بكل فتى رحب الذراع أريب
١٩٨	منها على الحدين والجلباب
١٩٩	صفيا لنفسى ولا صاحبا
٢٠٦	أنحب القتول اخت الرباب

ص	ص
٢٤٥	حرف الحاء
٢٤٨	فان كريما من تضم الصفائح
٢٨٠	قول تغلظه وإن جرحا
٢٨٤	فعمينا مصعبا صباحا
٢٨٦	فاطى في عداد الفقاح
	حرف الدال
	حرف الراء
٣٢	رطب العجان وكفه كالجلمد
٤٤	لكننت اليوم أشعر من ليد
٤٥	وحل بين عينيها وبين فؤادى
٤٧	قل الثواء لئن كان الرحيل غدا
٤٨	وترعنى ذا ملة طرفا جلدا
٤٨	قد أتنا ماقلت في الانساد
٤٨	رب لا صبر لى على هجر هند
٥٣	فكن حجرا من يابس الصخر جلدا
٥٦	أين المصادر والمورد
٥٦	وتعرت ذات يوم تبرد
٦٧	سجيرا وقفقف الصرد
٧٠	كتاب موله كمد
٩٩	على الرمل من حياة لم توسد
١٠٠	وللدار بعد عد أبعد
١٠١	وشطت نواها فلمازار بعبد
١٠٤	إن المطايا عاجل عدها
١٠٥	وما بيننا من حرن أرض ويدها
١١٣	قل الثواء لئن كان الرحيل غدا
١٢٩	فوا حزنا من ذا يهيم بها بعدى
وشفت أنفسنا مما تجد	
إذا أقول صحا يعتاده عيدا	
ونستفز حشا الرأى بارعاد	
حديث كما هب النسيم على الورد	
منكم ويمرص كلبكم فأعود	
هواك فليم فالتأم الفطور	
في أعين الغيد موقوف على الخطر	
فان كرهته فالسلام على الاخرى	
وما اهل له الحجاج واعتمروا	
لها نسق على الحدين يجرى	
بأياتكم ما درت حيث أدور	
دون قيد الميل يعدو بى الاعر	
حمل بلا ترة لنا وترا	
جديد ما حيت لكم يسير	
صحباً فامسى لا يطيق لها هجرا	
أهذا المغيرى الذى كان يذكر	
أو انت جل ان قلبك طائر	
مثنى الضعيف يؤوده البهر	
مس البطون وان تمس مظهرها	
كأضى ظلام الحندس القمر	
وبمثل وجهك نستقى الامطارا	
صدفت فلا بذل ولا ميسور	
وقليل لو عرجوا أن تزارا	
قد قضى من تهامة الاوطار	

ص	ص
حرف الضاد	١٥١ بمضطرب المتين منبتر الحصر
٢٢٢ للتعدى وما بها الابغاض	١٥٧ عذافرة نستخف العفارا
حرف العين	١٧٢ فلقد عهدتك اهلا معمورا
٧٣ قدتمنى لى شرا لم يطع	١٨٦ ولزرت قبرك والحبيب يزار
١٠٥ ومن هو إن لم يحفظ الله ضائع	٢٢٣ صباه ولم يكن ذكرا
١٣١ وعن شتم أقوام خلائق أربع	٢٢٤ حتى رأيت النقصان في بصرى
٢٣٩ بيطن حليات دوارس بلقعا	٢٢٥ يهذى بجود مريضة النظر
٢٤٤ مساكن ما بين الوتائر والتقع	٢٣٠ ويئس بعد تقارب الامر
٢٧٣ جبل النوى قهوى في أيديهم قطع	٢٣٣ وحول الحى إذ صدروا
حرف الفاء	٢٣٥ قريع قريش اذا يدكر
٤٢ فأنا الذى بوصاله لا أكتفى	٢٣٧ فبت مستنبتها من بعد مسراها
١٠٠ فلنا من وجهها عنها خلف	٢٤٢ أقوت وهاجت لنا بالنعف تذكارا
١٦٧ فالقلب مما أحدثوا يحف	٢٤٥ لما غدوا فابتكروا
٢٩٠ وينهل منها واكف ثم واكف	٢٥٠ أم لا فأى الاشياء تنتظر
حرف القاف	٢٦١ غداة غد أم رائح فهجرج
٢٨ من قلب صب وصدر ذى حق	٢٧٩ لنا ولها بالسفح دون ثير
٥٧ ورب الهدايا المشعرات صدوق	٢٨٠ تمور بسحر عينها وتدور
١٠٠ وغيب عنا من نحاف ونسفق	٢٨١ هل يجيد النعت مكفوف البصر
١٠٨ وقول الناصح الادنى الشفيق	٢٨١ مقالة واش أو وعيد أمير
١٤٥ نهض الضعيف ينوء بالوسق	حرف السين
١٥٠ وانبد برملة نبذ الجورب الحلق	٢٦ طويلا كأيير الحارث بن سدوس
١٦٤ وغدوا بلبك مطلع الشرق	٣٣ ان تصدق الطير نثك لميسا
١٨٤ ليلا إذا نجم الثريا حلقا	٢١٧ اهكذا كسرا من غير ما باس
٢٢٥ رأيت وشاحها قلقا	٢٢٢ لزيت نجوى صدره والوساوس
٢٥٧ حنة الخلد من ملائى خلوقا	٢٣٧ لمر يهوى سرىعا نحو هاراسى
٢٥٧ ايها القلب لأراك تفيق	٢٨٣ فليس على من أنس النار من باس

٢٨٨	شكوى المحب وليس بالمستاق	٢٨٨	وأترابها بين الاصفر والخل
	حرف الكاف	١٧٥	يقرب من ليلى الينا احتياها
٨٢	وقلت لها خذى حذرك	٢٠٣	من أجلها وملقى الرحال
١٥٩	خرج العراق ومنبر الملك	٢١٠	عن حال من حله بالامس ما فعلا
١٦١	لولا أبوها ما اهتدى أبوك	٢١٦	بالبلدين أن أجزن سؤالا
	حرف اللام	٢١٧	سوى ما ادعى يوما فليس له فضل
٣٣	عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول	٢٣٢	ليتى مت قبل يوم الرحيل
٤١	فن المطالب والقَتيل القائل	٢٤٠	قتلت قتلت فها تها لم تقتل
٤٧	فلست بناس ما هدت قدمى على	٢٧٠	بشئه أو ابدت لنا جاب البخل
٤٨	لا تحجى من قولنا بقتيل	٢٧٥	تمتعت من لهو بها غير معجل
٤٩	ماتأمرين فان القلب قد تبلا	٢٨٨	وان ليس يبق للخليل خليل
٥٠	وأعطيت منى يا ابن عم قبولا	٢٩٢	طوال أى آمال
٦٧	والربع من أسماء والمنزلا	٢٩٧	وعلى العانيات جرالذيول
٦٩	ولكن ليقتلن البرى المغفلا		حرف الميم
٧٥	تعجلى باللوم حتى نسألى	٢٨	وهو في أصبعين من اقليم
٧٧	وغرة السابق المختال اذ صهلا	٥٦	والعين إن تطرف بها تسحم
٧٩	اليها فاني واصل جبل من وصل	٥٦	كالرثم في عقد الكشيب الا ييم
٨٢	ان المهمات فيها يعرف الرجل	٧٥	رفيقكما حتى تقولا على علم
٨٥	لو أبصره الواشى لقرت بلابله	٨٩	وأصابت مقاتل القلب نعم
٨٥	قليل ولا أرضى له بقليل	١٣٢	من خيال بنا ألم
٨٦	ونظرت غفلة كاشح أن يعقلا	١٤٢	وعاودت ذكرى لام الحكم
١٠٢	اذا استقل عمود الصبح فاعتدلا	١٤٨	لذيذ المقبل والمبتسم
١٠٣	عنى اذا أردت ارتحالا	١٥٨	مقيا على الهم احلام نائم
١١٠	فقربنى يوم الحصاب الى قتلى	١٦٦	فلما انجلت قطعت نفسى الوما
١٤١	وصبا فلم ترك له عقلا	١٧٠	بسرأتنا ووقرت في العظم
		١٧٢	وأبن لنا خبرا ولا تستعجم
		١٧٤	حى في القلب لا يرعى حماها

١٣٩	مقصداً يوم فارق الظاعينا	١٨٥	على ومن زيارته لمام
١٥٤	الى اليوم أخفى حبها واداجن	١٩٣	برى الموت إلا بالسيوف حراما
١٦١	لارلت ماعشت كذا تحجين	٢٠٤	وبين لو يستطيع أن يتكلما
١٦٨	جلل الله ذلك الوجه زينا	٢٤٤	على العهد باق ودها أم تصرما
١٧١	فالاقحوانة منا منزل قن	٢٥٤	باعلى النقع اخت بنى تميم
١٧٧	للهى والقلب متباع الوطن	٢٥٥	بسقام ليس كالسقم
١٧٨	مستكينا قد شفه ما أجنا	٢٨٠	في وجهها لك اذ تنسم
١٧٨	فأتمر أمر رشيد مؤتمن	٢٨٩	رهينة عام في الدنان وعام
١٨٦	قتلنا ثم لم يحين قتلا	٢٩٢	مالى رأيتك ناحل الحسم
١٩١	حصان عليها نظم در يزينا	٣٠٢	ولى نظر لولا التخرج عارم
٢٠٩	عمر ك الله كيف يلتقيان		حرف النون
٢١٩	وأما الغداة بالاطعان	٣	من نيلك الحزل أو من رأيك الحسن
٢٢٠	وتذكرت ميعتى في زمانى	٢٠	هووا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا
٢٢٤	نرحزح فهاها الهجران	٢٩	إذا ما انتى من ليه فضح الغصنا
٢٩٨	إذا حللنا بسيف البحر من عدن	٣٦	وجدى عليك أشجاني فأضناني
٣٠٤	من الورد أو من الياسمين	٤٢	وإيايا فذاك لنا تدان
	حرف الهاء	٤٦	ولا أحدث الامور اثنان
٨٨	من حبيب أمسى هواها هواه	٥٣	ولم تر العين شيئاً بعدكم حسنا
	حرف الواو	٧٧	عمر ك الله كيف يلتقيان
٣٠١	ولا كليالى الحج افلتن ذا هوى	٨٦	فشفينا غليلنا واشتقينا
	حرف الياء	٨٧	ظهر الحب بجسمى وبطن
٢٧٣	من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا	١٢٠	طربت وكنت قد أقصرت حيناً
		١٣٦	أو بعده أفلا تشيعنا

فهرس الاماكن والاعلام

س	س
٢٨٤	ابن خفاجة
٢٤٢	ابن مقبل
٢٣٥	أبو حيه النيزى
١٩٠ و ٢٨٩ و ٢٢٧ و ٢٠٢	اسحق الموصلى
١٣٢	اضم
١٥٨	أم اسحق بنت طلحة
١٤٧ و ١٤٥	أم القاسم بنت زكريا
١٤٩	أم كلثوم
١٥٧	أم كلثوم بنت أبى بكر
١٩٧ و ١٥١	أشعب
٢١٢	أم البنين
١٥٤ و ١٥٣	ابن سلام
٢٥٨	ابن عباس
١٢٩	أم عمر و بنت مروان
٢٩٨	أمة الوهاب
١٤٢	أم الحكم
٢٧٥ و ١٠٦	امرؤ القيس
٢٠٨ و ٢٠٥	أم نوفل
٢٠٤	أم عثمان (أخت الرباب)
١٩٦	أمنة بنت وهب
١٩٣	أسد بن عبد العزى
١٨٤ و ١٦٨ و ٧٨ و ٤٨	الاحوص
١٧٥	الخشب
١٧٥	أبو قيس
	حرف الالف
	أبو بكر بن أبى الحهم
	أبو بكر الصديق
	أبو على الفارسى
	أبو فديك
	أبو الفرج الاصبهانى (صاحب الاعافى)
	٦٠ و ٦٣ و ٦٤ و ٦٩ و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٤٩ و ١٥٢
	الايبوردى
	أبو نواس
	أبو الحارث حمير
	أبو الاسود البؤلى
	الاجاب
	ابن أبى عتيق ٤٨ و ٥٢ و ٨١ و ١١٣ و ٢٠٦ و ٢٠٨
	ابن أسماء
	ابن جريج
	ابن الاحنف
	ابن الرومى
	ابن سيرين
	ابن سريج
	ابن الفارض
	ابن قتية
	ابن قيس الرقيات
	ابن منظور

ص	حرف التاء	ص	حرف الباء
١٩٢		١٩٢	إبنة الحميد
٢٠٣	الثرية بنت علي ١٠٤ و ١٠٥ و ١١١ و	٢٠٣	أيوب بن مسامة
٣٣	١٣٩ و ١٤٠ و ١٥٤ و ٢٣٠ و ٢٠٥ و ٢٠٦	٣٣	أبيه السائب المخزومي
٣٨	٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١٢ و ٢١٧ و ٢٩٧	٣٨	أباتول فرانس
٢٨٩	الثعالبي	٢٨٩	أحمد بن هشام
٢٦	حرف الجيم	٢٦	الاصمعي
٩١ و ١٠ و ١١ و ١٦ و ٩٨	الجاحظ	٩١ و ١٠ و ١١ و ١٦ و ٩٨	أحمد ضيف
٢٤٨ و ٦٧ و ٥٣	جحدرد	٢٤٨ و ٦٧ و ٥٣	أسماء
٤٢	جربير		حرف الباء
٢٦ و ١٨٣ و ٢٦٠	جعفر بن الزبير	٣٨	بافيس
١٦٨	جيلة بنت مرة	٨٥	بثينة
٧٥	حمل	٢٢٣	بجاء مولى عثمان
١٤٦	جميلة	٢٥	بديل بن ورقاء
٣٠٠	حميل	٢٨٠	بشار بن برد
١١١ و ١١٠ و ١٠٩ و ٩٣ و ٨٤	و ١١٣ و ١٢٦ و ١٥٤ و ١٨٣ و ١٨٤	١٧٢	بسرة
٢٦٧ و ٢٧٠	جنادة العدري	١٣٨	البصرة
٢٣٧	الجامعة المصرية	٢١٢	البلدان
٧ و ٩ و ١١	الجند	٢٠٧	بلال مولى ابن ابى عتيق
٢١٥	حرف الحاء	٨٢	البها زهير
	الحارث بن خالد المخزومي ١١٣ و ١٤٤	٣٦	بور سعيد
١٥٧ و ١٦٤ و ١٦٥ و ١٦٧ و ١٦٨ و ١٧٢	١٧٩ و ٢٤٧	١٢٦	بيرون
٢٩٨	الحارث (أخى عمر)	٣٠ ، ٢٣	توفيق دياب
٢٦	الحارث بن سدوس	١٢٩	تهامة
١٦٣ و ١٦٢	الحجاج	١٧٤ ، ١٥٧	تيم بن مرة
١٨٨ و ١٨٩	الحجاز	٣٨٠	تيموكليس

ص	ص	الحزين الدؤلى
رسول الله ٢٥ و ٣٢ و ١٤٤ و ١٩٨ و ٢٠٢	١٥٧	
رملة بنت عبد الله ١٤٠ و ١٤٩ و ١٥٠	١٢٧ و ٢٧	الحصري (صاحب زهر الاداب)
٩٢	١١٩ و ٤٥	الحجر
حرف الزاى	٣٦ و ١٣	حسين الحكيم
الريبر بن بكار ٦٤ و ١٠٨	٢٤ و ٢١٧	الحزين الكنانى
زكى مبارك ٣ و ٥ و ٧	٢٤٠	حسان
الزخشرى ٢٦٥	١٨١ و ١٤٨	الحسين بن على
زيد بن عمرو بن عثمان ١٩٦	٢٣٩	حليات
زينب بنت موسى ٤٧ و ٥٢ و ٢٠٠ و ٢١٩	٦٢	حماد الراوية
٢٢١ و ٢٢٥	٢٦٩	حمد بن ثور
١٦٢	١٩٠	حنين الحيرى
زينب بنت يوسف		
حرف السين	حرف الخاء	
سالم بن قتيبة ١٤٥	١٣٢	خاخ
الشرح ٢٣٩	٢٣٨	خالد الخريت
سعيد بن العاص ١٤٥	١٢٩ و ١٤٥ و ٢٠٣	الخيف
سعدى بنت عبد الرحمن ٢٠١		حرف الدال
سفيان بن حرب ١٩٦	٢٣٥	داود بن سليمان بن مروان
سلامه موسى ٢٣	١٩٤	درافيش
سلمى ٨٤	١٦٦	دمشق
سليمان بن عبد الملك ٣٠٢		حرف الذال
سكينة بنت الحسين ١٤١ و ١٥٠ و ١٦١ و ١٨٠	١٤١	ذو بقر
١٨٣ و ١٨٩ و ١٩٢ و ١٩٣ و ١٩٨	٢١٣	ذو العنيرة
سنتريس ٣٥ و ٣٦ و ٣٧		حرف الراء
سيد مبارك ١٣ و ٣٦	٥١ و ٧٠	الرباب
سيد المرصفي ١٠	١٤١	الربذة
سهيل بن عبد العزيز ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١٢	٢٠٢	الرشيد

ص
 ٢٨٩ عبد الرحمن بن ابي عبد الرحمن
 ١٥٧ و ١٤٥ عبد الله بن عبد الرحمن
 ٢٩١ العباس بن الاخنف
 ١٥٦ و ١٥٢ عبد الله بن ابي فروة
 ٢٠٣ عبد الله بن قيس
 ١٦٥ و ١٦١ و ١٠٠ عبد الملك بن مروان
 ١٩٢ و ٣٠٢ و ١٦٦ و ١٩١ و ١٩٢
 ١٨٨ عبيد بن حنين
 ١٤٤ العبلات
 ٢٣٦ عثمان بن ابراهيم الخاطبي
 ١٤٨ و ١٤٧ و ١٤٦ و ١٤٥ عزة الميلاء
 ٢٠٦ و ١٨٩ و ١٨٨ و ١٣٨ و ١٣٤ العراق
 ٣٠١ و ٢٣٥ و ١٩٦ عمر بن عبد العزيز
 ٣٢ عبيد الله بن عبد الله بن عتبة
 ١٥ عبد الحواد رمضان
 ٣ عبد السلام مبارك
 ٥٤ و ٩ عبد الوهاب النجار
 ١٠١ عمر بن الخطاب
 ١٠١ و ٢٦ عبي بن ابي طالب
 ٢٨٧ علي بن هسام
 ١٠ علي عبد الرازق
 ٢٧٩ و ٢٥٤ و ١٦٨ العرجي
 ٦١ و ٣٣ و ٣٢ عبد الله بن عباس
 ٢٨ عبد الملك بن صالح
 ١٢٩ عبد الله بن عمر
 ٢٨٦ و ١٠٦ عبد الله بن مصعب
 ٢٠٦ و ١٧٣ و ١٦٠ و ١٥٨ عمر بن عبيد الله

ص
 حرف الشين
 ٣٢ الشافعي
 ٧١ شبيب بن البرصاء
 ١٤٥ و ١٤١ و ٢٦ الشعبي
 ٢٤١ الشماخ
 ٨٠ و ٧٧ الشنفرى
 حرف الصاد
 ٢٨٩ صاح بن خاقان
 ١٠٨ صريم
 ٤٧ الصوران
 حرف الطاء
 ٢٥٢ و ١٤٣ و ١٢٤ و ٥٤ و ١٧ و ١٠ و ٧ طه حسين
 ٢٠٥ و ٢٠٤ و ١٦٢ الطائف
 ٧٩ طرفه بن العبد
 ٢٦٠ و ١٥٧ طلحة بن عبد الله
 ١٧٤ طلحة بن عبيد الله
 حرف الظاء
 ١٠٦ ظبية
 حرف العين
 ١٦٠ و ١٥٧ و ١٤٤ عائشة ام المؤمنين
 ١٤٧ و ١٤٥ عائشة بنت عثمان
 ١٤٦ و ١٤٥ و ١٤٣ و ٩٨ عائشة بنت طلحة
 ١٧١ و ١٦٧ و ١٦٦ و ١٦١ و ١٥٦ و ١٥٥ و ١٥٣ و
 ٢٠٣ و ١٩٣ و ١٩٢ و ١٧٩ و ١٧٦ و ١٧٣ و ١٧٢ و
 ٢٥٢ عائكة بنت يزيد
 ١٧١ و ١٦٩ و ١٦١

س	حرف القاف	س	عزة
٣٦	القاهرة	٤٤	عبدة
٢٢١	قدامة بن موسى	٥٣	عمرة
١٨٨ و ١٦٥ و ١٣٩ و ١٠٨ و ٦٢	قريش	٥٤	عنمة
٢٠٥	قرن المنازل	١٦٤	العريش
١٦٤	القس	٢٠٥	عرفات
١٧٥	ققيعان	٢٩١	عمرو العراف
حرف الكاف	حرف الغين		
كثير ٣٩ و ٤٤ و ٤٧ و ٥٨ و ٩٣ و ١٣٧	الغريض ١٥٤ و ١٦٧ و ١٦٩ و ١٧٣ و ١٨٨ و ٢٠٠		
١٨٣ و ١٩١	٢٠١ و ٢١٨ و ٢٤٨		
٢٠٤	كداء ١٨٠ و ٣٨ و ٣٤		الغزالي
١٣٨	الكديد ٨٢		غسان
١٩٢ و ٦١	الكوفة ٢٩٤		غمدان
٢١	الكوثر ١٣٤		غمرذى كدة
حرف اللام	١٩٩ و ٧١		العيم
لكسمبور وغابة بولويا ٢٩	حرف الفاء		
٣٠٤	فاطمة بنت عبد الملك ٢٣٦ و ٢٢٧ و ٢٣٥		
١٧٩ و ١٥٤ و ٨٧ و ٥٠	فاطمة بنت عمر بن مصعب ١٠٦		
حرف الميم	فاطمة بنت محمد بن الاشعث ١٣٣ و ١٣٥ و ٢٥٣		
٣٠٤	فخ ١٦٣		
٢٦٤	الفرات ١٩٩		
٢٠	الفرزدق ٢٦ و ٣٣ و ٦١ و ١٠٨ و ١٠٩ و ١٨٣		
٢٨٦	و ١٨٥		
١٠	فرعون ١٠٨		
١٣٨	الفرما ١٦٤		
١٧٥	فينوس ٢٣		

ص	ص
حرف النون	مذحج ١٨٨
١٠٤ و ١٢ و ٢٧	مسلمة بن ابراهيم ٢٠٣
٣٥٨	مصطفى القاياتي ٥ و ٩ و ١٠ و ٥٤
٢٩٢ و ١٨٤ و ١٨٣ و ٩٨	مصعب بن الزبير ١٤٥ و ١٤٨ و ١٥١
٢٥٦ و ٢٥٣	و ١٥٢ و ١٥٣ و ١٥٤ و ١٧٣ و ١٩٠ و ١٩٢
١٦٣	٢٥٥ و ١٩٣
٣٠٣	مصعب بن عبد الله الربيعة ٢٢ و ٦٤ و ٢٣٦
١٦٥ و ١٦٣ و ١٦٢	٢٥٥ و ٢٨٦
١٤١ و ١٤٠ و ١١٣ و ٥٣	مسعدة بن عمرو ٢٠٩
حرف الواو	المدينة ١٦٢ و ١٧١ و ١٧٧ و ١٨٥ و ٢٠٠ و ٢٩٠
٢٦٠ و ٢١٢	المربد ٢٨٨
٢٢٣	المحبص ١١٠ و ٥٥
٢٤٨	مصر الجديدة ٣٤
١٣٤	مضرس بن قرط المرني ٥٧
حرف الهاء	موسى شنوات ٢٣٥
١٠٨	مونتين ٩٢
١٤١ و ١٢١ و ٧٢ و ٤٣	ميسيه (الفريد دى ميسيه) ١٢٦ و ١٢٧
٢٣٨ و ٢٣٦	معاوية بن ابى سفيان ١٤٤
١٦٢ — الهاء ١٦٠	معبد ١٨٨
حرف الياء	مكة ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٥ و ١٧٦ و ٢٠٠ و ٢٠٧
٢٠٣ و ١٧٦	منى ١٨٨
٢٨١	المنصور ٢٨٦
٢٠٥	المهدي ٢٨

سرائر الروح الحزين

شعرونثر

بقلم

زكى مبارك

يعون الله يظهر هذا الكتاب بعد قليل

